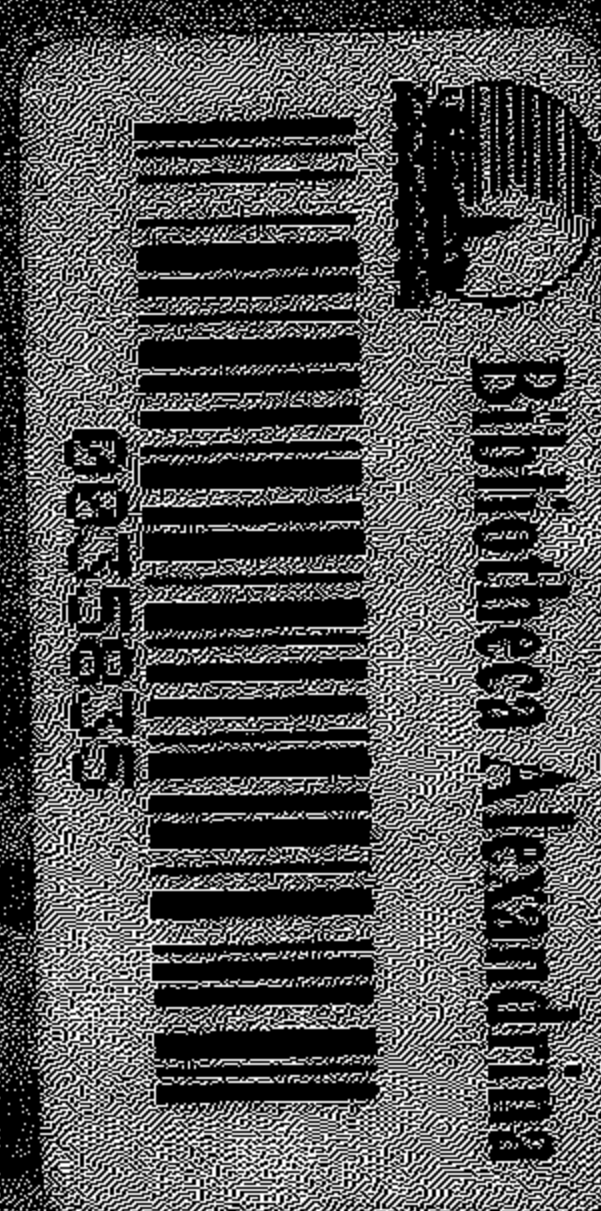


المسجونون

دكتور زاهر رياض

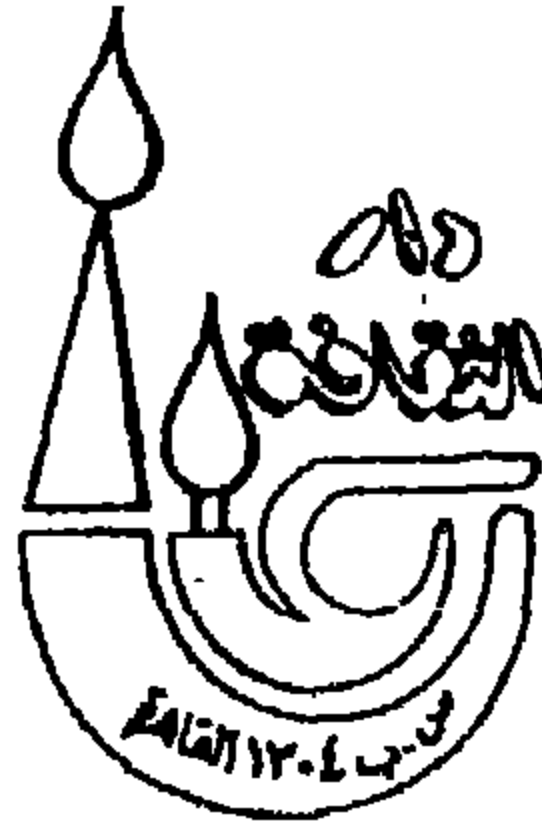


المسيحيون والقومية المصرية في العصر الحديث

تأليف

دكتور زاهر رياض

رئيس قسم الدراسات الأفريقية
بمعهد الدراسات القطية



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ — القاهرة .
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو
إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أي جزء منه بدون إذن الناشر ،
وللناشر وحده حق إعادة الطبع) ٣٠٥/١٠ ط ٧٩/١ (١) ٣ — ٣
رقم الإيداع : ٣٢٢٢ / ٧٩ ترقيم دولي : ٢ — ٨٦ — ٧٠٧١
طبع بمطبعة دار الطباعة القومية بالفجالة

في هذا الكتاب

الصفحة

الموضوع

٥

تقديم

٧

الباب الأول : الحكم العثماني

٣١

الباب الثاني : الحملة الفرنسية

٥٩

الباب الثالث : عصر محمد علي

٧٥

الباب الرابع : عصر اسماعيل

١٠٣

الباب الخامس : عصر الاحتلال البريطاني

١٥٥

الباب السادس : الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

تقديم

كتبت هذا الكتاب منذ أمد ليس بالقصير من أجل هدفين وضعتهما أمام عيني . أولهما تدعيم الوحدة الوطنية وهو هدف كل مصرى لا فى الوقت الحاضر فحسب . بل طوال تاريخنا كله . منذ أن ضم أهلها وطن واحد . فالعمل على تفتيت هذه الوحدة أو على الأقل الوقوف منها موقفا سلبيا جريمة معناها القضاء على مستقبل هذا الوطن ، قضاء لا رجعة فيها .

أما الهدف الثانى فهو الوقوف أمام سيئى النية والحاقدين والدسائسين الذين لا يفتأون يسيئون الى هذا الوطن بترديد دعوى أن المسيحيين تواكلوا دائما عن أداء دورهم الوطنى . بل كانوا فى أوقات كثيرة دعائم الاستعمار الأجنبى . وجعلوا يشوهون مواقف من برز منهم فى المناسبات الوطنية المختلفة من أمثال المعلم يعقوب حنا وبطرس باشا غالى . فالمسيحيون لم يتوانوا مطلقا عن أن يأخذوا مكانهم بين صفوف المجاهدين من أجل هذا الوطن ، بل وقفوا فى بعض الظروف وحدهم . فرغم أنهم أقلية عددية الا أنهم لم يتركهم يوما شعور الاغليات فى غير مصر من البلاد . بل شعروا ويشعرون دائما أنهم أصحاب هذا البلد . وأن ليس لهم وطن آخر يلجأون اليه اذا عز عليهم المقام . أو يطالبون الحماية من بلد أجنبى ، فالوطن وطنهم وان سخط الحاقدون . فأكون قد أردت بهذا الهدف أن أجلو صفحة المسيحيين بعامة وصفحات هؤلاء الناس بخاصة .

واذ كنت قد ألمحت فى معرض الكلام — الى بعض سوء المعاملة الذى وقع بالمسيحيين فى بعض فترات التاريخ الاسلامى فانى أرمى بذلك الى هدفين أيضا أولهما أن أظهر أن هذا لم يكن فى يوم من الأيام سياسة عامة تتبعها الدولة ازاءهم بل كان سياسة بعض الولاة أو الخلفاء أو السلاطين من أجل دوافع شخصية أو استجابة لدعوات أجنبية نظروف خاصة اما الهدف الآخر فهو

أن يقرأها المسيحيون فيحمدون الله على ما يعيشون في ظله الآن من أمن
وطمأنينة وسلام وأرف وحرية يحسدهم عليها كثيرون ، وأن يقرأها المسلمون
فيعملون دائما على أن لا تتكرر لمواطنيهم في المستقبل هذه المحنة . فالتوى
أن تسامح فعن قوة ، وأن منع فعن تجبر غليس أوتيع في نفس المسيحي من أن
يخلو الى نفسه والالم يعتصره ويردد مع الشاعر :

وظلم ذوى القربى أشد غضاظة

على النفس من وقع الحسام المهند

أول أكتوبر سنة ١٩٧٨

زاهر رياض

“الباب الأول

الحكم العثماني

أجمع المؤرخون جميعاً على أن حكم الدولة العثمانية للولايات التي خضعت لها كان فاسداً بالغ الفساد . وكأن أنواع الفساد الموجودة في جميع نظم الحكم العالمية ، قد اجتمعت في بوتقة واحدة لتنصهر وتكون هذا الحكم العثماني ، الذي اتسم بالجمود والعزلة وسوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فبينما كان العالم خارج الامبراطورية التركية ينمو وينشط ويتعلم كانت الشعوب الخاضعة للحكم التركي جامدة على الحالة التي وجدت عليها في أوائل القرن السادس عشر ، بل أسوأ مما كانت . فقد كانت الدولة التركية دولة حربية قائمة على القوة وحدها ، لا يعنيه إلا الفتح . أما غير ذلك فمحتقر غير جدير بالعناية . ولكي تضمن هذه الامبراطورية خضوع الولايات الاسلامية صورت لهم — منذ منتصف القرن الثامن عشر — العالم الخارجي مجموعة من الكفرة الذين لا يستظلون بنعمة الاسلام . نفى الاتصال بهم نوع من الرجس والسكفر لا يرضى عنه المسلم الصالح فكفى بالاسلام نعمة تظللهم وكفى بخضوعهم لامير المؤمنين وخليفة المسلمين فخراً . ومن المؤلم أن هذه الشعوب الكبيرة من الشعوب الاسلامية التي تفوق الأتراك في ثقافتهم وعلمهم وسمو ادراكهم قد صدقتهم وبقي هذا الطلسم يحول بين هذه الشعوب النشطة المجدة وبين نور العالم .

وحالت الدولة بين معظم رعاياها وبين الخارج ، فمنعتهم من الخروج إلا بأذن من السلطان ، ودون هذا الأذن خبط القناد وكان من أثر هذه السياسة على اقليم مصر أن تحولت القومية الوطنية فيه الى قومية اسلامية وبات الناس لا يفكرون في بلدهم قدر ما يفكرون في الرابطة الاسلامية ويجدون في هذه الأخيرة بديلاً عن قوميتهم . فكان الحكم التركي بذلك نكبة على قوميتنا . ولكن القومية المصرية الصحيحة قوية ، قديمة ، راسخة ، عميقة الجذور . ولذا لم تلبث الحوادث أن أظهرتها .

وفي خلال هذا العبر الطويل الذي عاشته الدولة التركية ظلت العلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمة على سوء الظن وعدم الثقة سواء من السلطان بمن حوله من أفراد عائلته أو بينه وبين الحاشية أو بين هؤلاء والجيش والموظفين ، وامتدت هذه الصفة الى عدم الثقة بالحكام المعيّنين لحكم الولايات . ولذا كان هؤلاء الحكام يعينون لعام واحد ، وقد تمتد مدتهم الى عامين أو ثلاث أو أكثر . ولكن نادرا ما كان يحدث ذلك . وحتى السلطة التي يتمتع بها والي كثيرا ما كان يقاسمه فيها غيره من رؤساء الفرق . الذين كانت سلطتهم في ذلك مطلقة ولذا كانت النتيجة الحتمية لهذا الحال انهيار الدولة انهيارا سريعا . وان ظلت مهتظة بهيكلها الخارجى لأكثر من أربعة قرون .

ومصر التي كانت درة العالم في القرن السادس عشر ، بالرغم من سوء حكم المماليك لها ، قضى عليها هذا الحكم التركى السادس . فقد أسرع السلطان سليم فحمل مهرة الصنّاع الى استنبول . وكانت بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين فكانت تلك أولى النكبات التي شهدتها البلاد من هذا القادم الجديد ، علاوة على ضياع استقلالها . وشهدت البلاد بعد ذلك قرونا من الانهيار والفساد . فقد اهتدى البرتغاليون قبل الاحتلال التركى بسنين قليلة الى طريق رأس الرجاء الصالح من أجل الوصول الى الهند . ثم ملكوا الهند فخسرت مصر ما كانت تحصل عليه من مكوس التجارة الهندية الوفيرة . وبدأ الفقر يخيم عليها ، وكان الفلاح أول من شعر بهذه النكبة ، حين انصب الحكام على هذا المسكين يذيقونه مر العذاب ليستخلصوا منه ما كانوا عليه من دخل التجارة .

وكان النظام الذي فرضه الاتراك لحكم الولايات لا يقصد منه الا مضلحة : (الأم) فقد كان تحديده مدة الولاية باعثا لأن يجعل هذا المنصب مثارا لكثير من « المزادات » في العاصمة (استنبول) واتجه حكام الولايات الصغيرة الى نيل هذه الولاية الغنية بالرشى التي اتخذت شكل الوعود ، أو المال المؤجل . أو المدفوع ، أو النساء ، أو صلة القرابة ، أو المصاهرة . حتى اذا فاز الغانم بهما لم يكن هدفه موجهها الا الى الاسراع في جمع الثروة

بطرق أقل ما يقال عنها انها بعيدة عن النزاهة . فكان من جراء ذلك ان هرب الفلاحون تاركين الأرض دون زراعة . فلم يكن يمر جيل واحد الا وتحذث مجاعة او مجاعتان او ثلاث كما حدث في السنوات ١٦٠٣ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٢ .

ويحدثنا التاريخ ان هذه المجاعة الأخيرة افنت مائتين وثلاثين قرية . وأعقبها قحط وغلاء . ودأب الجند العثماني خلاله على النهب والسلب ، حتى عجز الولاة عن قمعهم وصارت كل طائفة من الجند تأخذ في حمايتها عددا من التجار او المزارعين ليقتسموا معهم الأرباح نظير حمايتهم من غيرهم ، ومن اداء حقوق الحكومة .

ويحفظ لنا « السنكسار » من أمثال هذه الحوادث كثيرا . فهو يذكر من حوادث سنة ١٦٢٤ أنه حدث وباء عظيم في أرض الصعيد وابث قائما من طوبة الى برمودة حتى فنت الناس وخربت البيوت .

وفي سنة ١٦٢٦ ظهر وباء عظيم في كل الأرض . كما يذكر عند ذكر حياة الأنبا بطرس السادس أنه في سنة نياحة هذا البابا (وقع وباء الطاعون مع قحط شديد فتنيح قسس كثيرون ، وأساقفة ووقع الموت على الناس من الاسكندرية الى أسوان واضطر الناس الى ترك الزرع حتى صاروا يدفنون الناس في الحصر من قلة الأكفان ، وفي تلك السنة تلفت زراعة القمح فلم يسد حاجة البلاد ووقع القحط والغلاء) .

كما يذكر عن حياة البابا مرقس السابع (١٧٤٥ — ١٧٦٩) انه بعد سنتين من رئاسته « حدثت فتنة عظيمة بين العسكر في مصر قتل فيها كثيرون من الأمراء وهرب البعض منهم الى الصعيد ثم هاجروا الى الحجاز » .

وكانت الحالة تزداد سوءا حين يسود نفوذ بعض قبائل العرب . ففي بعض الأوقات سيطرت الهوارة على الصعيد وأغاروا على القرى ونهبوها (١) وأكثر من ذلك حين يتحد الأمراء مع العرب على هذا النهب .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٤٩ .

فكثيرا ما جمعوا المراكب وحجزوها ، وعطلوا أسباب التجارة ، والمسافرين ، وجمعوا الأموال من المصادرات والملتزمين والفلاحين (١) .

وكان الاستعداد للحج وقيام المحمل ، يبدأ في العادة في شهر جمادى الأول ، حين يقلد أمير الحج . فاذا ما أهل رجب ، فرضت ضريبة خاصة على التجار (٢) وصودرت البهائم ، وأخصها الخيول والبغال (٣) . ولكن الناس سرعان ما ينسون ما حل بهم اذا ما رأوا جمل المحمل يتبختر بأحماله الثمينة في شوارع القاهرة فيسرعون الى مشاهدته والتبرك به . ولاضطراب حبل الأمن في الطريق قلما كان المحمل يصل الى الحجاز سالما . اذ تتلقفه قبائل الأعراب فتتهب ما يحمله الحجاج من مال بل يصل الامر الى قتلهم .

واذا نجح في الوصول الى غرضه فقلما كانت هذه الفرصة تقسوت الأعراب عند عودته . فكثيرا ما وصف الجبرتي في صفحاته المختلفة دخول الحجاج العائدين وهم في أسوأ حال ، من جراء هجوم الأعراب عليهم وسلبهم ما يحملون .

ولم يكن أمام الفلاحين الهاربين سوى أن يسعوا الى الرغيف من أهون طرقه وهي اللصوصية وقطع الطريق فاختل الأمن وفسد الحال . فلا غرابة اذا وجدنا الأرض الزراعية قد نقصت مساحتها وأغارت الصحراء عليها برمالها وطمرت الترع والمصارف .

وكثيرا ما ضاق السلطان بنفسه الممالك فيمنع السفن الاجنبية من الملاحة في البحر الأحمر والوصول الى السويس لئلا يكون ما تدفعه من مكوس سببا في زيادة قوة الممالك (٤) وان كان السبب الظاهري الذي ذكره السلطان لذلك هو حماية الاراضي المقدسة وقد يكشف السلطان عن قناعه فيرسل لهم من يقاتلهم كما فعل حين أرسل حسن باشا القيطان لمقاتلة ابراهيم بك ومراد بك فوصل على رأس أسطول هزم أسطول الممالك في فوه

(١) الجبرتي ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ .

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ٥٥ .

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ٩ .

وتتقدم الى القاهرة ، ففر الممالك الى الصعيد الا ان جنوده سرعان ما عاثوا في القاهرة فسادا كما استخرج هو اموال الممالك واستولى عليها واخرج جواريتهم وامهات اولادهم بل واولادهم وعرضهم للبيع . ولم يكد ينتهى من ذلك حتى التفت الى التنكيل بالاقباط فأمرهم ان يقيدوا أسمائهم وأن يعنفوا من كان عندهم من المسلمين من خدمتهم كما صادر أملاكهم وفرض عليهم الجزية (١) .

وكان اثر اختلال الأمن على التجارة الداخلية توقفا تاما . وعملت كل قرية على أن تكفى نفسها وتركزت التجارة الكبيرة في القاهرة والاسكندرية وقوص . وكان التجار يتخذون من مداخل بيوتهم معارض لبضاعتهم حتى اذا شعروا أن الاضطراب وشيك الوقوع ، أو أن الممالك بسبيل النزاع بين فرقهم المختلطة أغلقوا عليهم الأبواب وتحصنوا ونساءهم وأبنائهم داخل بيوتهم لبوم أو أكثر حتى تنتهى الغمة . ولكنهم في أغلب الأحيان كانوا اذا ما عادوا اليها وجدوا أغلبهم منهوبا ، فيجمعون ما تبقى منها وهم يصبون لعناتهم على كل من الممالك والأتراك ، ولجأوا بالشكوى الى سر التجار فلجأ هذا الى شيخ البلد فيعده هذا بالحماية وعدم العودة الى مثل ذلك ، ولكن بعد أن يدنع وأخوانه بعض المال ثمنا لهذه الحماية . ولن أحاول هنا أن أطيل في وصف أحوال المصريين ، بل سوف أكتفى، بأن أنقل لك صورة منه كما كتبها الجبرتي مؤرخ هذا العصر . فأنت اذا قلبت صحائف هذا الكتاب الجامع فلن تجد الا عبارات تكاد تتكرر في كل صفحة من صفحاته اليك بعضها .

« وقبضوا على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسببين وحبسوهم وصادروهم في أموالهم وسلبوا ما بأيديهم فجمعوا من المال ما جاوز الحد ولا يدخل تحت العد (٢) .

واشتد الكرب والضنك على الناس وأهل البلاد . وانقطعت الطرق القبلية والبحرية، برا وبحرا . وكثر تعدى العسكر وغلت الأسعار، وشح وجود

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الغلال وزاد أسعارها : وكثر عيث المفسدين والفحش جماعة لبكوات في السلب والنهب ولم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر (١) » .

« وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء في أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس » (٢) ومن حوادث هذا الشهر زيادة تعدى العسكر على النساء وأخذ ثياب من ينفردون به من الناس ، وهاج الفلاحون من الأرياف لما نزل بهم من جور العسكر وعسفهم في البلاد » (٣) .

« سارت زفة عروس بالنحاسين فهجم عليها الانكشارية وخطفوا ما على العروس وبعض النساء من المصاغ والزينات » (٤) .

أما الأقباط فلم يكن عددهم يزيد على أكبر تقدير عن مائة وخمسين ألفا مبعثرين في طول البلاد وان زادت في الصعيد عنها في الوجه البحري ولا تصل نسبتهم مطلقا الى أن يكونوا أغلبية في قرية من القرى وان خلت منهم بلاد كثيرة .

وقبل أن نستطرد الى وصف أحوالهم فلابد أن نذكر شيئا عن المسيحيين عامة تحت الحكم التركي . فقد كانت الدولة حتى بداية القرن السادس عشر تحكم من أوربا شبه جزيرة البلقان حتى نهر الدانوب ومن آسيا شبه جزيرة الأناضول ولا تحكم من أفريقيا شيئا . فكانت الحكومة اسلامية وان كان شعبها مسيحيا وكلهم من الأرثوذكس الذين يعترفون بالرئاسة الدينية لبطريك استنبول ولذا وجدت الحكومة نفسها أمام شعب لا يفهم شيئا في طقوسه ولا في طريق حياته فاضطروا لأن يتركوا لهم حريتهم الدينية يديرها لهم البطريك واكتفت معهم بمجرد دفع الضرائب والولاء التام للدولة . وكان جزء من هذه الضرائب يدفع على شكل أطفال صغار لا يتجاوز الاثنى عشر سنة تجمعهم الدولة سنويا ، وتفصلهم عن أهلهم فصلا تاما على أن يربوا في قصر السلطان تربية خاصة تؤهلهم لأن يشغلوا وظائف الدولة ويكونوا جيشها فخرج هذا النوع من الافراد وهم لا يعرفون لهم أهلا الا الولاء

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٣

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(١) الجبرتي ح ٢ ص ٨٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢١٢ .

للسلطان ، والولاء له يعنى حياتهم ومستقبلهم مجرد الشك في هذا الولاء يقضى عليهم القضاء الأخير : وهذا النوع من الافراد هو الذى عرف باسم الانكشارية . وكان هذا العسكر ممتازاً عن الاهلين في كل شئ فرفضوا أن ينتظم غيرهم في سلكهم حتى لا يحظى بما يتمتعون به . وقد حاول أحد ولاة مصر وهو ادريس باشا (١٥٨٧ — ١٥٩١) أن يدخل المصريين في الجيش فاشتعل لهيب الفتنة ولم يقبلوا أن يتشبه بهم أحد في لباسهم وهجموا على ادريس باشا وأهانوه فاضطر الى الازعان لهم . وغنى عن الذكر ان هذا الاجراء فوت على الولايات تكوين القوة الوطنية التى تستند عليها اذا ما ارادت لنفسها الاستقلال . اذ لابد أن تستند مثل هذه الحركات على قوة وطنية تعضدها والا كتب عليها الفشل مقدماً .

ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذت الدولة تتطلع نحو الشرق . فغزت العراق ، ثم فارس فالشام فمصر والجزيرة العربية ولم ينقض الربع الأول من القرن حتى كانت هذه البلاد خاضعة للإمبراطورية التركية وبذلك انقلب الميزان وأصبحت الدولة الاسلامية شعباً وحكومة . وكانت مصر ولا تزال تضم اقلية مسيحية كونت جزراً صغيرة وسط محيط اسلامي . وخضعت هذه الاقلية لبطيريركية خاصة هى بطيريركية الاسكندرية التى كانت منذ نشأة المسيحية موضع الحسد والكراهية من بطيريركيى استنبول وروما كما ان هذه البطيريركية الصغيرة كانت في حالة انحطاط وتفكك فمنذ أكثر من عشر قرون سابقة ظلت خلالها محرومة من كل ثقافة دينية ، كما كانت محرومة من الموارد الخارجية التى يمكن أن تستخدمها في زيادة ثقافتها ولذا لم تجد هذه الاقلية المسيحية التى تعيش في مصر من يعنى بها بشكل جدى . فبينما كان مسيحيو أوربا يتمتعون بحريتهم كاملة سيواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية كما كان مسيحيو الشرق من الروم الأرثوذكس يجدون مثل هذه الحماية بفضل رئاسة بطيريرك استنبول لهم . كان مسيحيو مصر محرومين من هذا كله . فلم تعن الدولة بايجاد تشريعات خاصة تحدد مركزهم ، ولذا خضعوا لأنواع من الاحكام التقليدية التى كانت نجرى عليهم قبل الاحتلال التركى وهذه العبارة المنقولة عن الجبرتي تصور بعض حالهم .

(١) تاريخ مصر من الفتح العثماني ص ٨١ .

« قصد بعض نصارى القبط حج بيت المقدس وكان كبيرهم اذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتحدا فكلّم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية وائف دينار فكتب له فتوى وجوابا ملخصه ان اهل الذمة لا يمنعون من ديانتهم وزيارتهم فلما تم لهم ذلك شرعوا فى قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة واحمال وتختراوانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا عند تبة العرب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وأعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وانعامات وشاع أمر هذه القضية فى البلد . فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى الى بيت الشيخ البكرى كعادته . وكان على أفندى أخو سبد بكرى متمرضا فدخل عليه يعودده فقال له « اى شىء هذا الحال ياشيخ الاسلام . كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال . الكونهم ارشوك وهادوك » . فقال لم يكن ذلك . فقال « بل ارشوك بألف دينار وهدية وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من ذلك . ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين . وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة . فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظا وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم . وخرج كذلك معهم طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دامرداش . وانتكس النصارى فى هذه الحادثة نكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء (١) ».

وقد حاول الأجانب أكثر من مرة ان يسغلوا سوء حال الاقباط تحت الحكم التركى ليتدخلوا فى الحكم والحكومة الوطنية بدعوى حمايتهم ، فرفض الاقباط هذا التدخل وهذه الحماية رافضين ان يبيعوا بلدهم مقابل الحرية الدينية فقد سعى بابا روما خلال بطريركية يونس الثامن عشر (١٧٦٩ — ١٧٩٦) لاجتذاب كنيسة الاسكندرية لتعترف برئاسته فأرسل اليه رسولا يحمل رسالة يدعوها فيها الى الاتحاد مقابل الحماية فتسلم البابا هذه الرسالة الى

(١) الكافى ج ٤ ص ١٤٠ نقلا عن الجبرتى .

الانبا يوساب اوقف جرجا وكلفه بدراستها والرد عليها . فقام هذا العلامة بالرد عليها وتفنيد دعواها لانه كان من المتصلعين في العلوم اللاهوتية . وقد حدث مثل ذلك مما فعله القائد التركي حسن باشا قبل ذلك من مصادر خزينة البطريركية واخذ اموالها الامر الذي اضطر البطريرك الى ان يتوارى ويختفى من جور هذا الحاكم (١) كما هجم على بيوت النصارى ونقض ناموس الانسانية فنهب وجنوده اثاث المنازل وقام العسكر بالقبض على زوجة المعلم ابراهيم الجوهري وارغموها على اخراج اموال زوجها وتحفه الثمينة بعد ان هرب مع ابراهيم بك ومراد بك في ثورتها ولم يتورع عن فرض الضرائب الباهظة على النصارى بصفة تشبه النهب والسلب .

وكان الشيء الوحيد الذي يزاولونه في حرية واختيار هو حق انتخاب البطريرك فاذا مات اُحدهم اجتمع الآباء والأساقفة والكهنة وبعض البارزين من افراد الشعب لاختيار الراعى فينتخبون عددا من الكهنة والرهبان فيقيمون القداسات لثلاثة ايام تنتهى بعمل قرعة هيكلية طالبين من الله ان يرشداهم الى من يصلح لرعاية شعبه (٢) وعلى هذا النحو انتخبت اربعة عشر بطريركيا خلال العهد التركى وهم :

١ — غبريال السابع (٩٥) الذى انتخب سنة ١٥٢٥ ومكث ثلاث واربعين سنة مات اثناء هربه من الوالى التركى الذى طالبه بمبلغ من المال .
٢ — يؤنس الرابع عشر (٩٦) الذى انتخب سنة ١٥٧١ ومكث خمس عشرة سنة .

٣ — غبريال الثامن (٩٧) الذى انتخب سنة ١٥٨٧ ومكث ست عشر سنة .

٤ — مرقس الخامس (٩٨) الذى انتخب سنة ١٦٠٣ ومكث ست عشرة سنة .

(١) السنكسار من تذكرات ٢ بؤونة .
(٢) السنكسار ١٠ بؤونة و ٢٦ برمهات و ١٣ برمودة ٢ بؤونة .

- ٥ — يؤنس الخامس عشر (٩٩) الذى انتخب سنة ١٦١٩ ومكث عشرة سنوات .
- ٦ — متاوس الثالث (١٠٠) الذى انتخب سنة ١٦٣٣ ومكث أربع عشرة سنة .
- ٧ — مرقس السادس (١٠١) الذى انتخب سنة ١٦٤٦ ومكث عشرة سنوات .
- ٨ — متاوس الرابع (١٠٢) الذى انتخب سنة ١٦٦٠ ومكث خمس عشرة سنة .
- ٩ — يؤنس السادس عشر (١٠٣) الذى انتخب سنة ١٦٧٦ ومكث اثنتى وأربعين سنة .
- ١٠ — بطرس السادس (١٠٤) الذى انتخب سنة ١٧١٨ ومكث ثمان سنين .
- ١١ — يؤنس السابع عشر (١٠٥) الذى انتخب سنة ١٧٢٧ ومكث ثمان عشرة سنة .
- ١٢ — مرقس السابع (١٠٦) الذى انتخب سنة ١٧٤٥ ومكث أربعة وعشرين سنة .
- ١٣ — يؤنس الثامن عشر (١٠٧)
- ١٤ — وأخيرا مرقس الثامن (١٠٨) الذى انتخب عند بداية حكم محمد على .

ومن تكرار القول ان نذكر ان البطارقة كانوا ينتخبون دائما من بين الرهبان الذين يعيشون فى الأديرة وقد نذروا أنفسهم للبتولية والمعيشة الانفرادية داخل الأديرة وكان للأقباط منها سبعة أديرة أربعة منها فى وادى النطرون وهى دير السيدة العذراء المعروف بالسريان ودير أنبا بشوى بالصحراء الشرقية مقابل مدينة بوشى بمديرية بنى سويف ويقطع الطريق منها الى الدير فى ثلاثة أيام بالقوافل ثم دير أنبا بولا الذى يقع بين جبال البحر الأحمر ثم دير السيدة العذراء الشهير بالمحرق الذى يقع فى سفح جبل قسقام تجاه بلدة القوصية وعلى خمسة عشر كيلو مترا منها وكان بكل دير

مكتبة تحوى المخطوطات الدينية التى توافر الرهبان على نسخها خلال اقامتهم بالدير الا أن تعرضت هذه الدير خلال العصور المتعاقبة لهجوم الغزاة وقبائل البربر والعرب عليها أضاع كثيراً من هذا التراث الثقافى الثمين .

ولم يكن الاقباط رغم قلتهم وضآلة أمرهم فى نظر الحكومة متحدين ولا متعاونين فكثيرا ما اختلفوا مع بعضهم وتراشق زعماءهم بالتهم حتى كانوا فى كثير من الأحوال سببا فى تأخير انتخاب البطريك مددا امتدت فى بعض الأحيان الى أربع سنين كما حدث عقب وفاة مرقس السادس البطريك الحادى بعد المائة وقبل انتخاب متاوس الرابع ولم يكن ينتخب البطريك فى العادة الا بعد سنة أو سنتين كما حدث عند انتخاب يؤنس الرابع عشر ومتاوس الثالث وغبريال الثامن ومارقس السادس ويؤنس السادس عشر ويؤنس السابع عشر يقضيها الاقباط فى نبش الخلافات القديمة واختراع خلافات جديدة نزيد من احتقار الحكومة لهم واستهتارا بأمرهم بل وصل الحال أيام غبريال الثامن (١٥٨٧ — ١٦٠٣) أن أقيم أربعة من البطارقة فى وقت واحد ينصر كل بطريك فريق من الاقباط (٢) بل بلغ الحال ببعض الاقباط بأن يحاولوا منع البطريك بطرس السادس أن يحترم الدين بمنع الطلاق فاعترضه بعض المسيحيين لأغراضهم الشخصية فسار الى السنجق ابن ايواز وباحت علماء المسلمين فكتبوا له فتاوى « بأنه المقرر على أصول مذهبه دون غيره وليس لأحد أن يعارضه فى أحكامه » .

وكان من التقاليد التى ورثها العهد التركى عن المماليك وحرص على الإبقاء عليها وساعد على ذلك ما كان عليه الاقباط من جهل واختلاف ونفكك عدم بناء كنائس جديدة أو تجديد أخرى قديمة حتى اذا جراًوا على ذلك قامت قيامة الحاكم عليهم ومنعوا من اتمام ما بدأوه بل وسلط عليهم العسامة يخربون ما أتموه . فقد روى السنكسار فى حوادث ١٠ بؤونة أنه فى شهر أبيب سنة ١٤١٧ ش .

(١) الدليل العام للأقباط ص ٦٢ — ٧٠ .
(٢) السنكسار ٩ بشنس .

وقع اضطهاد على الشعب الأرثوذكسى بمصر المحروسة فى زمن
الوالى محمد باشا بسبب وشاية وصلته بـن طائفة النصارى القبط أحدثوا
بنيانا جديدا فى كنائسهم فعين على الكنائس أغا من قبله وجاء رجال المعمار
وقضاة الشرع للقيام بالكشف على الكنائس غزئوا وكشفوا وأثبتوا أن فى
الكنائس بناء جديدا . ولكن عناية الله لم تتخل عن شعبه بصلوات أبائهم الطاهر
فحنن على أمته القبطية قلوب جماعة من أمراء مصر وأكابر الدولة وتشفعوا عند
الوالى فقرر عليهم غرامة فاجتمع السيد البابا بالسادة المخاديم المعلم يوحنا
أبو مصرى المعلم جرجس أبو منصور والمعلم إبراهيم أبو عوض واتفق الراى
بينهم على أن يطوف البابا المكرم حارات النصارى ويؤور البيوت ويحصل منهم
على ما يمكن تحصيله الى أن يتم جمع الغرامة المطلوبة .

كما جاء فى سيرة الأنبا بطرس السادس (١٧١٨ — ١٧٢٦) أنه « عمر
بيعا كثيرة فناله بسبب هذا التجديد أن غرمة الوزير أربعين كيسا دفعها
من ماله المعلم لطف الله يوسف ناظر دير القديس انطونيوس » .

وبسبب هذه الغرامات التى لم يكن البطارقة يجدون وسيلة لدفعها
أو تسديدها ، لم يحجم بعضهم عن ارتكاب الآثام كبيع المناصب الدينية أو
فرض الضرائب السنوية على بعض الأقباط يجمعونها فى بعض المواسم مما
أثار استياء كثيرين فقد روى أن مرقس السادس (١٦٤٦ — ١٦٥٦) طلع
الى الصعيد وأقام أربع سنوات جمع فى أثاثها أموالا طائلة وكان كثير الحمق
فضج من أعماله الناس وسائر الأساقفة والقسوس والأراخنة واستمرت
العداوة قائمة بينه وبين المعلم بشارة حتى عاد الى مصر فتواقع عليه
واصطلح معه (١) .

ولذا خضع الأقباط طوال العهد التركى لأنواع من المظالم ورثها الأتراك عن
المماليك وجروا على أحيائها فى فرص مختلفة (٢) ومن العبث أن نذكرها أو
بعضا منها فهى كلها معروفة والباعث انيها سواء كان من الأتراك أو
المماليك انهم غرباء عن البلاد لا يعنيه شئ قدر الاحتفاظ بسلطتهم لا تعنيهم

(١) السنكسار ١٥، برمودة .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٣ .

مصلحة البلاد في قليل أو كثير .

ولم تكن هذه المظالم في الحقيقة سوى نكاة لنهب أموالهم فغالبا ما كانت هذه المظالم تتوقف يوم صدور الاعلان بها أو في اليوم التالي اذا ما اتفق على دفع مبلغ من المال يصل في العادة الى ألف ريال (١) ولكنها كانت أيضا فرصة ثمينة لتعدى الغوغاء على بيوتهم ونهبها (٢) .

وهناك حقيقة لابد أن نعترف بها وهي أن جانبا كبيرا من مسئولية هذه الحالة السيئة يقع على عاتق الرئاسة الدينية التي كانت تعيش في بحر مغلق من التقاليد دون أن تحاول التطلع الى الخارج أو الاتصال بغيرها من الرئاسات الدينية كما انها لم تحاول أن تقوم بالدور الذي قامت به الرئاسات الاخرى التي كانت خاضعة للدولة التركية من محاولة تثقيف الشعب أو حتى محاولة تثقيف رجالها مما يؤهلها لأن تحتل مكانة الزعامة من الشعب وفي نفس الوقت يجب أن نعترف انه لم يكن هناك من القوانين ما يمنعها من أن تفعل شيئا من ذلك .

ويمكننا بعد هذا الاجمال أن نعطي بعض التفاصيل عن أقباط القاهرة فقد عاشوا في ثلاث مناطق احداها في الطرف الشمالي من المدينة وهي المنطقة التي تمتد حاليا من الخازندار حتى باب الحديد وكانت تحدها بركة الأزبكية من الجنوب وتطل من الشمال على منطقة زراعية واسعة هي منطقة الفجالة الحالية كما تحدها من الغرب ترعة تخرج من النيل شمالي المتحف المصري الحالي وتسمى الترعة البولاكية لأنها كانت تفصلها عن بولاق وكانت تصلها بالمنطقة قنطرة تسمى بقنطرة الليون وما زال هذا الحى يحمل اسمه حتى الآن وهو حارة النصارى ويحترف اهل هذا الحى بتجارة العلف والشموع والبخور والعطارة . وقامت على أطرافها قلعة بناها المعلم يعقوب حنا عند حارة الجبرونى وكان الحراس يحرسونها ليل نهار .

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٥ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٨ .

وتقوم المنطقة الثانية على ضفة النيل اليمنى مواجهة النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة وهى منطقة مصر القديمة حيث يوجد دير مارقوريوس الشهير بأبى سيفين وكنيسته التى تعتبر من أجمل الكنائس لاحتوائها على جملة أحجبة من خشب الابنوس المطعم بالعاج ومجموعة من أيقونات قديمة . كما يوجد بعض الكنائس القديمة مثل أنبا سفرة واستفانوس الشهيرة بالمعلقة لبنائها بأعلى أحد أبراج الحصن الرومانى المعروف بقصر الشمع وكانت مقرا للبطريركية حتى القرن الحادى عشر حين انتقلت منها الى أبى سيفين الى حارة زويلة فحارة الروم (١) وهناك أيضا كنيسة أبى سرجة التى تقع بأسفلها كنيسة أخرى صغيرة يقال انها أنشئت مكان المنزل الذى أقامت به السيدة العذراء والمسيح وخطيبها يوسف أثناء وجودهم بمصر هربا من وجهه هيرودس ثم كنيسة السيدة بربارة وكنيسة مار جرجس .

أما المنطقة الثالثة فتتألف من خان الخليلى والخليج المصرى وهى الصاغة الحالية واحترف أهلها صياغة الذهب والفضة وتسليف النقود مقابل الرهون والمنسوجات وكان فلاحو القرى يقصدونها حال نزولهم للقاهرة لتجهيز بنانهم وسكن قليل منهم الغورية وبولاق والحمزاوى واشتغلوا بالتجارة (٢) .

وكانت دكاكينهم التى تراكم فيها تجارتهم تطل على الحارات الضيقة وهى فى نفس الوقت مداخل بيوتهم وهى تقود الى حوش كبير غالبا ما يحمل اسم صاحبه مثل حوش الشماع تطل عليه المنازل التى على هيئة مربع يحيط بهذا الحوش .

وكان سكان القاهرة من المسيحيين يعيشون فى رفاهية نسبية عن سكان القرى كما كانوا يهتمون بتعليم أولادهم الحساب والقراءة العربية وبعض التراتيل الدينية بل اهتم بعضهم بدراسة اللغة القبطية واتقانها وغالبا ما كان يقوم بمهمة التعليم بعض القسوس يعاونهم بعض المدنيين الفقراء

(١) الكافى ج ٤ ص ١٠٦ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٨ .

وكان يطلق عليهم اسم الخوجة بلّ تعام بعضهم اللغات الأجنبية بفضل اتصالهم ببعض التجار الأجانب الذين كانوا يعيشون في القاهرة .

وقد سكن كثير من الاقباط الصعيد لا سيما مدن أخميم وقوص ونقادة وأسيوط وقد كان ثراء تجار أسيوط يصور لنا مثلاً حسناً لمقدرة الاقباط التجارية . فقد اشتغل كثير منهم بالتجارة مع السودان فكانوا يستقبلون ما يرد منه من العاج وريش النعام والرقيق ويقومون بتوزيعه في جميع أنحاء البلاد فعند أسيوط ينتهى درب الأربعين الذى يبدأ من الفاشر ويقطع الصحراء الغربية شمالاً حتى ينتهى الى أسيوط فلا غرابة اذا اتخذ سلطان دارفور المعلم غبريال شنودة أحد تجار أسيوط وكيلاً له في مصر ليستقبل قوافله الواردة وكانت تبلغ في بعض الأحيان خمسة عشر ألف جملاً كما يجهز القوافل الصادرة ويحصل له أثمان ما يبيعه حيث كان السلطان هناك يحتكر معظم تجارة سلطنته . وكانت علاقة هذا السلطان بالمماليك متوترة دائماً لا يثق بهم ولا يأمن اليهم فاذا بلغه نبأ وصول نابليون واتجسأه الى القضاء على المماليك أرسل اليه يهنئه قائلاً « لى الشرف أن أبلغكم أن أخبار انتصاركم قد وصلت إلينا وعلمنا بالسرور نبأ انتصاركم على المماليك وإسلامكم ومداومتكم على مراعاة جانب الأجانب وقد أعطينا هذا المرسوم الى قائد القافلة يوسف الجلابى ليؤكد لكم صداقتنا التى سوف تكون دائمة باذن الله . ونحن نؤكد لها لكم بكل حرارة لأجل أن تحافظوا عليها ونقدم اليكم ألف تحية وتحية (١) .

ويجب أن نسجل لاقباط هذا العصر كثيراً من المفاسد التى استحقوا لأجلها كثيراً من المديح والثناء أولها أنهم قللوا ما كانوا يخضعون لما يصدر اليهم من الأوامر والنواهي التى تتعلق بمعاملاتهم وأزيائهم وركوبهم وغير ذلك فكثيراً ما ابتنوا البيوت العالية وسكنوها رغم أوامر الحكومة بأن لا تعلو منازلهم فوق منازل جيرانهم وكثيراً ما ركبوا الخيول وساروا بها في شوارع القاهرة واتخذوا لهم الاتباع والاعوان . وتمتع بعضهم بكثير من أسباب الجاه والثروة فتقرب اليهم الناس طلباً لحمايتهم .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٦٧ .

وشىء آخر يجب أن يفتخر به أقباط مصر أنهم في وسط هذا الخضم من القومية الإسلامية لم يكن هناك من دليل واحد على بقاء القومية المصرية الحية سوى هؤلاء الأقباط الذين احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم بل حرصوا على أن يعطوا أولادهم هذه الأسماء المميزة ليميزوا أنفسهم كمصريين في وسط هذا البحر الذي لم يكن يعرف فيه المصري من غيره من رعاية الدولة . فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية حتى إذا رأوا بوادر أمل في احياء هذه القومية لم يكونوا يترددون في تشجيعها وإذا كان التاريخ قد سجل لنا ثورة على بك الكبير على الحكم التركي ومحاولته الاستقلال بمصر عن السلطان وسعيه في استعادة القومية المصرية وحيائها في رأى بعض المؤرخين (١) أو محاولته فقط التمتع بهر كز مرموق في الدولة في رأى البعض الآخر (٢) فان الاقباط كانوا من ورائه يشجعونه وينظمون له حركته ويعينونه على القيام بها فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك الكبير والقسوة الدافعة من ورائه (٣) واليه يرجع الفضل في التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء في مصر او سوريا . كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر اكبر عون لمراد بك في محاولة الخروج عن السلطان وكذلك المعلم غبريال سيداروس من ابراهيم بك بل اشترك هؤلاء في تدريب الجند المصري وأبلوا بسلاء حسنا في المواقع التى دارت وان انتهت بنفشلهما وعودتهما الى طاعة السلطان .

ويحدثنا الجبرتي في جزئه الاول عن المعلم رزق انه كان رجلا حازما ومدبرا يقظا وانه كان على شىء من العلم وعن الأخص علم الفلك الذى مهر فيه بينما كان على بك من المصدقين بصدق المنجمين .

بدأ في اول عهده سكرتيرا لدار سك النقود ورفعته ثقة على بك الكبير به الى مدير حسابات الحكومة وقتئذ وذلك على الرغم من قسوة على بك

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٨١ — مصر في القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) على بك الكبير ص ٦٠ .

اسمه الاصلى يوسف بن داود ، ولد سنة ١٧٢٨ بالاناضول ، أبوه قس رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا اعتنق الاسلام وتسمى يونانى وبيع رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا اعتنق الاسلام وتسمى باسم على . (٣) محمد فؤاد شكرى ص ٢٦ .

على القبط ثم رفعته هذه الثقة أيضا الى رئاسة الدواوين واعتمد على بك عليه فجعله مع القيام بوظيفته مستشاره الخاص في تدبير شئون الدولة وعاون على بك معاونة صادقة في تحقيق أغراضه التي كان يهدف اليها من الاستقلال بمصر ورفع الحكم العثماني عنها فتوافر للمعلم رزق من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الدولة . وقد استخدم المعلم رزق لمعاونته في عمله كثيرين من الأقباط رغم كراهية على بك الكبير لهم فكان المعلم رزق بذلك صاحب مدرسة تؤهل الأقباط لأن يحتلوا أكبر مناصب الدولة لكفائتهم وأمانتهم وسعى في أوقات كثيرة كما يقول الجبرتي في منع الاضطهاد عن القبط ورفع الذلة عنهم .

ولم يحاول الأمراء والمماليك استخدام هؤلاء الأقباط لكفائتهم البارزة في الأمور المالية فحسب فكانوا بمثابة وزراء المالية لهم ويبدو ان كفائتهم في هذه الناحية كانت فذة وأمانتهم فوق مستوى الشبهات مما جعل مرتباتهم مرتفعة لا يدفعها الا من وصل حدا كبيرا من الثراء حتى اننا نجد الجبرتي عندما يريد ان يبالغ في اظهار ثراء أحد الناس فانه لا يجد عبارة يدلل بها على عظم ثروته غير عبارة (واستخدم الأقباط) وربما يكون هناك هدف آخر من وراء انضمام الأقباط الى المماليك فقد كان هؤلاء الآخرون العنصر الذي اغتصب منه الاتراك السلطة والذي كان تواقا للخلاص منه ويتطلع الى اليوم الذي تتخلص فيه البلاد من هذا الحكم التركي الاجنبي البغيض لتعود الى استقلالها السابق فكان اتحاد الأقباط معهم بمثابة اتحاد العناصر الثائرة ضد الاستعمار الاجنبي ترقبا ليوم الخلاص أي وحدة الغاية والهدف هي التي جمعت بين هذين الخصمين السابقين .

ويبدو ان نشاط المعلم رزق كان متجهًا أكثر ما يكون الى الخلاص في خدمة سيده على بك الكبير بينما كان تلميذه المعلم ابراهيم الجوهري متعدد جوانب النشاط فالى جانب تدبيره مالية على بك ثم محمد بك أبو الذهب ثم ابراهيم بك لم يكن يالو جهدا في خدمة طائفته ما وسعه ماله ونشاطه فيذكر عنه السنكسار انه كان من عاداته على ما روى معاصروه ان يتقسم ماله الى ثلاثة اقسام يخصص منها الثلثين للفقراء والانفاق على نسخ الكتب ووقفها وتقديمها من حين الى آخر الى البطريرك يؤنس الثامن

عشر وقد كانت كثرة الكتب التى قدمها منسوخة الى البطريك سبباً في دهشته حتى سأل في ذلك فكشف له عما يفعله فسر البطريك من غيرته وتقواه وباركه قائلاً (ليرفع الرب اسمك ويبسارك عملك وليقم ذكراك الى الأبد) .

ولم يحدثنا التاريخ عن موطن ابراهيم الجوهري أو نشأته فما زال نسبه مجهولا . كان في أول أمره كاتباً لأحد الامراء المماليك ثم ترك خدمته وأصبح عاطلاً فالتمس من البطريك التوسط له لدى المعلم رزق الذى كان موضع ثقة على بك الكبير فاتخذة كاتباً خاصاً به .

وإذا ما عصفت ريح السياسة بعلى بك وخلفه محمد أبو الذهب استبقى ابراهيم الجوهري في خدمته استقر الراى بين جميع كتبة مصر على أن يخلف ابراهيم رزقا في وظيفته فانتهت اليه رئاسة الدواوين .

وانتهت أيام محمد أبو الذهب وذهبت سلطته كما ذهبت سلطة سلفه على بك الكبير وانتهى الأمر الى يد ابراهيم بك ومراد بك على أن يتبادلا مشيخة البلد وأمانة الحج سنويا فقلد ابراهيم الجوهري رئاسة الدواوين في مصر كلها وهنا تجلت مواهبه فأصبح صاحب الكلمة المسموعة لا يعطوه غير الحاكم الأعلى .

وقد استطاع الرجل في هذا المنصب رغم ما ناله في بعض الأحيان من اضطهاد ومصادرة أن يمنع عن الأقبياس بعض الأذى إذ تمكن بنفوذه من استصدار بعض الفتاوى التى تجيز إعادة ما تهتم من الكنائس وأوقف عليها الأموال الكثيرة إذ لم يكن له الا ولد واحد مات في شبابه (١) .

وقد ذكر الجبرتي مؤرخ هذا العصر ان المعلم ابراهيم (كان رجلاً عظيماً في خلقه وفي علمه . سخياً كريماً الى أبعد حدود الكرم . أما عن خلقه الشخصي فقد كان وقوراً في دعة . متواضعاً في رفق ولين . طيب السريرة . عطوفاً . يرفق بالمحتاجين يواسي اليائسين كما كان رحب الصدر واسع

(١) صور من تاريخ القبط ص ٢٨٩ .

الحلم . عادلا في معاملة جميع الناس) . واذا ما مات في ٣١ مايو سنة ١٧٩٥ حزن عليه ابراهيم بك حزنا شديدا وخرج ليشهد جنازته أثناء مرورها بالقصر العيني وقد رثاه الجبرتي مع ما عرف عنه من تحيز ضد المسيحيين فقال : (ومات الذمى المعلم ابراهيم الجوهري . رئيس كتبة الأقباط في مصر . أدرك في هذه الدولة من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه . وكان من دهاقين العالم . ودهاتهم . لا يغرب عن ذهنه شيء من دقائق الأمور . ويدارى كل انسان بما يليق من الإدارة . ويحابى . ويهادى . ويواسى الأمراء عند دخول رمضان وعمرت في أيامه الكنائس وديور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والاطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والارزاق الدارة والغلال) (١) .

ولعلنا لا ننسى ان بناء الكنيسة المرقسية في شارع كلوب بك يعود الى حسن تصرفه وذكائه كما يعود الى كرمه اذ انتهر فرصة مرور احدى الاميرات بمصر لاداء فريضة الحج فخدمها بنفسه واکرمها اكراما زائدا في ذهابها وعودتها وأهدى لها الهدايا الفاخرة فحصل بواسطتها على فرمان برفع الجزية عن الرهيان وأذن ببناء الكنيسة الكبرى بالأزبكية حيث مقر سكنه ولكنه توفي قبل بنائها فقام بذلك أخوه المعلم جرجس (٢) .

أما عن نفوذ الكنيسة القبطية خارج اقليم مصر فقد كانت رئاستها تمتد الى اثيوبيا والسودان منذ أن دخلت المسيحية الاولى في القرن الرابع الميلادى أيام البطريك اثناسيوس الرسول . الثانية في القرن السادس (٣) .

أما في الأولى فقد كان البطريك المصرى هو الذى يعين المطران هناك وكان في العادة مصريا ولم يكن للكنيسة القبطية الا اثر قليل هناك حتى القرن الثالث عشر رغم ما ترجم من الكتب القبطية واليونانية الى اللغة الاثيوبية

(١) الجبرتي ج ٢ .

(٢) السنكسار ج ٢ .

(٣) يرجع الى كتاب (كنيسة الاسكندرية في افريقيا) للمؤلف لمزيد من التفاصيل .

وما كان من سفر الرهبان المصريين الى هناك وانشائهم الأديرة ثم تعليمهم
المبادئ المسيحية للكهنة والشعب .

الا ان المسيحية بدأت تؤثر تأثيرا ظاهرا وتتغلغل في الشعب منذ القرن
الثالث عشر حين اهتمت الأسرة السليمانية وعلى رأسها الأمباطور
يكونو ملاك ثم ابنه يجيبا صيون بالتنازل للكنيسة عن ثلث أراضي الدولة (١)
ثم انشاء منصب الاتشيحي ليكون حلقة اتصال بين الأكلروس الوطنى
والمطران (٢) وكذلك انشاء المدارس الدينية الملحقة بالأديرة والكنائس لتعليم
الناس أصول الدين ثم تخرج الكهنة اللازمين للشعب (٣) .

ومنذ هذا الوقت أخذ الأباطرة متوالين فى الاكثار من بناء الكنائس
ووقف الأوقاف عليها وانشاء المدارس الدينية فكان من أثر ذلك انتشار
المسيحية وازدهارها هناك والقضاء شيئا فشيئا على الديانات القديمة
والمعتقدات القديمة وان بقيت بعض الطقوس التى لا تتنافى مع المسيحية
فى شيء .

وجرت العادة ان يكون تعيين المطران اثر مجيء وفد اثيوبى مكون من
بعض المدنيين والكهنة يحمل خطابا الى البطريرك فيه نبأ وفاة المطران
السابق مع رجاء تنصيب مطران جديد وكذلك خطابا آخر الى صاحب السلطة
فى مصر برجاء السماح للبطريرك بتنصيب المطران من أجل دوام العلاقات
الطيبة بين اثيوبيا ومصر كما جرت العادة أيضا ان يحمل الوفد معه هديتين
ثميتين احدهما الى البطريرك والاخرى الى السلطان (٤) .
ويعتبر المطران منذ رسامته رأسا للكنيسة الاثيوبية وأهم واجباته
تنصيب الكهنة الاثيوبيين بعد استشارة الاتشيحي بينما كان أهم حقوقه تنويع
الأباطرة وعزلهم اذا ما ارتكبوا ما يهدد سلامة البلاد أو عقيدة الشعب (٥) .

(١) Bulletin T. VIII, Bridge, Vol I p - 312.

(٢) تاريخ تكلا هيمانوت الحبشى مخطوط رقم ٢٠ بمكتبة بطريركية الاقباط
الأرثوذكس .

(٣) Bridge P. 204

(٤) السنكسار ج ٢٦٢ برمهات ١٣ بثونة ١٢ بشنس برمودة .

(٥) Bridge, Vol. II P. 545

وكان البطريرك في مصر يراقبه عن كثب ويكتب اليه مرتين كل عام مستفهما عن أخبار رعيته هناك وكثيرا ما كان الحكام المصريون يضيئون بهذه الكتب عندها تحمل أخبارا من مصر عن اضطهاد بعض الحكام للأقباط (١) فيكون ذلك سببا في تدخل أباطرة اثيوبيا لدى السلاطين كي يحسنوا معاملة الاقباط في مصر لقاء حسن معاملتهم للمسلمين هناك فيستدعون البطريرك ويهددونه بل قد يسجنونه انتقاما منه لأنه حمل أخبار هذه الاضطهادات (٢) .

ولكن هذا البطريرك المصري وهذه العلاقة بين مصر واثيوبيا كثيرا ما كانت أيضا سببا لرباط من العودة والصداقة يربط كلا من مصر واثيوبيا فتسير الرسل والوفادات من مصر واليها (٣) ، كما تكون سببا لنشاط تجارى بينهما أيضا . وكثيرا ما كان الأباطرة الاثيوبيين يلجأون الى مصر بسبب هذه العلاقة الدينية اذا ما احتاجوا الى الصناعات الماهرة في الفنون المختلفة فلم تكن مصر تبخل بارسال ما يريدون .

وظلت الكنيسة الاثيوبية تابعة للكنيسة المصرية تعترف الأولى ببنتوتها للثانية وترعاها رعاية الأم لوليدها . ولم يكن البطارقة او المطارنة المصريون يحاولون التدخل في الامور السياسية بل ظلت رعايتهم قاصرة على الامور الكنسية .

فكان من أثر ذلك ان ائمنت المسيحية في اثيوبيا وازدهرت وان لقي الشعب من الأباطرة والأمراء كثيرا من الأذى بسبب ما ساد البلاد من اضطراب نتيجة لاختلاف الأمراء وتطاحنهم حول العرش (٤) .

أما في السودان فكان الأمر مختلفا فقد دخلت المسيحية في القرن

(١) البدر الطالع ص ٢١٠ .

(٢) المقریزی . السلوك ج ٢ ص ١٢٨ .

(٣) Bulletin de la société d'archéologie copte vol VIII.

(٤) رفع من درجة المطران الى بطريرك جاثليق في الاتفاقية الأخيرة من الكنيسة المصرية والاثيوبية سنة ١٩٥٩ .

السادس وتبعت الكنيسة السودانية الكنيسة المصرية وكان أهل السودان متأثرين الى حد بعيد بالثقافة المصرية والحضارة ، فكانت الكنيسة المصرية هي التي ترسل اليهم بالمطران والكهنة ويقوم الملوك ببناء الكنائس وتزيينها على الطريقة المصرية وبدخول مصر ضمن دائرة الامبراطورية الاسلامية حاولت الجيوش الاسلامية التوغل الى هناك الا انها لقيت من قوة مملكة النوبة المسيحية ما صدها فاكثفت منها بمعاهدة ترسى العلاقة بينها على اساس من الصداقة لقاء تبادل تجارى بين النوبة ومصر وكان الرقيق والمنسوجات والفلال أهم ما يتبادلانه .

ولم يتح الزمن للمسيحية فرصة كافية لان تتمكن من السودانيين كما تمكنت في اثيوبيا فظلت المسيحية هناك طلاء لكثير من المعتقدات الوثنية كما كان المطران المصرى والكهنة المصريون بسبب جهلهم لكثير من عادات السودانيين ولغتهم غير قادرين على اعطاء المسيحية جذورا عميقة فى السودان . كما لم يهتم الملوك هناك بانشاء المدارس المسيحية لتعليم الشعب العقيدة المسيحية . فأخذت الثقافة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية من ضعف أيضا وما لقيته من سوء معاملة فى بعض الاوقات سواء من بعض الولاة الأمويين أو العباسيين (١) أو بعض الخلفاء الفاطميين كالحاكم بأمر الله أو السلاطين المماليك .

واذا ما تدخلت دولة المماليك فى الخلافت المستمرة بين ملوك السودان ونجحت حملة السلطان قلاوون فى عزل آخر ملك مسيحي هو كارامبوس وتولية عبد الله بن شنبو واعتناق هذا الأخير الاسلام كان هذا ايذانا ببداية الانهيار السريع للمسيحية هناك .

هذا الى أن السودان لقي من ظروفه الداخلية وهي انقسامه الى أكثر من مملكة مسيحية ضعيفة وكذلك هجرة القبائل العربية اليه سواء من

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ١٦٥ ، ٢١٦ .

الشمال أو الشرق ما زاد في ضعف المسيحية ، بل وانهارها فقد استقر كثيرون من العرب هناك وأصهروا الى السودانيين ورغب السودانيون في هذه المصاهرة ليتخذوا منهم حماة ودروعا ضد هجمات تجار الرقيق الذين كانوا يهجمون على المسيحيين ويتخذونهم رقيقا ويبيعون بهم الى أسواق الرقيق في فارس والجزيرة العربية والدولة الرومانية الشرقية وأوروبا . فلم يجد المسيحيون هناك أمامهم سوى أن يرتموا في أحضان الاسلام وأن يصهروا الى هؤلاء العرب القادمين (١) .

وكان قيام دولة الفونج في القرن السادس عشر في حوض النيل الاوسط قرينا باختفاء المسيحية هناك ولعل الكنيسة القبطية في القاهرة هي المسئولة الوحيدة عن هذا الاختفاء اذ لم تحاول منذ أن تبعتها الكنيسة السودانية في القرن السادس أن تعطي المسيحية جذورا عميقة فلم تبذل أية محاولة لاقتلاع جذور الوثنية التي كانت متغلغة في نفوس السودانيين كما لم تحاول أن تقيم من السودانيين كهنة وقسوسا على نحو ما فعلت في اثيوبيا — ليستطيعوا بدورهم أن يقيموا المسيحية على دعائم ثابتة قوية — وقد يكون سوء حال الكنيسة القبطية خلال الحكم التركي وما لاقتة من الاضطهاد عذرا لها على هذا الاهمال . ولكن ذلك لا يكفى لتبرير هذا الاهمال لا سيما وأن الاسلام عند دخوله الى السودان لم يدخله عن طريق أئمة أو معلمين بل عن طريق بعض القبائل المسلمة التي لم تقصد مطلقا نشر الاسلام أو عن طريق تجار الرقيق الذين أرغموا المسيحيين — عن طريق غير مباشر — على اعتناق الاسلام ، وأخيرا عن طريق أصحاب الطرق الصوفية الذين قصدوه سواء من طرابلس أو مراكش أو الحجاز وأخذوا في انشاء الزوايا ، ولذا كان تأثير هؤلاء الزعماء المحليين وتأثير هؤلاء الاولياء أكثر من أى شيء آخر في نفوس السودانيين الى ما بعد الحكم المصرى . وإذا ما وصلنا الى نهاية القرن السابع عشر لم يعد للمسيحية اثر مطلقا في السودان كأنها لم تظهر هناك بتاتا وكأن السودانيين لم يكونوا يوما مسيحيين .

(١) لمزيد من التفاصيل انظر (كنيسة الاسكندرية في افريقيا) للمؤلف .

الباب الثاني

الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت في أول يولية سنة ١٧٩٨ تبغى أغراضا لا تتعلق بمصر نفسها ، كما لا تتعلق بتركيا صاحبة السيادة على البلاد ، ولكن تبغى أغراضا خارجة عن نطاق الدولتين . فقد استحكمت العداوة بين انجلترا وفرنسا وعز على فرنسا أن تقابل الاولى في ميدان برى حيث كان لها السيادة الحربية ، فأرادت أن تختار مكانا حساسا من بريطانيا يرغمها استيلاء فرنسا عليه على أن تركع لها طالبة الصلح — كما فعلت النمسا وبروسيا وروسيا ، أعضاء التحالف الدولي من قبل .

ورأت فرنسا أن يكون هذا المكان الحساس هو مصر لأنها في طريق انجلترا الى املاكها في الشرق الأقصى . وبسبب ضعف الممالك ونزاعهم المتواصل مع أنفسهم تارة ومع تركيا تارة أخرى . وبسبب تخلف كل من تركيا والممالك عن النظم الحربية ومستوى الأسلحة السائدة ، وكذلك بسبب حرمان المصريين من الاندماج في سلك الجيش ، استطاع الفرنسيون أن يتغلبوا بسهولة على مقاومة المصريين اليسيرة في الاسكندرية ، فدخلوها . واذاع قائد الحملة منشورا على المصريين أنه صديق لهم ، لا ينبغى سوى تخليصهم من هؤلاء الممالك الذين أهدروا مصر والتجارة الفرنسية ، ويمنيهم بالمساواة التامة التي حرموها منها وقتا ليس بالقصير ، كما يفتح أمامهم باب تولى المناصب في بلادهم (ولكن بعونه تعالى — من الآن فصاعدا — لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول في المناصب السمية ، وعن اكتساب المراتب

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٧ .

العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور (١) . وكان هذا المنشور باللغة العربية .

ولقد حاول المصريون في الاسكندرية ان يدافعوا عن بلدهم رغم قصور أسحتتهم ونظمهم ورغم ادراكهم هذا القصور . ورأس البطل محمد كريم هذا الدفاع . فعرف الفرنسيون قدره فأكرموه . الا انهم سرعان ما تبينوا خداعه فأعدموه . وكان هذا الرجل في دفاعه عن وطنه ضد المغيرين بطلا وطنيا حقا لولا هنة بسيطة لارتفع قدره الى مرتبة الشهداء . وهي انه قال للأسطول البريطاني الذي وصل الاسكندرية قبل قدوم الفرنسيين بحثا عنهم « ان هذه البلاد ليست بلادكم ولا بلد الفرنسيين انما هي بلد السلطان » ولو قال انما هي بلادنا لاستحق تقدير الوطن حقا . ولكن للرجل عذره ، فقد تكلم بعقلية العصر وقد سيطرت على عقله القومية الاسلامية : فهي القومية التي اعتنقها المصريون منذ اعتنقوا الاسلام وخضعوا للخلافة الاسلامية .

ونجح الفرنسيون في أن يتقدموا الى القاهرة ويستولوا عليها بعد أن حطموا قوة المماليك ودخلوا القاهرة فوجدوا المماليك قد نهبوا . وكانت بيوت الاقباط بل جميع المسيحيين أول هدف لهم ، نهبها العسكر العثماني . وفر جميعهم الى الصعيد أو الى الشام وفر معهم بعض المصريين كالسيد عمر مكرم . كما طاف الرعاع بالمدينة ينهبون بيوت المسيحيين على اختلاف اجناسهم . ويقتلون منهم من يصادفونه دون تمييز بين الرجل والمرأة (٢) .

واذا استطعنا أن نفهم السبب الذي من أجله فر المماليك الى الصعيد أو الشام فالحملة لا تقصد الا القضاء عليهم كقوة محاربة أولا وكقوة متسلطة ثانيا ، كما أعلن قائد الحملة صراحة ، الا اننا لا نستطيع أن نفهم لماذا هرب هؤلاء المصريون وكلهم ذو مكانة تحتم عليهم أن يشاركوا قومهم ضراءهم تحت حكم الفرنسيين كما شاركوهم هذا الضر تحت حكم العثمانيين

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٧ .

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢٣ .

ولا أدري ماذا دار بخلداهم ودفعهم الى هذا الفرار . اكانوا يتصورون ان ضرر هؤلاء الغزاة سوف يكون مريرا فاسيا ؟ أم كانوا يتصورون ان الدولة العثمانية قسادة على استرداد مصر ، وان واجبهم يحتم عليهم ان يكونوا بجانب هذه القوات الزاحفة لاستردادها ؟ ولماذا فضلوا ان يكونوا تحت الحكم العثماني الفاسد على ان يكونوا تحت حكم فرنسى لم يعرفوا اكان فاسدا فساد الحكم التركى او دونه او يفوقه . لا أجد تعليلا لهذا الهرب سوى ان هؤلاء الناس تصرفوا تحت تأثير ما اعتنقوه من توبة اسلامية جعلتهم يفضلون ان يكونوا تحت حكم فاسد ظاهره اسلامى على ان يكونوا تحت حكم (كافر) وان كان صالحا .

ولذا لا أستطيع مطلقا ان اقف الى جانب هؤلاء الناس فى تصرفهم هذا . ولو بقوا ليقاسموا المصريين ما سوف يجدونه من ضرر لكان موقفهم اكرم وأفضل .

دخل الفرنسيون القاهرة دون مقاومة تذكر . ولم يكن المصريون يملكون ما يقاومونهم به بعد ان هرب هؤلاء المحاربون (الأبطال) . ولم يلبث تائدهم ان اذاع على الفاهريين منشورا كمنشوره الاول الذى اذاعه فى الاسكندرية وهو منشور اتفق المؤرخون جميعا على ان ما جاء به يوقظ قوميتهم المصرية (١) التى نامت خلال عشرة قرون طويلة .

وكان فى استطاعة المصريين او زعمائهم الذين وجدوا أنفسهم باعتراف المحتلين فى مكان الصدارة وقد حرموا القدرة على مقاومة المحتل الجديد ان يتمسكوا بما جاء فى هذا المنشور ويطالبوا به حتى يكذب الله لهم فرجا مما هم فيه ولكن مما يؤسف له انهم لم يفعلوا .

واخذ الفرنسيون بعد احتلالهم القاهرة فى نشر نفوذهم فى كل أنحاء مصر ثم بدأوا استغلال البلاد لصالحهم .

ولاجل الامر الاول (نشر نفوذهم فى كل أنحاء البلاد) ارسلوا الحملات

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢٣ .

الحربية الى أنحاء البلاد المختلفة وكان أهمها حملة الجنرال دبزيه التي أرسلت لاختضاع الصعيد . ولطاردة المماليك الذين هربوا الى الصعيد وأمعن بعضهم في الهرب حتى وصل الى السودان .

ومن أجل الأمر الثانى (استغلال البلاد لصالحهم) أخذوا فى إصدار جملة من التشريعات التى ترمى الى تنفيذ بعض الإصلاحات من أجل ادخال البلاد ضمن نطاق الدول الحديثة . ومجرد القاء نظرة سطحية على هذه الإصلاحات تدلنا على انحالة التى كان المصريون يعيشون فى نطاقها . ومن هذه الإصلاحات :

- ١ — تحريم دفن الموتى فى الجبانات القريبة من المساكن (١) .
- ٢ — دفع المصريين الى تنظيف حاراتهم ودروبهم بكنسها ورشها يوميا (٢) .
- ٣ — انارة الحارات والدروب بمصابيح تعلق أمام البيوت .
- ٤ — تسجيل المواليد بدفاتر أعدتها الحكومة وكذلك عقود الزواج وقسائم الطلاق (٣) مع دفع رسوم معينة على ذلك .
- ٥ — تحميم التبليغ عن الوفيات لتسجيلها فى دفاتر خاصة بذلك .
- ٦ — هدم أبواب الحارات (٤) .
- ٧ — جباية بعض الضرائب العاجلة لسد مصاريف الاحتلال (٥) .
- ٨ — انشاء مكتب للتسجيل لتسجيل مستندات التملك لوضع حد لكل نزاع قضائى .

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٠ .
(٣) محمد فؤاد شكرى ص ١٨٠ .
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ٢١ .
(٥) الجبرتى ج ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
وذكر محمد فؤاد شكرى ان نابليون طلب مبلغا كبيرا من الريالات الاسبانية من التجار وأرغم الاقباط على دفع مبلغ آخر .

فهذه الأوامر ترينا أن المصريين كانوا متخلفين عن أقرانهم من الشعوب الأخرى بأربعة قرون على الأقل — وهى المدة التى قضاها الاحتلال التركى فى البلاد . فلا دفانر لتسجيل المواليد أو الوفيات . والقاذورات تتراكم فى الشوارع والدروب والحارات . والمدينة تنام اذا غربت الشمس . والموتى يدفنون فى البيوت . مما يعرض الأحياء لفتك الأمراض ويسهل ارتكاب الجرائم . كما كان أمر صيانة الأمن موكولا انى أبناء كل حارة يتولونه بأنفسهم والحكومة لا تجد ذلك من واجبها فلا يجد الأهليون وسيلة تمكنهم من ذلك سوى جعل باب كل حارة يفلق اذا ما غربت الشمس . مما يدل على أن مستوى معيشة المصريين كان خلال القرن الثامن عشر أقل بكثير مما كان عليه خلال القرن الثامن أو التاسع حين كانوا تحت حكم الطولونيين أو الفاطميين .

وأصدر الفرنسيون أيضا تشريعا بإنشاء مجلس يتكون من بعض مشايخ الأزهر وبعض الفرنسيين وهو المسمى بالديوان (١) لاجل أن يقدم المشورة الى الحاكم العام الفرنسى وهى خطوة تدل على رغبة الفرنسيين فى اشراك المصريين فى الحكم ، وان كان هذا الاشراك فى نطاق ضيق وبطريقة معتلة ، اذ لم يكن هذا الديوان يملك حق المعارضة كما انه لم يكن ممثلا لجميع طوائف السكان . فلم يكن لغير المسلمين ممثلون فيه .

وكان الديوان الصغير المكون من اثنى عشر عضوا نصفهم من المسيحيين برئاسة المعلم ملطى ليكون بمثابة محكمة فى أمور التجارة والمواريث والدعاوى وادارة للشهر العقارى من اجل مراجعة جميع حجج الملكية لتثبيتها وجباية رسوم الدمغة عليها . ومن الطبيعى أن الفرنسيين لم يلجأوا الى المسيحيين من اجل انصافهم، ولا من اجل اتحادهم معهم فى الدين، فلم يكن ذلك من سياسة الفرنسيين فى شىء ، لا سيما وقد نبذوا الديانة المسيحية فى فرنسا قبل ذلك ببضع سنين ، بل لجأوا اليهم لما سمعوه عنهم وتبينوه من كفاءة فيهم ومعرفة بعضهم للغة الفرنسية .

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٤١ .

ولا يملك الناقد مهما بلغت وطنيته الا أن يشكر الفرنسيين على مابدأوه من خطوات ، فالاصلاحات الاولى ضرورية للمصريين ضرورة الهواء الذى يستنشقونه . وهذا الديوان الأخير كان ولا شك من أجل الوقوف على رأى المصريين فى كل ما ينوى الفرنسيون اجراءه من تغيير فى نظم الحكم القديمة وهو يدل على رغبتهم فى المشاركة فى الحكم . ولم تكن تفتظر من محتل اجنبى متصرف أن يشرك الوطنيين فى أكثر من ذلك ، ولا أن يمالىء العنصر الغالب متجاهلا الأقلية بأفضل مما فعل .

وهناك حقيقة يجب التنبيه اليها وهى ان هذه الحملة الفرنسية كانت موضع استنكار كثير من القواد الفرنسيين بل جاهر بهذا الاستنكار فريق منهم على رأسه الجنرال كليبر . فقد كان يرى ان الميدان الأوروبى أولى بالثقات الحكومة . فهو الميدان الحاسم فى نتيجة الحرب بين فرنسا وأعدائها . كما ان القيام بحملة بعيدة يفصلها عن فرنسا بحر يتسوده الاعداء خطوة غير موفقة . هذا الى ان ابعاد صفوة الجنود والقواد الفرنسيين عن فرنسا يعرضها لخطر انتقاض هؤلاء الأعداء . وقد نم هذا فعلا . وكان سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ثم الحرية التى وجدها الفرنسيون فى مصر قد ساعد على زيادة عنذ الناقمين من القواد . وعلت أصوات القسدامى منهم فى المعارضة والاستنكار ، بل ساعدت على سريان روح التذمر بين عامة الجند . الأمر الذى يهدد الروح المعنوية للفاتحين .

ولم يمض على قدوم الفرنسيين شهر حتى اصطدم الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط بالأسطول الفرنسى الذى ربض فى خليج أبى قير بعد أن انتهت مهمته بحمل الجنود الفرنسيين الى مصر ، ودارت الموقعة التى انتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وحصار الاسطول البريطانى للشواطىء المصرية ليمنع أى اتصال بين الفرنسيين فى مصر والحكومة الفرنسية فى باريس .

وكان أثر هذه الضربة على الفرنسيين عظيما فقد حوصروا فى مصر واصبح عليهم أن يدبروا أمرهم معتمدين على الموارد المصرية ، وعلى اخلاص المصريين للحكم الجديد ، وأن يأخذوا حذرهم من كل من تركيا وانجلترا اللذين سوف يتحدان لغرض اخراج الفرنسيين وانزال الهزيمة بهم واخراجهم من مصر .

وقد عرف نابليون بوناپرت كل هذه النتائج وتنبأ بها ؛ ولذا أخذت قبضته على مصر تزداد قوة ، واصلاحاته تتجه نحو استغلال مصر بأقصى سرعة وبأقصى طاقة من أجل الدفاع عن الفرنسيين فيها ، فلا غرو ان قامت الثورة في القاهرة . في شهر اكتوبر ولما يمض على مجيء الفرنسيين ثلاثة اشهر — وهى الثورة التى حرقت فيها كنيسة حارة الروم . فأمر البطريك مرقص الثامن بنقل البطريكية مؤقتا الى حارة النصارى . ويجمع المؤرخون على ان سبب هذه الثورة هو ضيق القاهريين بهذه الاجراءات التى نفذها الفرنسيون وانهم بدأوا يرضون عن الحكم الفرنسى لو لم يتخذ هذه الاجراءات لتغيير طريقة معيشتهم عما لغوه من قبل . فليس لنا مطلقا ان نعزو هذه الثورة الى اسباب قومية اى رغبة القاهريين فى التخلص من الحكم الفرنسى . بل ان الحق يقضي ان نقول ان الذى دفعهم الى هذه الثورة مجرد الرعب فى الغاء هذه التشريعات الجديدة . فهى ثورة تشبه ثورة الطفل الذى يرفض ان يأخذ الدواء المر فهو لم يثر ضد والدبه انما ثار من أجل اعطائه الدواء . وكان طبيعيا ان يلجأ الفرنسيون الى الشدة فى قمع هذه الثورة بعد ان رأوا الصعوبات تكتنفهم من جميع الجهات . فنصب نابليون المدافع على القلعة وصبها على مراكز الثورة . وهو اجراء رأيناه فى جميع محاولات الفرنسيين حتى انزقت الحاضر فى سحق ثورات الشعوب ، مما يدل على سرعة فقد الفرنسيين لصوابهم . ويزيد الأستاذ محمد نؤاد شكرى على هذا الاستياء من التشريعات استياء المصريين من نجاح قوات (المشركين) وانتصاراتهم وكذلك العداء الدينى السكامن فى نفوسهم لغير المسلمين ثم اشتهاى الفرنسيين بشرب الخمر وخروجهم مع البنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات (١) .

وكان من نتيجة هذه الثورة امران هما الغاء الديوان بنظامه القديم واعادة انشاءه على نحو جديد هو اشراك غير المسلمين فيه . وقد قصد بهذا الاجراء اشعارهم بالذلة عن طريق مساواتهم بغير المسلمين — الامر الذى لم يحدث منذ الفتح الاسلامى — بعد ان تنكروا لما عاملهم به من قبل

(١) محمد نؤاد شكرى ص ١٧٥ .

من تفوقهم على غيرهم . وهذا الاجراء وان قصد به المعنى القريب الا انه جعل الديوان أكثر ديموقراطية ، بعد ان أعطى جميع طوائف السكان ما كان للأغلبية من حقوق . وكان نابليون قد أسرع الى عزل قاضى القضاء العثمانى ، وطلب من العلماء ان ينتخبوا لهم مصريا بدلا منه وكتب الى المشايخ (ان قد انقضت وفرغت دولة العثمانلى من اقاليم مصر ، والعقل يعرف ان علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية أهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم) فرفضوا هذا الاعتراف بكفائتهم بل تشفعوا لدى نابليون لبقى على الناضى العثمانى فلم يلنوا من نابليون غير الرفض المطلق وأخيرا انتخبوا مكرهين الشيخ أحمد العريشى (١) .

أما الأمر الثانى الذى تمخضت عنه الثورة فهو تفكير نابليون فى غزو سوريا من أجل الاسنيلاء على شواطئها وموانئها التى تطل على البحر المتوسط ، والتى سوف يستطيع الاتصال بفرنسا عن طريقها وتلقى الأسلحة والملابس اللازمين لرجال حملته . فصناعات مصر لا تستطيع امداده بما يريده منها . وقد عرفنا من الباب السابق كيف ان هذه الصناعات كانت قاصرة على بعض المصنوعات السيئة الصنع التى لا تسد مطالب الفلاحين ليس غير .

ولكن دفاع حسن باشا الجزائر عن عكا ، ثم امداد البريطانيين المدافعين عنها بالسلح نوتا عليه غرضه وعاد نابليون الى مصر وقد تحقق ان الأرض زلزلت من تحته وأن هذه الحملة فقد فشلت نهائيا ، فعول على أن يرحل الى فرنسا كى لا ينحمل مسئولية فشلها ، واستطاع فعلا أن يرحل فى غفلة من الأسطول البريطانى .

والقى عبء الحملة على الجنرال كليبر ونرك له أوامر بأن يظل الأقباط قائمين على الشئون المالية وتحصيل الضرائب ولم يلبث الجنرال أن أجرى مفاوضات الجلاء خصوصا وقد تأيدت المخاطر التى كان قد تنبأ بها قبل رحيل الحملة ، فقد انقلب الميزان فى الميدان الاوروبى وعادت النمسا

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧٧ ومحمد فؤاد شكرى ص ١٦٩ .

وحليفاتها الى شن البفارة على الاملاك الفرنسية واستردوا منها اجزاء ليست باليسيرة ، واصبح الميدان المصرى ميدانا ثابويا لا يستحق ان يحجز لأجله هذا العدد الكبير من خيرة الجند الفرنسى .

وتمكن كليبر بعد مفاوضات ليست باليسيرة أن يصل مع انجلترا الى شروط صالحة للجلاء ، فقد كانت انجلترا تواقفة الى خروج الفرنسيين عن مصر بأى تمن وان تحملت هى مصاريف رحيلهم . كما كان الفرنسيون انفسهم تواقين الى هذا الخروج ، وبصفة خاصة أصبح كليبر تواقا لأن يطير الى باريس ليلحق بنابليون كى يلبسه عار ومسئولية هذه الحملة الفاشلة .

وكان تقسيم المفاوضات السريع داعيا لأن يعطى كليبر الأوامر الى الفرنسيين المبعثرين فى مصر بالتجمع فى القاهرة ، او فى مواضع قريبة من القاهرة ، من أجل الاسراع بالرحيل . كما سمح لجيش تركى قادم من سوريا أن يجتاز الحدود الشرقية لتسلم المراكز التى يخليها الفرنسيون . وقد قدم مع هذا الجيش الاخير من سبق أن فر من المصريين الى سوريا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف .

ووصل هذا الجيش الى الصحراء الشرقية وعسكر فيها ريثما تصل المفاوضات الى نهايتها ويتسلم قائدها الأمر بالتقدم ولكن المصريين الذين رافقوه أسرعوا وسبقوا الجيش ودخلوا القاهرة حيث استقبلهم أهلها كأبطال فاتحين . كما تسلل اليها بعض الجنود بقيادة مصطفى باشا (فبادر بفرض ثلاثة آلاف كيس على الأهالى من أجل ترحيل الفرنسيين ، فغلت الأسعار (١) واشتد الضيق بالناس . كما أمر بقتل النصارى (٢) وأرسل ابراهيم بك الى الشيخ المحروقى يطلب كساوى وطرابيش لجنوده (٣) ونزل الجند الى المدينة ينهبون ما تصل اليه أيديهم ، حتى لقد تمنى الناس عودة الفرنسيين (٤) .

-
- (١) ج ٣ ص ٩٢ من الجبرتى .
 - (٢) نفس المصدر ص ٩٦ .
 - (٣) نفس المصدر ص ٩٣ .
 - (٤) نفس المصدر ص ١٧٠ .

« وذهبت طائفة منهم الى حارات انصارى وبين الصوريين وباب
الشعرية والموسكى نصاروا يكبسون البيوت ويقتلون من يصادفونه من
الرجال والنساء والصبيان وشكى الناس الى مصطفى باشا فلم يلتفت
اليهم » (١)

وكان ذلك بناء على تحريض نصوح باشا مما اضطرهم الى الهرب
والتحصن فى قصر الالفى فى الأزبكية وهو الذى كان مقر القيادة الفرنسية
العامّة (٢) .

ولكن سرعان ما تعقدت المفاوضات حين رفضت وزارة الخارجية
البريطانية أن يرسل الفرنسيون الى تونس ، بل أصرت أن تحملهم المراكب
البريطانية الى إنجلترا كأسرى حرب . وكان من الطبيعى يرفض كليبر
ذلك ، فانقطعت المفاوضات وأعطى الأوامر للفرنسيين أن يعودوا الى
الأماكن التى كانوا يحتلونها من قبل ، كما أعطى الانذارات الى قائد الجيش
التركى المتقدم من الشرق أن يعود أدراجه الى خارج الحدود المصرية .
وعو ، على أن يظل فى مصر ويدافع جهده عن مواقعه فيها حتى تقتنع
بريطانيا بوجهة نظره أو تحصل جيوش فرنسا فى القارة على نصر حاسم
يرجع كفتها فى المفاوضات اذا عادت واستؤنفت .

وبدأت الادارة الفرنسية من جديد تعيين تنظيم الضرائب وتحصيلها ،
وكذلك تدبير أمر الذخائر اللازمة للجيش ، وكذلك المؤونة والملابس . ولا بد
أن لمثل هذه الاجراءات التى اتسمت بالسرعة والشدة أن تثير غضب
القاهريين فانفجروا فى ثورتهم الثانية .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يصف هذه الثورة أيضا بالقومية ،
فيقولون انهم ثاروا من أجل مقاومة المحتل . وأن ثورتهم هذه كانت دفاعا
عن قوميتهم التى استيقظت فجأة ، وأن السيد عمر مكرم أخذ يستحث
الناس على الدفاع والمقاومة ، وأنه صرف فى ذلك أموالا كثيرة ، وأن أهل

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ ، ١٠ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ص ٣٣٣ .

الحسينية والجمالية لا سيما جزارو الحى الاول قد قاموا بدور فعال هو السالة بعينها (١) ونم بملك كليبر ازاء عنف الثورة التى استمرت سبعة وتلاثين يوما الا ان يترك القاهرة ويحاصرهما ويمنع المؤونة عنها حتى تستسلم . وان الأهالى قد قاوموا هذا الحصار وما تعرضوا له من الجوع متاومة جبارة جديرة بأن تكتب لهم فى سجل التاريخ ، وقد تكفل غنيهم بفقرهم فأرسلوا لهم ما يكتفيهم طيلة مدة الحصار ، وأخيرا لم يستطع عذا الشعب الباسل أن يفعل أكثر من طاقته فاستسلم وأرسل المشايخ لذلك ودخل الفرنسيون القاهرة واستردوها .

أما استبسال أسمى انتاهرة فى الدفاع وتحملهم الشدائد طيلة هذه المدة من أجل الانتصار فجدبر بالأعجاب حقا ، وبطولتهم هذه جديرة بالتسجيل . ولكن البعيد عن التصديق أن يكون سبب هذه الثورة قوميا . فليس هو أكثر من انتفاضة دفعهم اليها السيد عمر مكرم ومن تسرب الى القاهرة من الممالك كالأمير حسن الجداوى ومن تسرب اليها أيضا من الأتراك ، كى يبرهنوا لأسيادهم القادمين أنهم لهم نعم العون ، وأنهم لم يستسلموا للحكم الفرنسى . فمثل هذه التهمة كافية لان ندفع بهم الى الموت من يدحاكم تركى أو قائد تركى قادم لا يعرف الا لغة السبف دون أن يردعه وازع من ضمير أو قانون . وقد أحسن القاهريون بزعمائهم الظن ، كما هى عادتهم ، فاندفعوا فى ثورتهم وتحملوا جميع الضربات وحدهم حتى اذا انتهت الثورة بالفشل أسرع الزعماء بالهرب الى الصالحية (٢) وكان موقف القاهريين فى هذه المذبحة كموقف الجيش المصرى الباسل فى حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ حين ذهب ليحقق مثالا عليا تجول فى ذهنه وصورها له زعماءه ومات واستشهد من استشهد ، بينما كان مشعلو الحرب فى القاهرة ينعمون بأحصاء ما كسبوه من مال ثمنا لهذه الدماء المراقاة الشهيدة .

وكان نجاح الفرنسيين فى سحق ثورة القاهرة ، ثم استرداد الأماكن التى كانوا قد أخلوها ، وفى اقامة بعض الصناعات فى مصر . كذلك جبن الأتراك عن أن يقابلوا الفرنسيين فى معركة شريفة ، ونجاح نابليون فى

(١) الجبرتى ج ٢ ص: ١٠٨ . (٢) الجبرتى ج ٢ ص: ١٠٩ .

استرداد شمال ايطاليا اسبابا متعددة دفعت بالبريطانيين الى أن يعودوا الى عقلهم فيسلموا للفرنسيين بوجهة نظرهم ، فقبلوا في المفاوضات الثانية التي دارت بينهم وبين الجنرال مينو أن يعود الفرنسيون الى فرنسا . وهكذا قدر لينو أن يكسب شرفا لم يستحقه .

وأخيرا رحل الفرنسيون واسترد الأتراك مصر . وقد اعتقدوا أن الحملة الفرنسية كانت فرصة أتاحتها لهم السماء كي يتخلصوا من الممالك بعد أن فشلوا في الدفاع عن مصر وبعد أن خسروا أعدادا كبيرة منهم أثناء تعقب الفرنسيين لهم .

أما بالنسبة لمصر . فإن هذه الثلاث سنوات التي قضاها الفرنسيون في مصر لأثمن لدينا في التاريخ من هذه القرون الاربعة الطويلة التي مكثها العثمانيون في مصر ، فقد علمتنا دروسا كانت نعم الزاد فيما خلف من أيامنا . فقد تعلمنا قيمة هؤلاء الأتراك والممالك الذين يستأسدون علينا وهم أجبن من الأرانب ، وإن قيمتهم الحربية لا تساوى جنديا واحدا من الجنود الأوروبيين ، كما علمتنا حق الشعب أن يقف في وجه الحاكم وإن كان قويا وإن في استطاعته أن يزلزل الأرض من تحته حتى يحقق له ما يريد أو بعنى ما يريد ، كما علمتنا أن بلدنا شيء تتكالب الدول على امتلاكه وأنه شيء يستحق أن نثور لأجله وأن ندافع عنه ، كما علمتنا أن نرغم حاكما على أن يدفع الثمن إذا أراد حلب البقرة . ولكن الأثمن من هذا كله أنها دفعت بأقباط مصر لان يظهروا قوميتهم الغافلة ، فيتقدموا الصفوف كي يصرخوا في اخوانهم ان الوقت قد حان لأن يفكوا هذا الطلمس عن عيونهم فيسبعوا نحو الاستقلال التام بعيدين عن تركيا وغير تركيا ، وإن ولاءهم للخليفة أو لأمير المؤمنين لن يغنى عن استقلالهم المفترد شيئا . وإن رابطتهم الاسلامية لا تعنى خضوعهم للأجانب وإن كانوا مسلمين . كما لا تعنى عداءهم لآخوانهم فى الوطن وإن كانوا مسيحيين فالدين لله والوطن للجميع . وكان الأقباط هم الذين حملوا مشعل هذا الراى فأعلنوه وسبعوا دونه رغم ما وجدوه من مواطنيهم من الجحود وسوء الظن ، ورغم ما نالوه من عنت واضطهاد دفع بعضهم حياته ثمنا له . وما كان الأقباط يوما لينكصوا أو يعودوا فهم لم يعرفوا يوما غير التضحية والفداء فى سبيل وطنهم وقوميتهم .

فوطنية المصريين وقوميتهم كانت سببا من الأسباب الكثيرة التي دفعت بهم الى اعتناق المسيحية كمظهر من مظاهر الثورة على الامبراطورية الرومانية التي سعت الى اهدار قوميتهم (١) واستقلال بلدهم لصالح الجزيرة الايطالية حين ارغموا على جعل بلدهم مزرعة قمح لروما ، واشنفوا في الأرض عبدا لصالح اسيادهم ، اذ وجدوا في معتقدات الديانة الجديدة وفلسفتها التي تعتقد بوجود مدبر خفى ذى قوة مجهولة قادر على كل شيء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويثوبهم عن عملهم الخسير بحسن الثواب وينذرهم بالعقاب بنار لا تطفأ حين يخطئون ويأثمون — وجدوا في هذه المعتقدات احياء لديانتهم القديمة ومعتقداتهم المصرية المنبت والمظهر، فجعلوا منها رمزا لمقاومة الحكم الروماني الذي يمجّد الامبراطور ويرفعه فوق مرتبة البشر . فكان فلاحو مصر من الوثنيين يخفون المسيحيين الذين يلجأون اليهم هربا من الاضطهاد الذي استشهد فيه الكثيرون (٢) .

ووطنية الاقباط وقوميتهم هي التي دفعت بهم لان يجهروا بهذه المعتقدات دون رهبة او خوف امام قوة الدولة الحاكمة ممثلة في شخص دقلديانوس . وفضلوا ان يضحوا على ان ينكروا ديانتهم التي اتخذوها مظهرا لقوميتهم . ولم تكن الاضطهادات المتوالية التي وقعت بهم لتقلل من عنادهم ، بل زادت مقاومة واحيت روح العناد فيهم (٣) واخيرا انتصر المصريون ممثلين في ديانتهم الجديدة على الحكم الاجنبى حينما اعترفت الدولة الرومانية بديانتهم ديانة رسمية للدولة .

ولكن هذا الاعتراف كان نذيرا باندماج قوميتهم في الدولة الرومانية . الأمر الذى يستنكرونه بل يأبونه . ولذا اخذت القومية المصرية تعلن مقاومتها لهذا الحكم الاجنبى في كل فرصة مكنتها من هذه المقاومة ، فكان عقد المجامع الدينية خير فرصة ليملى فيها بطريك الاسكندرية — يؤازره الشعب — مبادئه على غيره من البطاركة . ويتف بطريك الاسكندرية ليعلن

Copts and Muslims)

(١)

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٧٤ .

(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٧٤ .

روح القومية المصرية وحوله أبناؤه المصريون! يذودوا عن هذه الروح الحية ممثلة في المبدأ الارثوذكسى ، ولعل ما حدث في جمع نيفبه في سنة ٣٢٥ ومقاومة البابا اسكندر وتلميذه اثناسيوس لبدعة اريوس خير مثل لذلك . وحين نفى اثناسيوس الى روما رأى ما عليه هذه المدينة من انحطاط خلقى ومن انتشار للعادات الوثنية قيها فهاله الامر وقام يلقي أهله ——— درسا في الآداب المسيحية والفضائل المسيحية ويعرض عليهم صورة حية لتلك الفضائل (١) . وعندما عين الامبراطور تيودوسبوس من يدعى أغريغوريوس الكبادوكى بطريركا على مصر لم يتردد شعب مصر في الثورة عليه وقتله (٢) اذ لم يكن الشعب ينظر الى محاولة تنصيب بطريرك أجنبي عليه الا سعيًا نحو صبغ كنيستهم بالصبغة اليونانية (٣) أو البيزنطية الأمر الذى يرفضونه كل الرفض . وعندما عاد أثناسيوس الى بطريركيته في عام ٣٦٢ سارع الى عقد مجمع مكائى في الاسكندرية ليؤكد قانون الايمان كما أعلنه في مجمع نيقية بشأن (الابن المساوى للأب فى الجوهر) . كما كتب الى أسقف روما يطلب منه توقيع العقوبات الكنسية على أسقف ميلان نصير الاريوسية . الا نستطيع أن نقول أن هذه المحاولات من اثناسيوس ليست الا تعبيرا عما يجول في خاطره من أن مركز الاسكندرية المختار يؤهلها لأن تتولى رئاسة العالم المسيحى خيرا من كل من القسطنطينية وروما . وكذلك كان نظام الرهبنة فى بعض الاوقات مظهرا من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى . فقد أرق الرومان المصريين بمختلف الضرائب ومنها ضريبة الرعوس ، حتى ضاق المسيحيون ذرعا ، فلم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الفرار من القرى وترك الأرض الزراعية كوسيلة للامتناع عن الزراعة التى تستولى روما على محصولاتها والامتناع عن دفع الضريبة . فكان الرومان يحاولون انزال غضبهم على من بقى ليدلوهم على مكان الهاربين أو ليَجبروهم على دفع ما كان مستحقا عليهم وعلى زملائهم .

وكان الرهبان المصريون خير مثل للروح الوطنية المصرية ، فقد كرس

(١) تاريخ البطارقة ج ١ .

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٨٠ .

Egypt and Egyptian Question p 34

(٣)

أنبا شنودة حياته لمكافحة الفساد الوثني ممثلاً في البيزنطيين والرومانيين فحرم على الأجانب جميعاً الالتحاق بديره المعروف بالدير الأبيض ، وعمل على تنقية اللغة القبطية من التأثيرات البيزنطية حتى صارت على يديه لغة وطنية صالحة للكتابة (١) .

وكانت وطنية الأقباط وقوميتهم هي التي دفعت بكيرلس الكبير في مجمع أفسس سنة ٤٣١ ليدفع هجمات نستور بطريرك القسطنطينية ليعلن الروح المصرية مرة أخرى ممثلة في اتحاد الطبيعتين للمسيح (٢) ولعل أخشى ما كان يخشاه بطريرك القسطنطينية هو تغلب كيرلس بطريرك المستعمرة على بطريرك العاصمة خصوصاً وقد لقب بالبطريرك الأول بعد مجمع أفسس الثاني بالبطريرك العالمي ، بينما كان الثاني لا يتميز إلا بقربه من الإمبراطور . هذا في الوقت الذي خضعت فيه لبطريرك الاسكندرية أجزاء لم تكن خاضعة للدولة الرومانية كاثيوبيا ونجران . علاوة على الخمس مدن الغربية .

وتظهر القومية المصرية والوطنية القبطية أظهر ما تكون في تحدى البطريرك ديسقوروس للإمبراطور في الشئون المدنية ، إذ كان يرفض تنفيذ أوامره وهو يقول : « ان صلتى ببلادى أقوى من صلة الإمبراطور بها » ولم يكن يتردد مطلقاً في معارضة كل أمر يتعارض مع صالح البلاد الدينى والسياسى (٣) .

ولم تلبث هذه الروح القومية التي حافظ عليها قبط مصر أن أثارت غضب الدولة الحاكمة فانضم الإمبراطور الى صف بطريرك القسطنطينية ضد قائلين بالثورة ، فعزل البطريرك المصرى ونفاه ، فالتفت الشعب حول رئيسه لأنه نظر اليه ممثلاً للروح القومية . ولا يمكننا أن نقول ان جميع المصريين قد تعمقوا في فهم الدين وعرفوا الفرق بين الطبيعة الواحدة والطبيعتين المندمجتين قبل كل الدهور أو انفصال أحدها عن الأخرى . ولكن الذى يمكننا أن نقوله ان

(١) صور من تاريخ القبط (١١٢ — ١٥٠) .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٢ — ١٠٩ .

(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٨٨ .

المصريين نصرُوا بطريركهم لأنه يمثل روح محاولة الدولة الرومانية التهام الشخصية المصرية (١) فإذا ما أسرع الامبراطور بنعيين بطريرك بدلا من البطريرك المنفى رفض الشعب الخضوع له ، وسماه البطريرك الملكانى اى الذى يعينه الملك لا الشعب .

ويحفظ لنا التاريخ خلال القرن السادس — الذى سبق الفتح العربى — أنواعا شتى من مقاومة الشعب لمحاولة الامبراطور تنصيب أسقف غريب ولعل المقوقس أحد هؤلاء الغرباء الذين حاول الامبراطور فرضهم فرفضهم الشعب . ولم تكن مساعدة القبط للمغرب فى فتحهم مصر خيانة لوطنهم ووطنيتهم . ولا هى مظهر من مظاهرها . بل فعل ذلك لعله يجد تحت الحكم الجديد اعترافا بقوميته ولغته . فنجدته قد عمده بمجرد انتهاء الحكم البيزنطى الى الغاء الأسماء اليونانية لبلادهم وكفورهم واستبدل بها أسماءها القبطية القديمة . بل هجرت الكنيسة اللغة اليونانية فى طقوسها واستبدلت منها لغتها المصرية القديمة بعد أن كتبتها بحروف يونانية وهى ما نسميها حاليا باللغة القبطية خطأ على نحو ما ذكرنا . وجاء الحكم العربى فأعطى القبط حريتهم الدينية وترك للبطريرك المصرى امر تدبير رعاياه ومعاملتهم على الأسس التى تقتضيها دينائهم . حين أعطى عمرو بن العاص البطريرك بنيامين مرسوم الامان . ولكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقول ان هذا الحكم العربى استمر صالحا خالصا أو انقلب الى شر خالص فذلك مخالف لطبيعة الأشياء فقد تناب الأمر بين الصلاح والفساد ولكن شيئا هاما لا بد أن نشير اليه ونؤكدده وهو أن الفساد أو بمعنى أقرب الى موضوعنا سوء حال المسيحيين لم يجر بناء على سياسة عامة لدولة بل كان يصدر بناء على نزعات خاصة لبعض الولاة دون غيرهم . وليس أدل على ذلك من هذه العبارة التى قالها عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وهو المعروف بعد صلاحه وتقواه (الحجاج بالعراق . وأخوه محمد باليمن . وعثمان بن حيان بالحجاز . والوليد بالشام وقره بن شريك فى مصر . امثلاث بلاد الله جورا) (٢) وحين

(١) صفحة من تاريخ القبط ص ١٤٦ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٢٣ .

تولى الخلافة وسأله أحد الولاة أن يلزم من يسلم بالجزية حتى لا ينقص الخراج أجابه قائلا « لقد بعث الله محمدا هاديا لا جابيا » ورفض النصيحة .

ولكن المصريين لم يكونوا يترددون في ابداء سخطهم حين يجدون الفرصة المناسبة . فقد أسرعوا بالانضمام الى العباسيين حين قاموا ورفض أن يعطى الأمان لمروان الثانى حين خر الى مصر يستنجد بأهلها اذ وجد أهل الحوف الشرقى قد اسودوا) أى انضموا الى العباسيين (١) كما لم يتردد المصريون اقباطا ومسلمين فى القيام بثورتهم الكبرى أمام ابن عون ويزيد بن حاتم منتهزين فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون . وكانت الثورة عنيفة حتى عجز عيسى بن منصور عن سحقها فاستعان بالأنشيين وحضر المأمون بنفسه وأشرف على اجراءات القمع وقتل منهم مقتلة كبيرة (٢) واذا ما جاء الفاطميون امل المصريون فيهم خيرا فأحسنوا استقبالهم بعد أن كاتبوهم فى فتح مصر وكان الفاطميون أعرف بالجميل من سابقهم فاعتزفوا بالقومية المصرية بل نقلوا مركزهم الى مصر واتخذوا القاهرة عاصمة لهم وعاد الى مصر استقلالها . ولم يلبث الفاطميون أن تمصروا وأصبحوا وليس لهم سيد أجنبى يدفعون له خراجا أو جزية أو يدينون له بالسيادة أو ينادون باسمه فى الخطبة أو ينقشون اسمه على السكة وزادوا بأن سمحوا للمسيحيين باقامة شعائرهم الدينية جهرا بل شاركوهم الاحتفال بأعيادهم وتكلم بعضهم القبطية (٣) بل ألفوا بها الى جانب العربية (٤) ورغم قيام الحروب الصليبية واتسامها بسمة الدين مدة قرنين من الزمان فان مسيحى مصر لم تأخذهم النعرة الدينية الكاذبة . بل وقفوا من المسيحيين الاوربيين موقف العداء الصريح . ولم يهبوا معونتهم لهم . فما دامت حكومتهم الوطنية لم تشترك فيها لأن الحرب لم تكن تعنى مصر فى قليل أو كثير ، وهم لا يفعلون بالعواطف الدينية الكاذبة التى ادعاها الصليبيون والتى لم تكن تهدف الى غير الرغبة فى الاستيلاء على الشرق

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣١٦ .

(٢) لعله يبدو غريبا أن تطلق الحكومة المصرية اسم هذا الخليفة على شارع من أكبر شوارع القاهرة .

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ص ٨٩ .

(٤) صور من تاريخ القبط ص ١٨٦ — ٢٠٨ .

الغنى . ولم يتحول المسيحيون عن هذا الموقف الا حينما راوا هذه الحروب وقد أصبحت خطرا مباشرا على بلادهم فهبوا للدفاع عنها وتمكنوا مع جميع المصريين من صد هذا الأجنبي الدخيل . ورغم ما نال المسيحيين في خلال العصر المملوكى من اضطهاد بالغ ورغم فساد الحكومة وسوء ادارتها فانهم لم يثوروا عليهم ان الوطن سليم بخير لا يخضع لسلطة خارجية ولا يدين بالولاء لقوة اجنبية . بل وجدوا هذه الدولة قد نقلت الخلافة الاسلامية الى القاهرة فأصبحت بذلك مصر رأسا بعد ان كانت ذيلا ودولة متبوعة بعد ان كانت تابعة، ونظروا الى المسألة من وجهها الصحيح فان هذا الاضطهاد كغيره من أوجه الادارة السياسية كان أمرا فرديا يصدر عن سلطان بعينه ، فالفردية كانت أظهر ما ميز العصر المملوكى كله . هذا الى ان الاضطهاد كان فى بعض أوقاته حسدا من النجاح الاقتصادى الذى تمتع به المسيحيون (١) . كما أن بعض مراسيم الاضطهاد صدرت تحت تأثير وزير أجنبى دخيل بعيد عن نفهم الروح القومية المصرية (٢) ولذا نظر كثير من المسلمين الى مثل هذه المراسيم نظرة الاستنكار فساعد ذلك على تخلص المسيحيين منها فى سرعة منقطعة النظير ، وتعاون المسيحيون والمسلمون فى استنكارها ونبذ العمل بها فى كثير من الفرص . وجاء الأتراك من الخارج غزاة ليقضوا على مصر المستقلة فلم يجدوا من أهل البلاد أو من الأقباط خاصة المعاونة التى لاقاها العرب عند فتحهم البلاد منذ تسعة فرون رغم ما لاقوه من القسوة تحت الحكم المملوكى . ولذا قاسى الأقباط من الحكم التركى كما قاسى غيرهم وان كان نصيبهم من مساوئ هذا العهد أكثر من نصيب غيرهم . وعلى ضوء هذا التفسير أخلص بعض الأقباط للحكم الفرنسى . بل أكثر من ذلك حين رأى المعلم يعقوب حنا ان زوال الحكم الفرنسى ضربة لازب تذكر بما سوب تعانيه البلاد ويعانونه هم تحت الحكم التركى القادم فاتجه نظره الى أن يؤمل فى شىء جديد ينحصر فى حياة مصر بعيدة عن كل من الفرنسيين والأتراك بل بعيدة عن كل قوة أخرى

Egypt and The Egyptian Question p - 213 (١)

Ibid p 207 (٢)

غير الفرنسيين والأتراك . مصر المستقلة الخارجة من كل نفوذ أجنبي .
وإذا كان المعلم يعقوب حنا وأمثاله قد فكروا في هذه الناحية التقدمية وتطلعت
آمالهم الى هذا الحلم الذى لم يكن مواطنيهم ليتطلعوا اليه مما كان ذلك ذنبهم .
وإذا كان مواطنوهم قد أساءوا بهم الظن وحاولوا التنكيل بهم فيجب ان لا يكون
ذلك موقفنا منهم نحن الذين نفهم الاستقلال ونقدّره ، فما كان المعلم يعقوب
وزملائه خائنين لبلادهم كما يحلوا لبعض المؤرخين الحاليين ان ينعتوهم ، بل
كانوا سابقين لعصرهم وعملوا تحت ضغط الظروف التى وجهتهم هذا
التوجيه . لقد كان أعظم الأقباط الذين ساعدوا على سحق قوات المماليك
والأتراك ، المعلم يعقوب هذا الذى سوف نفرّد عنه جزءا مفصلا لما كان من
مجهوده العظيم من أثر نادر خلق مشروع يرمى الى استقلال مصر بعيدة عن كل
نموذ أجنبي وسعيه المتواصل لأجل نجاح هذا المشروع رغم عدم تقدير مواطنيه
له فنعتوه بأقبح النعوت بل حاولوا قتله ، بل قتل جميع الأقباط حين جمعهم فى
قلعته التى كانت قائمة فى حارة النصارى بسوق القليلة فهاجمهم حسن بك
الجداوى أحد كبار المماليك على رأس جند كثيف فلقبهم المعلم يعقوب عند وجه
البركة وحاربه يوما كاملا حتى كلت عزيمته وسقط أغلب رجاله قتلى .

وعاودوا الهجوم فى اليوم التالى فلم يكن نصيبهم فيه خيرا من أمسه
فكان ذلك سببا فى إثارة غضبه وعودته للمرة الثالثة وحاصر القلعة . ففتح
المعلم يعقوب أبوابها وأمر فرسانه أن يخرقوا سياج الأسلحة بجيادهم
فاخرقوها وفشل الحصار الذى كاد يؤدى — لو نجح — الى فناء أقباط
القاهرة عن بكرة أبيهم (١) ولذا لا نستغرب اذا وجدنا الأقباط قد نظروا الى
الحملة الفرنسية القادمة نظرة أمل يرجى ، يخلصهم من هذا الحكم التركى
الفساد ويخلصهم من القومية الاسلامية التى اصطنعتها الخلافة ثم الانراك
العثمانيون من بعدهم من أجل القضاء على القوميات الوطنية للبلاد التى دخلت
فى نظامها . فأقبلوا يعينونها بمختلف الوسائل ، فكل مساعدة تقدم للفرنسيين
انما هى مسمار فى نعش الاحتلال التركى .

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ٢ ص ٤١ .

وعرف الفرنسيون ما كان عليه الأقباط من مهارة وكفاءة ، فولوهم المناصب الكبيرة ، فتفرد المعلم فلتاعوس حنا باقليم الغربية ، والمعلم واصف باقليم المنوفية ، والمعلم انطون أبو طاقية باقليم الشرقية ، كما تولى المعلم جرجس الجوهري ما يشبه وزارة الداخلية ، والمعلم ملطى يوسف وزارة العدل ، أو رئيس محكمة القضايا ، والمعلم لطف الله المصرى عضوية مجلس التجار (١) والمعلم شكر الله جرجس رئيسا لـديوان المالية ، كما اشترك فى وضع نظام دقيق لجباية الضرائب لتجمع من الأهالى بالعدل ، فعناد ذلك بالخير العميم على جميع المصريين حيث رفعت عن عاتقهم الضرائب الباهظة التى كانوا يرسفون فى أغلالها (٢) بل انضم الى القوة المحسارية الفرنسية كثير من الأقباط مثل المعلم مكاريوس حنين ، والمعلم غبريال سيداروس ، والقس حنا راعى كنيسة منفلوط ، ووصل كل منهم الى رتبة كولونيل ، ثم عبد الله منصور الذى كان من أكبر أعوان ابراهيم بك فحصل على وثبة قومندان . وعين نابليون المعلم الياس بقطر الذى كان راسخ القدم فى الفرنسية سكرتيرا خاصا له ثم عضوا بالمجمع العلمى (٣) .

ولذا كان المعلم يعقوب حنا أول من استيقظ من المصريين واستغل الفرنسيين أحسن استغلال كى يضمن بمساعدتهم استقلال بلده . وجدير بمصر المعاصرة أن تعرف لهذا المصرى مكانته منقيم له تمثالا من حجر بل من الذهب فى أوسع ميادين القاهرة لتكتب على قاعدته (أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث) وسوف نرى فى حياة هذا المعلم الذى نبع من بين صفوف الشعب وثقف بثقافة الشعب سلسلة متواصلة من الامجاد التى تعلو مع الزمن . مما يحق للأقباط أن يفخروا به لبئات من السنين قادمة .

ولد المعلم يعقوب فى ملوى سنة ١٧٤٥ من أسرة قبطية متوسطة الحال . وتلقى علومه فى أحد الكتاتيب القبطية التى كانت شائعة فى ذلك

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ١٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٦ .

العصر ، ولكنه أكب على الدرس بنفسه حتى تعلم الفرنسية الى حد التبرير . واشتهر بالتفوق في العلوم الحسابية ، حتى اذا دخل خدمة أحد المماليك في اقليم الفيوم — وهو سليمان بك — تعلم الفروسية واللعب بالسيف وساعده على ذلك ما حباه الله به من قوة في الجسم . وكانت خبرته المالية وما أولاه اياه سيده سليمان بك من ثقة سببا في حيازته ثروة مكنته من اقتناء الخدم والحشم ثم من بناء قلعة على رأس حارة القبيلة عند حارة النصارى أقام على حراستها عددا من الجند شاكى السلاح .

ورأى المعلم يعقوب في الفرنسيين فرصة لخدمة بلاده لم يتردد في اقتناصها ، فانضم الى حملة ديزيه التي أرسلت لمطاردة فلول الممالك في الصعيد . فساعد بشجاعته على القضاء على أوكارهم كما حدث في بلدة العتامنة من أعمال محافظة أسيوط حين ظل ينازل الممالك مخاطرا بحياته حتى لحق به الجنرال ديزيه فلم يملك سوى أن يهنئه على ما بذله من جهد . وقدم له سيفاً فخرياً تذكاريًا لبسالته وكان ذلك عند بلدة بنى سند بحضور كبار القواد والضباط وسائر الجنود ، ونقشت على السيف عبارة (معركة عين القوصية) ويقال ان هذا السيف لا يزال محفوظا لدى من تبقى من أفراد أسرته . وحبذا لو تكرموا فقدموه هدية الى المتحف القبطى خوفا من ضياعه . ان كان ذلك حقيقيا .

وفي خلال عمله نجح المعلم يعقوب في منع استعمال العنف في جباية الضرائب بل نجح في حمل الفرنسيين على احترام المصريين وعدم أخذهم كرهائن من أجل المال . كما كان يفعل المماليك في حروبهم ، وكما عمد الفرنسيون في أول أمرهم . فقد حدث أن تولى الجنرال بليار الاشراف على جباية الضرائب فتأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن موعد تسديدها فقبض على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد . فاذا ما قدم المعلم يعقوب الى بنى سويف بصحبة الجنرال ديزيه وعلم بالأمر أظهر امتعاضه لذلك ، واحتج على تصرف بليار ونصح باستعمال الاناة في الجباية والكف عن ارهاق الفلاحين واخلأ سبيل المشايخ فأقره الفرنسيون على رأيه وعملوا

بنصيحته (١) .

ولم يملك الجنرال ديزيه ازاء الخدمات الجليلة التى قدمها المعلم يعقوب الا الاشادة بخدماته حين جهز للحملة كل ما يلزمها وأمن طرق مواصالاتها ونظم حركاتها وجعل القائد على اتصال دائم بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل . واضطلع بمهام الشئون المالية والادارية فى جميع أرجاء الوجه القبلى من حيث توزيع الضرائب وتنظيم جبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة والانظمة القديمة التى كانت سائدة فى البلاد (٢) .

ويروى الجبرتى ان يعقوب كان يتمتع بسلطان مطلق فى عهد الجنرال كليبر ، وبالرغم مما خوله هذا السلطان من سلطات استعمل السياسة والحكمة فى جباية الغرامة التى فرضها كليبر على القاهرة عقب ثورة القاهرة الثانية (٣) .

وعندما قتل كليبر وتولى مينو قيادة الجيش الفرنسى أراد أن يمالئ أهل مصر فأعلن اسلامه وتزوج بمسلمة . بل أصدر امره بوقف الاقباط من دواوين الحكومة (٤) . ولكنه حينما أراد أن ينظم إيرادات الدولة عين لذلك المسيو استيف مديرا عاما للإيرادات فوجد هذا الأخير نفسه فى حاجة ماسة الى خبرة المعلم يعقوب فعينه مستشارا للشئون المالية ، ولما تبين له ان إيرادات الدولة لا تكفى لسد حاجة الجيش والمشروعات العامة فاتح المعلم يعقوب فى ضرورة عقد قرض بمليون من الفرنكات . ورغم سوء حالة الفرنسيين فى مصر وظهور جميع الدلائل على سرعة رحيلهم فانه اتفق مع ثلاثة من زملائه وهم المعلم جرجس الجوهري ، والمعلم انطون أبو طاقية والمعلم ملطى . على تقديمها متضامين فقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديرية الداخلة فى دائرة اختصاصاتهم الادارية وأعطاهم استيف بقيمتها سندات على الخزنة الفرنسية . ولم يسترد أحد

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٥ .

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٠٧ .

(٤) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ .

منهم ما دفعه بل ظل المعلم انطون يطالب بماله حتى أيام نابليون الثالث الذي لم يعترف بهذا الدين . وهذه الخدمات الجليلة التي قدمها المعلم يعقوب لمواطنيه لا تعد شيئا مذكورا بجانب ما قام به بعد ذلك . فقد اتصل بالجنرال كليبر ووقف منه على سوء حال الفرنسيين في مصر وعرف رأيه في وجوب جلائهم عنها . فصور له ان أحسن قوة تستطيع فرنسا ان تستند اليها هي جيش وطنى مصرى تقوم فرنسا بتسليحه على ان يكون ذلك على نفقة المصريين أنفسهم .

فاقتنع كليبر بالفكرة وأذن له في تنفيذها (١) وقد فعل المعلم يعقوب ذلك لانه كان يعلم أنه يوم يجد الجد ويخرج الفرنسيون ، لابد ان تكون هناك قوة مصرية تستطيع ان تملأ ارادتها على كل من المماليك والأتراك . وان مصر المحرومة من الجيش الوطنى لن تستطيع ان تؤثر في مجريات الامور وانها سوف تكون كالشاة التى يتداولها الجزائريون ليرى كل منهم نفسه أولى بذبحها ، فجمع أكثر من ألفى شاب من أهل الصعيد ، أوكل كليبر أمر تدريبهم على الحركات الحربية والنظم العسكرية الى ضباط اختارهم من الفرنسيين ، فأظهر جنود هذه الفرقة من ضروب الشجاعة والبسالة ما يشرف المصريين ، وتولى المعلم يعقوب قيادتهم بعد ان جهزهم بالسلاح والذخيرة على نفقته الخاصة (٢) فكان أول جيش مصرى خالص منذ أيام الاسكندر .

وكان آخر مشروعاته هذا المشروع الذى كتب له الخلود في سجل التاريخ وهو مشروع تأليف وفد مصرى سافر مع الحملة الى أوروبا ليقنع حكومتى انجلترا وفرنسا بالموافقة على استقلال مصر بعيدة عن كل نفوذ أجنبى . فقد رأى ان فرنسا قد أرغمت على ترك مصر ، وان الذى أرغمها على ذلك لم يكن تركيا صاحبة السيادة عليها بل انجلترا . فوق أنهم (انجلترا وفرنسا) صاحبتا أكبر قوة في العالم . وان تركيا لا تعدو رجلا مريضاً تعامله كل دولة وفق مصالحها . كما عرف ان انجلترا لو أرادت ان تحتل مصر لما وجدت من يعارضها . ويرغمها على الجلاء . فأيقن أن

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٣٠٧ .

مصر المستقلة — بضمان كل من إنجلترا وفرنسا — أقدر على خدمة العالم والسلام من مصر المحتلة الضعيفة . (ولمصر من مجدها وماضيها السالف ثم من مواردها الحالية وكذلك من نشاط أبنائها مسلمين وأقباط ما يؤهلها لحمل هذه الأمانة) . ولذا لم يتردد في القيام بهذه المهمة رغم الظلام الذى كان يحوطها والشك الذى يعتورها . نبارح مصر على رأس وفد قبضى ليسعى لهذا الغرض النبيل ولكن القدر لم يمهلهم وكان أقصى على مصر من قسوته على المعلم يعقوب نفسه فمات الرجل فى اليوم الرابع عشر من رحيله . وفشل مشروعه . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن ندرس هذا المشروع وما قام به الرجل خلال رحلته القصيرة من جهود فى سبيل اقناع من يراه مسئولا من أجل نجاح مشروعه .

وقبل أن يرحل الوفد أرسل قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتابا الى الجنرال بليار يرجوه فيه بالحاح أن يقنع يعقوب بالبقاء فى مصر للانتفاع بخدماته . ولكنه اعتذر قائلا عبارته الرائعة (ان مهمتى لم تنته بعد) .

قابل المعلم يعقوب قائد البارجة البريطانية التى رحل عليها واخذ يحدثه عن مستقبل بلاده وكان حديثا سريا . ولكن انقائد كتب عنه الى اللورد الاول للبحرية البريطانية يقول : ان المعلم يعقوب حدثه — بعد أن أخذ منه ميثاقا بأن لا يستعمل هو أو الحكومة البريطانية هذه المعلومات فيما يؤذى بلاده — عن رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر (١) ووسيلته فى ذلك السعى لدى الحكومات الاوربية وخصوصا إنجلترا وفرنسا بعد أن تبين لهما استحالة استعمارهما لمصر . وليس من شك فى أن هذا الاستقلال سوف يعيد لمصر رخاءها ، ولا بد أن إنجلترا بحكم مركزها فى الهند سوف تهتم كثيرا بالتجارة مع مصر وما حولها من المناطق منستفيد بذلك أكبر فائدة لما اختصت بها مصر من المزايا .

أما عن شكل هذه الحكومة فهو لم يفكر فيها بشكل تفصيلى سوى أنها

(١) مذكرة القائد جوزيف امنديس الى اميرال البحرية البريطانية فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٠١ (صور من تاريخ القبط ص ٣١٥) .

ستكون عادلة حازمة وطنية ترفسه عن عيش الفاسر، وتزيد في كسبهم فتحترم
وتطاع وتحب .

أما عن دفاع هذه الحكومة عن استقلال البلاد اذا اعتدى عليها
معتد ، فإنه لم يكن يتصور وجود هذه الدولة المعتدية سوى تركيا
والماليك (١) وفي هذه الحالة ستقف الدول الغربية في سبيلها
وتحظر عليها مس هذا الاستقلال الذي سيكون في ضمانتهما جميعا الى ان
يحين الوقت الذي يتم فيه تنظيم الجيش الوطنى وجعله قادرا بحيث يستطيع
رد الاعتداء مهما كان مصدره .

وخطه الوفد المصرى فى ذلك ان يسعى فى أوروبا كى تكون فرنسا هى
البادئة بعرض المقترحات الأولى الخاصة بالاستقلال على إنجلترا ، بينما
يكون الوفد من ناحيته قد سعى ونجح فى اقناع إنجلترا بمزايا هذا المشروع
وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الحكومة البريطانية له تحت تأثير خوف
الحكومة البريطانية من كل ما هو فرنسى .

ولم يحل موت المعلم يعقوب دون مواصلة الوفد لمساغيه . فما كاد
يصل الى مرسيليا حتى بادر نمر أنفدى سكرتير الوفد فكتب الى نابليون
(اذا تنازلت من أجل مجدك . ولفائدة الجمهورية السياسى . فمددت
يد المساعدة الى المصريين وأحسننت استقبال وكلائهم فى باريس فاعلم ان مصر
المستقلة سنعوض عليك خسارتك فى فقدتها مائة مرة) .

وقد استند نمر أنفدى فى رسالته هذه الى نابليون فى حق مصر فى
الاستقلال على ما كان لها فى سالف الأيام من عز تام (عندما كانت فرنسا
لا يظهر منها للناس الا جليلد وغابات كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى
دروس العلم والعرفان على مشرعى الاغريق) وكانت هذه الرسالة مؤرخة فى
سبتمبر سنة ١٨٠١ .

(١) كانت هذه النظرة صحيحة اذ لم تكن هناك دولة قوية بعد ذلك الا
امبراطورية النمسا والمجر التى لم تفكر يوما فى توسيع رقعتها خارج أوروبا .

كما كتب نمر أفندى رسالة ثانية الى تاليران وزير الخارجية الفرنسية يتناول (ان فرنسا قد خسرت خسارة عظيمة في الشرق . فلم لا تتخذ من مهمة هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرت . فانها تستطيع — مستندة الى صداقة مصر المستقلة — ان تمد نفوذها الأدبي نحو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول جلاؤكم عن مصر من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية) .

ومن ذلك تدرك ان القبط أثبتوا أنهم في هذه الآونة من تاريخهم كما كانوا دائما جديرين بشرف الانتساب الى مصر . فقد كان في وسع المعلم يعقوب ومن خرج معه من الأقباط ان يظلوا في مصر ليتمتعوا بالنفوذ والجاه لا سيما وقد طلب القبطان حسن باشا (الاستفادة من خدماتهم) أو على الأقل كان المعلم يعقوب يستطيع ان يمكث معنمدا على الفيلق القبطي ليصبح قوة محركة في مستقبل البلاد السياسي ولكنه لم يفعل لأنه عرف انه مهما كان الانجاه الذي سيتخذه بعد ذلك فهو لن يكون الا في نطاق الخضوع للأتراك . وهو النظام الذي قال عنه قبل ذلك (ان أي نوع من انواع الحكم لا يمكن ان يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم نابليون بونابرت) (١) .

وقد آثر المعلم يعقوب ان يخرج وهو لا يعرف ماذا ينتظره في الخارج ليسعى نحو هدف يراه أشرف من أي هدف آخر . فهو أشرف من أن يصبح صاحب جاه في مصر وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة في توجيه تاريخ بلاده في ظل الحكم العثماني وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة في تحسين احوال مواطنيه من الأقباط .

ولم يشأ قائد السفينة ان يقذف بجثة المعلم يعقوب الى البحر كما جرت العادة بل احتفظ بها حتى وصلت الى مارسيليا وهناك احتفلت الحكومة الفرنسية بتشيعها احتفالا عسكريا مهيبا ، اشترك فيه جنود الحملة الفرنسية والفيلق القبطي ثم دفن في مقبرة القديس بطرس بمارسيليا تحت

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣١١ .

ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب القبة ليعيد ذكرى شاطئ
النيل .

وبذلك خسر الأقباط ، بل خسرت مصر كلها بطلا سبق عصره بقرن
من الزمان على الأقل .

وقبل أن نختم هذا الباب يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند المعلم
يعقوب الذى لقي من بعض المؤرخين المصريين جزاء مغائرا ، لم يتورع
بعضهم عن اتهامه بتهمة الخيانة لقاء مساعدته للفرنسيين فى حروبهم ضد
المماليك .

لقد حارب المعلم يعقوب فى صف الفرنسيين وهو يعلم ان كل انتصار
يحرزه هؤلاء انما هو مسمار يدق فى نفس السيادة التركية الذى أذاق
المصريين عامة والأقباط خاصة كأس الذل وقطع الصلة ببلادهم عن العالم
الخارجى فأصبحت مصر بذلك منذ القرن السادس عشر الميلادى — وكأنها
قد تأخرت عن الركب العالمى عشرين قرنا أو يزيد .

هذا الى أنه يحارب الفرنسيين وهو يعلم أنه يحارب فى صف العلم —
وقد رأى نظامهم الحربى وتقدمه — ضد الجهل والتأخر بينما كان غيره يحارب
الفرنسيين مدافعا عن الاستعمار التركى أى أن كلا منهما كان يحارب فى
صف الاستعمار الاجنبى لبلاده فلماذا ينعت المعلم يعقوب بتهمة الخيانة
لأنه يؤيد الاستعمار الفرنسى ولا ينعت الآخرون بنفس التهمة لأنهم يؤيدون
الاستعمار التركى . وهل الاستعمار التركى أنضل من الاستعمار الفرنسى ؟
ولماذا يعطف المؤرخ الحديث على موقف الأقباط حين ساعدوا الفتح العربى
ويعلله بأن الأقباط قد ذاقوا الذل تحت الحكم البيزنطى وأرادوا الترحيب
بالعرب منقذهم ولا يعطف على هؤلاء الذين ساعدوا الفرنسيين لا سيما
والأقباط قد ذاقوا تحت الحكم التركى ما هو أمر من الذل ؟ فهل مساعدة
العرب الفاتحين محمودة ومساعدة الفرنسيين الفاتحين مذمومة ؟ .

وإذا كان المعلم يعقوب قد كـون الفيلق القبطى وجعله تحت القيادة
الفرنسية فهو لم يفعل ذلك الا فى أيام كليبر وكلنا يعلم ان كليبر كان معارضا

للحملة الفرنسية على مصر مرحبا بالجلء عنها . فما كاد يتسلم القيادة بعد سفر نابليون حتى بادر بفتح المفاوضات مع البريطانيين (القوة الحقيقية المناهضة للفرنسيين) من أجل الجلاء عن مصر وكأن المعلم يعقوب لم يبدأ في تكوين الفيلق القبطى الا حين علم ان جلاء الفرنسيين أمر لا شك فيه ، وأراد أن يجعل المصريين قوة تستطيع أن تلعب دورا على مسرح الحوادث المصرية ولا يترك الأمر بين يدي الأتراك والمماليك يدبرونه كيف يشاعون وهو موقف كله شجاعة وبعد نظر حتى اذا فكر فى الامر بعد ذلك وجد السعى فى سبيل استقلال مصر بعيدا عن كل من تركيا وانجلترا وفرنسا غرضا أسمى من كل شيء . وفى نظرى ان رمى المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لا ينم الا عن قصر نظر وسوء نية .

الباب الثالث

عصر محمد علي

جلا الفرنسيون عن مصر فظن المماليك أنها كانت سحابة صيف وانقضت تعود بعدها الأحوال الى ما كانت عليه ويعثودون انى سابق سلطانهم . كما ظنوها الاتراك فرصة العمر قد اتاحها الفرنسيون للتخلص من المماليك الذين فشلوا فى الدفاع عن مصر وحمائيتها ضد التدخل الأجنبى . ولذا كانت الأوامر التى حملها الوالى الاول حسن باشا قبطان صريحة فى وجوب التخلص من المماليك مهما كان الثمن ومهما كانت الوسائل التى يتبعها (١) .

ولذا ظهر منذ اللحظة الاولى أن هناك صراعا سوف ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة (٢) ، فمن من السידين يركب هذه المطية الذلول .

وبدا أيضا منذ اللحظة الاولى ان تركيا لم تستفد من دروسها السابقة ، فقد وصل الوالى الجديد مفلسا يستند على شراذم من فرق ثائرة لم نتسلم مرتباتها لعدة شهور سابقة (٣) فامتألت البلاد بالفرق المختلفة من اترك وولاة الى ممالك الى ارناعود . ولكل منهم قائده الذى لا يخضع للوالى ، فعانت كل هذه الطوائف فى البلاد فسادا ، وظلت البلاد اربع سنين مسرحا لنهب متواصل من طوائف الجنود المختلفة ، كان الفلاحون والتجار ضحيته . ولم يراع هؤلاء الجند فى نهبهم أو صراعمهم مع بعضهم قاعدا واحدة من قواعد الخلق أو الانسانية ، فكثرت ثوراتهم على الولاة من أجل المرتبات المتأخرة (٤) ، وكثر طلب الولاة للأموال مقدما لأكثر من سنة ، وكان

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٢ .

(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٤١ .

(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ و ٢٦١ .

نصيب الاقباط من هذه المظالم كثيرا من أجل ما كان يشاع عن ثرائهم (١) .
ومن الطبيعي أن لا يسلم الممالك البلاد لقمة سائغة للأتراك إذ كانوا
يعتقدون أنها بلادهم التي أعطاها الله لهم ، والأتراك مغتصبون ، ولذا كان
صراعهم من أجل الاحتفاظ بالسلطة مريرا قاسيا وقعت نتيجته على رؤوس
المصريين . انظر الى الجبرتي وهو يصف كيفية صراع الممالك من أجل
الاحتفاظ بسلطتهم فيقول :

فلم ينجسروا على الاقدام عليهم (الأتراك) من الطريق . بل دخلوا
البيوت التي في صفهم ونقبوا من بيت الى آخر حتى انتهوا الى أول منزل من
مساكنهم ، فنقبوا البيت الذي يسكن فيه الشيخ محمد سعد البكري ونفذوا
منه الى المنزل الذي يجاوره ثم الى بيت على أغا انشعراوى ثم الى بيت سيدى
محمد وأخيه سيدى محمود المعروف بأبى دفية الملاصق لسكن طائفة من الأرناؤود
وعبثوا في الدور وأزعجوا أهلها بقبيح أفعالهم فانهم عندما يدخلون أول بيت
يصعدون الى الحريم بصورة منكرة من غير دستور ولا استئذان وينقبون من
مساكن الحريم العليا فيهدمون الحائط ويدخلون الى محل حريم الدار الأخرى
وتصعد طائفة منهم الى السطح وهم يرمون بالبنادق في الهواء في حال مشيهم
وسيرهم . وهكذا طفقت العساكر تنهب الامتعة والثياب ويأسرون الصناديق
ويأخذون ما فيها ويأكلون ما في القدور من الاطعمة في نهار رمضان من غير
احتشام (٢) .

ومن وراء هاتين القوتين ظهرت شخصية محمد على وقد رأى بواذر هذا
الصراع فعول على أن يستفيد منه وكانت وسيلته في ذلك المشايخ الذين
وقعوا ضحية خداعه لهم ، في وسط هذه التيارات المتضاربة وقف الشعب
المصرى الأعزل لا يملك من نفسه نفعا ولا ضرا ينتظر الرابح منها ليكون له
طعاما شهيا .

وبدأت الحرب مريرة قاسية قاسى منها الشعب ما ليس بالقليل من

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٣١٤ و ٣٢٠ و ٣٢٧ .

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٧٦ .

المصائب والمحن وانتهت بفوز محمد على في سنة ١٨٠٦. بين رضاء المشايخ الذين أقنعوا أنفسهم بأنهم هم الذين نصّبوه وبين سحق الباب العالي الذي أفلت منه هذا الوالى دون أن يدفع الثمن وترقبت انجلترا اللحظة الحاسمة لتتقضى .

وبدا محمد على سلسلة مشروعاته الضخمة التى ترمى الى خلق دولة مصرية ، ذات كيان سياسى مستقل . وكان أساس مشروعاته هو الاصلاح الزراعى الذى نستطيع أن نقول فى نقده شيئا كبيرا ، ولكننا لا ننكر فى النهاية أنه أفاد مصر فائدة اقتصادية هائلة .

وجاءت مع هذا سلسلة مشروعاته الحربية سواء كانت مدافعة أو مهاجمة . وتعتمد فى نفس الوقت على طاقة إنتاجية كافية .

وقد اشترك جميع أبناء الأمة فى جميع المبادئ ، سواء ميدان العمل فى الحقل أو المصنع أو الادارة ، وبذلك وضع مبدأ المساواة وضعا عمليا للمرة الاولى ، فلم تفرض ضرائب خاصة على الاقطاع ، ولا حرم الاقطاع من شرف الخدمة فى ميدان من الميادين ، وبذلك ثبت للعالم كله أن الأمة المصرية لا تكون من عناصر ممتزجة بل تتكون من كل واحد كما يتكون الهواء . ان حرم أحد عناصره لم يعد هواء يحمل الاسم الذى خلقه الله ليفى أغراضه المختلفة .

وقد ربح مصر فى هذا العهد ان استتيظت فى أبنائها الروح الحربية التى حرص الحكام المتوالون طوال القرون المختلفة على اعدامها ، فقد عمل الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك على عدم بعث هذا المارد مخافة أن يسبب لهم من المشاكل ما هم فى غنى عنه ، وحرصوا على أن يعطوا هذا العمل أسماء مختلفة مثل توفير الطاقة للانتاج ، أو عدم حرمان الأرض من اليد العاملة ، وهى حيلة ان جازت على المصريين فى بعض العصور فأمنوا بها واستكانوا اليها ، الا أن هذه الفقرة من التاريخ أثبتت فسادها بطريقة عملية بعد أن امتد نشاط المصريين الى الحرب والى الانتاج الزراعى والصناعى دون أن يتأثر احداها بالآخر ، بل ساعد كل منهما الآخر وعملت كلها متعاونة كعجلات آلة واحدة . وفى خلال هذه الفترة من بداية القرن التاسع عشر فتحت نوافذ

مصر الى العالم الخارجى فلم تعد تعاني العزلة التى فرضها عليها
حكّامها السابقون . بدافع من مصالحهم الخاصة ، بل أصبحت مصلحتها
تقتضى منها أن تتصل بهذا العالم وتستفيد منه وكان مظهر هذا الاتصال هذه
البعثات العديدة التى أرسلت الى الخارج لتتعلم فى مدارسها وتستفيد من
خبرته . حتى اذا عادوا أصبحوا مصدر الانتاج الضخم المتعدد النواحي .
وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذا العدد الوافر من الأجانب الذى قدم مصر
ليساهم فى نهضتها ، وليقدم نتاج خبرته ليدعم بها هذه النهضة الحديثة .

وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذه الحركة القومية التى أدت الى
ترجمة عدد كبير من الكتب الفنية وغير الفنية الى العربية ليستفيد من نشرها
أكبر عدد ممكن ، وبذلك رخصت المعرفة وسهل العلم على كل راغب .

وفى هذه الفترة من التاريخ ربحت مصر ثقة الأجانب بالمصريين كشعب
قوى منتج قادر ، وكانت نتيجة هذه الثقة هذه العقود التجارية الطويلة الأجل
التي أبرمها التجار الأجانب مع حكومة البلاد لأجل استيراد منتجاتها
ومبادلتها بمصنوعاتها . وكانت نتيجة هذه الثقة أيضا هذه المشروعات التى
عرضتها الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية من أجل القيام بأعمال
مشتركة ، كما فعلت فرنسا حين عرضت مشروع القيام بحملة على الجزائر
من أجل القضاء على القرصنة فى البحر المتوسط ، واقامة حكومة ثابتة
وطيدة فى هذه البلاد على غرار الحكومة التى قامت فى مصر . وذهبت
الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل الى حد اغراء الحكومة المصرية بالتنازل
عن جزء من الأسطول الفرنسى نظير القيام بهذه الحملة المصرية . وكان
مظهر الثقة هذه الكتب التى أرسلتها الغرفة التجارية الهندية الى الحكومة
المصرية تشكرها من أجل الجهود التى بذلتها لصيانة طريق التجارة الهندية، وهذه
المشروعات التى عرض على الحكومة المصرية القيام بها من أجل شق قناة
تصل البحرين الأحمر والمتوسط . ثم رفض الحكومة لهذه المشروعات تجنباً
لما تجره على البلاد من مضار لا سبيل الى دفعها .

وربحت مصر ما هو أثمن من هذا كله . ربحت ارتفاع الروح المعنوية
للمصريين ، فقد عرفوا أنهم أمة لا تقل عن غيرها من الأمم اذا أرادت فعلت ،
وأنهم قادرون على أن يفعلوا وأن يفعلوا كثيراً اذا اتاحت لهم الفرصة ،

ووجدوا القيادة الرشيدة التى تقودهم نحو الانتاج ونحو المجد ، ولم تعد روح الاستكانة التى تفشت فيهم منذ بداية عهد المماليك تجد مكانها فى نفوسهم ، ولم يعد الأجنبى يستطيع التسلط عليهم . وقد أثبتت الحوادث القادمة فى كثير من الفرص ديباب هذه الروح وقوتها وبروح الثقة التى وقفت فى وجه المماليك تحول دون تسلطهم على البلاد كما وقفت فى وجه خسرو وخورشيد تحول دون استبدادهما ، كما وقفت فى وجه السلطان تطالب بحقوقها فى تعيين واليها الذى يختاره الشعب بأرادته الحرة . لا الذى يختاره لها السلطان . وروح الثقة هذه التى دفعت الشعب المصرى الى مقاومة نزول البريطانيين فى سنة ١٨٠٧ رغم قصور أسلحته ، بل التى أجلت البريطانيين عن رشيد وأعادت الثقة الى واليها نبادر بالمقاومة بعد أن فكر فى الاستسلام .

وربحت مصر أيضا ان أثبت المصريون قدرتهم واستعدادهم على التعلم وأهليتهم للعلم والمعرفة ، فلم يعد الشعب المصرى هذه الجمهرة من الفلاحين التى تراول جرفتها عن تقاليد ورثتها لا تستطيع تغييرها ، ولا هذه الفئة الجاهلة التى تمارس علمها الموروث عن تعصب للقديم ، بل هو هذا الشعب الواعى الذى يحتفظ بقديمه ولكنه يتطلع الى كل حديث فيتعلمه ويستفيد منه . وإذا كانت روح الجمود قد تفشت حتى أصبحت لازمة من لوازمه فلم يكن ذلك الا عملا خبيثا أراد الاحتلال الأجنبى أن يفرضه ليستفيد منه . وإذا ما وجد الفرصة السانحة نفضاها عنه وأسرع ليأخذ مكانه فى موكب العلم والعرفان .

فلا نستطيع اذن أن نسمى ما تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تطورا بل كان فى الحقيقة ثورة قام بها الشعب المصرى ليعوض ما فاته من نوم طويل عميق .

حقبة ان مصر لم تنل نتيجة لهذه الجهود استقلالها أو شخصيتها السياسية الكاملة ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة قصور من أهلها أو عدم كفاية مواردها لاكتمال هذه الشخصية ، بل كان نتيجة للتدخل الأجنبى الذى وجد مصلحته فى عدم تمكين المصريين من القيام بهذه الخطوة . فقد شاعت انجلترا ان تجد صالحها فى بقاء مصر ضمن الامبراطورية العثمانية ما دامت متسلطة على هذا الرجل المريض ، الذى يمكنها من تنفيذ جميع مآربها .

وكانت فرنسا تشايح مصر بعض الشيء ، الا انها اضطرت تحت ضغط ظروفها الداخلية وخضوع الحكومة الفرنسية للحكومة البريطانية في أن تزيد ضغطها على مصر . أما روسيا فقد كانت سياستها تتجه خلال هذه الفترة الى محاولة تحطيم تركيا لوراثتها . وان لم تتح لها هذه الوراثة الكاملة ، فلا أقل من أن تقتسم أملاكها مع من يعينهم الامر ، ولكنها كانت تفضل دائما أن تكون هي المحطمة لها فيكون لها وحدها حق وراثتها . أما اذا جاء هذا التحطيم على يد غير يدها فلن يكون لها في الامر ناقة ولا جمل ، ولذا رأت من الأفضل لها بقاء السلطان الضعيف الذي قد يمكنها الزمن من اغتيال أملاكه من أن يستبد به آخر قوى يفوت عليها أغراضها .

وكانت وسيلة روسيا في هذا التحطيم ادعاء حماية غير المسلمين من رعايا تركيا وعلى الأخص الأرثوذكس منهم وهم سكان شبه جزيرة البلقان وتحرضهم على الثورة وطلب الاستقلال . فكان أن عقد مؤتمر لندن ، ووجد السلطان العثماني في قراراته البعيدة عن العدل ما يوافق أغراضه . فكان أن أرغمت مصر على الرضى بموضع التابع لتركيا تبعية ضمنيتها الدول الأوروبية التي اشتركت في هذا المؤتمر (١) ومنذ هذا الوقت أصبحت تبعية مصر للسلطان . أو بمعنى أصح سيادة السلطان على مصر . أو سعى مصر لتغيير هذه السيادة الى أى شكل آخر مسألة دولية تدعو الى تدخل الدول .

وهنا نستطيع أن نسأل ماذا كان موقف الأتباط من هذا كله وما هو دورهم الايجابى أو السلبى فيما حدث من الحوادث وما ترتب عليها من نتائج .

أراد الأتراك أن يجمعوا القلوب حولهم استعدادا لمعركتهم القادمة مع المماليك ، فأصدروا أمرهم أن لا يتعرض أحد لأعيان القبط (٢) ولما كانوا في حاجة الى المال قربوا اليهم المعلم جرجس الجوهري فعاد اليه احترامه وثىء كثير من نفوذه وفي ذلك يقول الجبرتي « وكذلك عند مجيء الوزير

(١) وفاق لندن المبرم بين السلطان من جهة وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا من جهة أخرى في ١٥ يوليو ١٨٤٠ .
(٢) السنكسار ١٢ بشنس والجبرتي ج ٣ ص ٢٠٠ .

والعثمانيين قدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والרגائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي ورأيته يجلس بجانب محمد خسرو باشا وبجانب شريف أفندي الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور » .

وكان المعلم جرجس وطنيا صحيحا لا يفرق بين أبناء الأمة في معاملة لأنهم جميعا أبناء وطن واحد وفي ذلك يقول الجبرتي « كان عظيم النفس . يعطى العطايا . ويفرق على الأعيان ، عند قدوم شهر رمضان ، الشموع والعسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب وكان يقف بأبوابه الحجاب والخدم » (١) .

ولكن كثيرين رفعوا شكواياتهم الى الأتراك عن ظلم وقع عليهم أيام الاحتلال الفرنسي وعزوا هذا الظلم الى المعلم يعقوب ، فسرعان ما حقق في الأمر وأثبت التحقيق عكس ما ظنوا وفي ذلك يقول الجبرتي أيضا « انه ظهر لمحمد مرق الذي تولى مصر بعد خروج الفرنسيين ان الظالم الحقيقي في الجباية لم يكن المعلم يعقوب بل كان مصطفى الطاراتي مقدم القائد المذكور فتقطع رأسه بين المفارق في باب الشعيرية » . ولكن لم تلبث الأحوال ان اضطربت أيام طاهر باشا وعجز عن حفظ الأمن وعاشت جنوده في الأرض فسادا فقبضوا على المعلم ملطى وقطعوا رأسه . ولم يكن المعلم ملطى وحده الذي فعل به ذلك بل شاركه كثير من المواطنين مسلمين وأقباطا ما داموا لا يملكون ايطمع فيك .»

وفي سنة ١٨٠٦ تمكن محمد علي من أن يقبض على السلطة وكان في حاجة الى المال فقرب اليه المعلم جرجس فعاونته هذا أحسن معسونة ، وعول الرجل على أن يستفيد من جميع عناصر الأمة فمقد كان الرجل بعيد النظر وعرف ما للأقباط من مهارة لا يستغنى عنها ، وكفاءة لا تنكر ووطنية تدعوهم الى الاخلاص في العمل فأحلهم من نظامه مكانا مرموقا وأول من يشير اليه هو المعلم رزق أغا الذي كان اليد اليمنى لعلى بك الكبير وتولى ادارة الجمارك

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٣١ .

سنة ١٧٦٨ حين جاء الى مصر المستكشف الاسكتلندى جيمس بروس يبنى البحث عن منابع النيل فأصدر المعلم رزق أمرا بعدم التعرض له وجهزه بكتاب من البطريك الى ملك اتيوبيا واذا ما استهل على بك الأمر عينه ناظرا لدابر الضرب .

وعرف محمد على قدره فجعله مديرا وحاكما للاقليم الواقع وراء فرع دمياط واعتمدت عليه الحكومة في جباية الضرائب وقطع دابر اللصوص والعربان الذين اتخذوا هذا الاقليم مرتعا لهم يغيرون فيه على قوافل الحج وينهبونها ويقتلون كثيرين من الحجاج سواء القادمين أو الراحلين ويبدو أن نجاحه في ذلك كان ساحقا الى حد ان جعله محمد على كبيرا للمباشرين ولكن ابراهيم بن محمد على غضب عليه وقتله وجعل مكانه المعلم ابراهيم الجوهري الذى أصبح ذا مكانة عالية بعد وفاة أخيه جرجس (٢) هذا فى الوقت الذى كان المعلم غالى — الذى كان كاتب الألفى فى الصعيد — يقوم بمسح عموم أراضى مصر ثم تقسيمها حياضا وازيه يعزى فضل قيام النظام الادارى الذى بداه محمد على وظل معمولاً به فى الوقت الحاضر وهو — تقسيم القطر الى مديريات ولكل مديرية بندر يقيم فيه حاكما . كما أنه هو الذى أوصى بالغاء نظام الالتزام ووضع نظام الضريبة الثابتة على الأرض الزراعية بعد تقسيمها الى مراتب حسب جودتها . وقد عرف محمد على للمعلم غالى قدره اذ لم يكده يعينه كبيرا للمباشرين حتى (نزلت طبلخانة الباشا الى بيته واستمرت تضرب النوبة التركية ثلاثة أيام وكذلك الطبل الشامى وياقى الملاعب ثم يطلع المعلم الى القلعة فيخلع عليه الباشا خلع الرضا ويلبسه فروة سمور ويعود الى داره وأمامه الجاويشية والاتباع بالعصى المفضضة فيقبل عليه الاعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه والتهنئة

(١) مشاهير الأتباع فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٦ .

(٢) ينتسب الاخوان الجوهري الى قرية الجوهريّة القريبة من طنطا بجوار محلة مرحوم وقد رُجس له فيها ٥٨ فدانا وفى القاهرة شارع يسمى شارع الجوهري عند العتبة الخضراء وحارة شارع القبلة (مشاهير الأقباط ص ٢٢٧) .

له (١) ولا غرو فقد كانت كفاءة المعلم غالى لا تقف عند حد ، فقد كان جبار الذهن متوقد الذكاء واسع الحيلة فقد كان الباشا يطلب المال من المعلم جرجس فيقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمر ويفتح له أبواب التحصيل (٢) .

ورغم ما هو معروف من أن محمد على لم يرسل ضمن بعثاته الى أوروبا قبطيا واحدا (٣) لانه كان يختار طلبته من بين خريجي الأزهر ، فان ذلك لم يشغل منهم بالا ما دامت أمتهم تسير في طريق صحيح فاكتفوا بأن اشتركوا في تنظم الأحوال . والسير بها نحو الاستقرار بما عرف عنهم من كفاءة (٤) فقد عين بطرس أغا الذى كان حاكما لجرجا أمام الفرنسيين ناظرا لشونات الفلال . ثم نقل حاكما لبرديس غظهرت كفاءته أينما ذهب . كما عين فرج أغا فى دير مواس . وتكلا سيداروس فى بهجورة . وانطون أبو طاقية فى الشرقية وعبود كاتبا للخزينة وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول عنه (لولا الملامة لقلدتك الدفتردارية) (٥) وهو المنصب الذى يتولاه ابنه ابراهيم .

ولم يقتصر الاقباط على المعاونة فى الأمور الادارية بل تعدتها الى كل ما فى طاقتهم فقد اشتط محمد على فى جمع المال حين كانت الحرب الوهابية تلح فى استنزاف موارده فكتب الى المديرين فى جمع المال بأقصى سرعة . فكان نصب مديرية اسيوط ٢٥ ألف جنيه فتقدم المعلم غبريال شنودة فدفعها وحده عن اهل مديريته فقدر له محمد على هذه اليد الكريمة وخلع عليه خلة سنية (٦) كما كان معظم مهندسيه من الاقباط الذين كانوا قد عملوا مع الفرنسيين واستفادوا من خبرتهم ولم تمنعه ثقته الاولى فيهم من أن ينكل بهم اذا تبين له خطأهم بشيء .

(١) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ١٣٠ .

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٦) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٧٢ .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى ارساء قواعد المساواة على أساس وطيء والى أقصى حد (١) ولذا لم تتخرج الحكومة عن استعمال الشدة ضد قصير النظر ممن يتآمرون بالقومية الصحيحة ويمستقبل الوطن. ففدثار الرعاى بدمياط يوما وقبضوا على كاتب بديوان الثغر هو المعلم سبدهم بشاى وادعو عليه زورا انه سب الدين الاسلامى وشهد عليه امام القاضى بعض الناس بذلك ، فخيروه بين الاسلام والقتل وارسل الى محافظ الثغر فأيد الحكم ففضل المتهم الثانية فجلد وجر على وجهه من فوق سلم المحافظة الى اسفل ثم طاف به العسكر بعد أن اركبوه جاموسة (بالقلوب) فى شوارع المدينة فخاف جميع النصارى وأغلقوا منازلهم ومات المعلم سيدهم بعد خمسة أيام من شدة التعذيب . فاهتم الوالى بالأمر وأرسل مندوبين لفحص القضية ، فأعادوا التحقيق وتبين منه عدم صحة التهمة وتحيز القاضى والمحافظ فى الحكم عليه ، فعزلا من وظيفتهما ونفيا . وقد أراد محمد على أن تكون هذه الحادثة عبرة لكل من تحدثه نفسه بالعبث بالوحدة المصرية ، فأراد قتل أحدهما . ولكن توسط بعض القناصل وطلبوا تهدئة الحالة فسامحهما ولكن بعد أن اذن للمسيحيين برنع الصليب جهارا أمام جنازاتهم فتم لهم ذلك فى دمياط ثم عمت بعد ذلك فى جميع مدن القطر أيام الانبا كيرلس الرابع (٢) .

وارادت الحكومة أن تؤكد للأقباط حرية ادارتهم لأحوالهم وأملاتهم دون تدخل من الدولة فى ذلك . وقد كان هذا الحق معترفا به من قبل الا أن الأقباط لم يكونوا يتمتعون به بشكل جدى لكثرة ما تدخلت الحكومة قبل الاحتلال الفرنسى فى مصالحهم ولكثرة ما نالهم من الأذى ، فأرادت الحكومة أن تؤكد لهم كتابة وفى ذلك اطلاق لحياتهم فى أن يبنوا ما يشاءون من الكنائس الجديدة ويرمموا القديمة منها بكل حرية دون ما خرج أو تدخل أو اذن أو شبه ذلك ، فكان أن صدر قرار أن يديروا بأنفسهم وبالاشتراك مع رجال الاكليروس أموال أديرتهم وكنائسهم ومدارسهم (٣) .

واذا ما فتح السودان فى سنة ١٨٢١ احتاج الى كثير من الموظفين

(١) الجبرتى ح ٤ ص ٣٠٠ .

(٢) السنكسار ١٧ برمهات .

(٣) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ٤٧ .

للعمل في مجال الحضارة ، وكان العمل يجرى هناك في ظروف قاسية سواء من ناحية عداء الأهالي لهم و عدم توفر وسائل العيش . فلم تكن هذه الظروف بممانعة عددا من الاقباط من أن يتقدموا لشغل هذه الوظائف ولم تتردد الحكومة في استخدامهم فذهبوا الى هناك وعملوا في الادارة وحملوا العبء في شجاعة . وبذلك عادت المسيحية الى الظهور في السودان بعد أن غابت عنه قرابة خمسة قرون . وكان هذا الظهور بواسطة مصريين لا سودانيين وإذا ما استقروا هناك وأرسلوا الى البطريرك بطرس السابع يسألونه أن يرسل لهم راعيا يقوم بالخدمة الدينية لهم فريسم لهم اسقفا هو الأنبا داميانوس .

ولقد حمل الموظفون الاقباط الذين قبلوا العمل في السودان الى هذا القطر الحضارة التي أرادتها مصر ادخالها فيه ، فقد كان موظفو الحكومة المصرية نوعين عسكريين ومدنيين . أما العسكريون فمنهم المأمورين والضباط وأفراد الحامية فكان أغلبهم مترفعا عن الاختلاط بالأهالي يرهبونهم لـ لا قوه منهم من الشدة والفطرسه خصوصا وقد وكل اليهم امر جمع الضرائب . أما المدنيون وأغلبهم من الاقباط فقد اختلط الشعب بهم ولم يجد في هذا الاختلاط حرجا . كما أنهم لم يكونوا يعيشون في ثكناتهم بمعزل عن الأهالي بل سكنوا المنازل التي بنتها لهم الحكومة في الخرطوم الجديدة وأم درمان ، وأخذ الأهالي يبنون منازلهم الى جوارهم وعلى مثالهم . وأخذوا يقلدونهم في طرق معيشتهم ومعاملتهم ، فكانوا بذلك المثلين الحقيقيين لمصر المتمدينة في هذه الاقاليم فكان أثر الاقباط في حمل رسالة الحضارة لم يكن محصورا في مصر وحدها بل تعداه الى السودان وغير السودان من اقطار الشرق العربى . وان هذا الاثر ليذكرنا بما فعله المصريون في اثيوبيا أيضا ، فكثيرا ما كانت الحكومة تلجأ الى مصر في طلب الصناع المهرة لاتمام اعمال تنوى الحكومة القيام بها ، فلم تكن مصر تتردد في ارسالهم ، فكان هؤلاء الصناع كما كان اخوانهم التجار رسل الحضارة المصرية الى هذه الانحاء . وقد يعترض معترض ان الحضارة المصرية التي حملها هؤلاء الصناع والموظفون لم تكن على درجة من التقدم تتيح لها أن تؤثر في هؤلاء الناس . واني وان كنت اوافقهم على ضعف مستوى الحضارة المصرية . آنذاك الا انى اعود لاقول أنها وان لم تكن متقدمة الا أنها تعد كذلك بالقياس الى

ما كان عليه السودان وما كانت عليه اتيوبيا من التأخر النسبي . وهى لذلك ادعى لأن يقلدها هؤلاء السكان . فلو كانت على درجة كبيرة من التقدم لما حاول السكان تقليدها أو أن يقربوها . فمدنية الانجليز فى السودان حينما ذهبوا اليه كانت اكثر تقدما من مدنية المصريين ولذلك لم يحاول السودانيون تقليدهم . بل كانت مدنية المصريين اقرب الى السودانيين وادعى الى تقليدهم لها عن مدنية البريطانيين المرتفعة ولذا كان المصريون اشد أثرا من غيرهم فى كل من السودان واتيوبيا .

وامتد النفوذ المصرى الى السودان فى خلال النصف الأول من القرن الماضى ولكنه لم يذهب الى أبعد من فاشودة (١) . ولكن الحكومة كانت تؤجر الأقاليم العليا لتجار من المصريين والسودانيين ليتوموا بحرية الاتجار هناك نظير جزية سنوية بمثل هذه الطريقة عمل السيد أحمد العقاد وشريكه موسى العقاد ومحجوب البوصيلى وعبد الحميد أبو عمورى وغيرهم ، فاستخدموا العدد الهائل من الأعوان المدججين بالسلاح وأنشأوا الزرائب التى كانت بمثابة نقط عسكرية لقواتهم وفى نفس الوقت بمثابة مخازن لما يجمعونه من العاج .

وقد ساهم الاقباط فى هذا النشاط أيضا فقد عمل هناك شنودة وغطاس وبقطر ، وباسيلى ، (٢) واتخذوا من الخرز والدروع والقصدير مادة تجارتهم يبادلونها بسن الفيل وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس (٣) .

واذا كان هناك من اللوم ما يوجه الى هؤلاء التجار من أنهم سرعان ما تحولوا الى تجارة الرقيق وهى تجارة شائنة ، الا أننا لا نستطيع أن نحكم على مثل هذه الأعمال بعقلية القرن العشرين . فقد كانت هذه التجارة مشروعة فى ذلك الوقت فكان والى مصر يشجعها . وقد حاول أن يتخذ من هؤلاء العبيد مادة لجنده . وكان الأوروبيون جميعا سواء من الفرنسيين أو الانجليز أو البرتغاليين يشتغلون فى هذه التجارة ويقومون بشراء العبيد من

(١) مصر والسودان ص ٨٥ .

(٢) مصر والسودان ص ٩٥ .

(٣) الزبير باشا رجل السودان ص ٤٧ .

ساحل غانة وحوض الكونغو ليحملوهم الى امريكا الشمالية والبرازيل طيلة خمسة قرون سابقة لبداية القرن التاسع عشر ولم يكونوا يجدون في هذه التجارة **جريما ولا لثما** (١) **فيمكننا ان نقول** اذن ان هؤلاء التجار الاقباط قد ساهموا كما ساهم غيرهم في تقدم البلاد التجارى وانعاشها اقتصاديا . وكانت هذه التجارة ناجحة الى حد ان امرت الحكومة باحتكارها لنفسها بعد ذلك وكسبت منها اموالا كثيرة .

وقد ادهشت سرعة تقبل المصريين جميعا لسياسة التسامح الدينى كثيرا من الكتاب الاجانب الذين ارخوا لهذه الفترة وعزوها الى ان عامل الوطنية لدى المصريين اقوى من عامل الدين (٢) وهو عامل وان كان حقيقيا الا انه لا يعدو ان يكون احد هذه العوامل .

فقد عاش المصريون منذ أقدم الأزمنة على ضفاف وادى النيل وكونوا المجتمعات المتفرقة وعبدوا المعبودات المختلفة ، ولكنهم شعروا جميعا رغم اختلاف هذه المعبودات — بما يربطهم بعضهم من عوامل اللغة والعادات والأخلاق والاحساس — فاتحدوا وكونوا دولتين احدهما فى الشمال والاخرى فى الجنوب ، ولم يحل اختلاف ديانة شعوب هاتين الدولتين من قيام الاتحاد بينهما حتى كونوا المملكة المتحدة ، وذلك لأن عوامل الوحدة كانت اقوى من عوامل الاختلاف ، فهذا النيل الذى يربطهم ويوحد مصالحهم لو انقطع لجفت تربته واصبح المصريون جميعا لا يجدون ما يقتاتون به ، واذا ما ارتفع ماؤه أشرقت وجوههم جميعا بالبشر وامتدت أيديهم جميعا الى هذه الأرض السوداء ينشئون فيها مجارى مياههم لتصل الى حقولهم فتبعث فيها الحياة . ولو زاد هذا الفيضان ولو بضع بوصات لهددهم جميعا بالاكساح وهو حينئذ لن يغمر أرضا ويترك أخرى ولا يبعث الخراب الى ركن ليترك آخر . ولكن هذا الفيضان لا يجرى الا أشهر قليلة ، ولذا أسرع المصريون جميعا الى أرضهم يستثمرونها ، ففي شهور الربيع لن تسمع الا هذه الانات ذات الوقع الموسيقى للسواقي وهى تدور لترفع الماء من الآبار العميقة الى

(١) صحوة افريتيب ٦٥ — ٦٧ .

Egypt and Egyptian Question p. 35 — 40

جوف الأرض (١) ولذا لم تحدث فتنة واحدة منذ قيام الاتحاد الثانى بواسطة
ملك نارمر من أجل العودة الى استقلال كل جزء على حدة وقبض أتباع رع
على السلطة فخضع له أتباع آمون وهاتور وغيرهما . ولم يشعر أحدهم أن
اختلاف الديانة يؤدي الى العداوة بينهما وأتى المحتل الأجنبى ليقتضى على
استقلال الوطن فعاداه المصريون جميعا سواء كانوا من أتباع هذا المعبود أو
ذاك .

حتى اذا هب الوطن لطرد المحتل الدخيل (الهكسوس) الذى أذل
المصريين لم يقم أتباع ديانة ما بعون المحتلين ضد اخوانهم بل عاداه المصريون
على اختلاف دياناتهم من أجل خلاص الوطن . وذلك لأن القومية فى دم
المصرى أقوى من أى عامل آخر . ولا غرابة فى ذلك فمصر أول من عرفت
القومية فى العالم وكونت الوطن ذا الحدود السياسية الواضحة وأخذت تزود
عن حياض الوطن جميع الطامعين فتبعد اللوبيين أو غيرهم من قبائل البدو
القادمين من الشرق لأنها رأت هؤلاء جميعا أجانبا عنه لا ينوون به الا شرا .

واذا ما أتى الاسلام اعتنقه بعض المصريين فلم يكن ذلك سببا لعدائهم
لن بقى على مسيحيتهم أو عداة الباقين على مسيحيتهم لمن دخل فى الدين
الجديد فعاشوا اخوانا متحابين كعهدهم فى جميع ادوار حياتهم يفلحون أرضهم
متعاونين على الخير والشر فمجىء الفيضان المنخفض لم يكن نكبة على المسلم
دون القبطى ولا على القبطى دون المسلم وكذلك جميع النكبات توحد
الشعور بالخطر . وكذلك وحدة الشعور بالنعمة . وكذلك وحدة التقاليد
ووحدة العادات ووحدة الحرفة . كلها عوامل مجتمعة جعلت شعب
مصر وحدة متماسكة ، فلم ينظر المصرى الى اختلاف الدين سوى أنه مظهر
من مظاهر اختلاف الراى الأمر الطبيعى فى أبناء الوطن الواحد .

واذا كان بعض الولاة أو الحكام قد فكر فى احياء بعض مظاهر التعصب
الدينى ، فلم يكن ذلك الا لفرض دنىء هو غرض التفرقة بين أبناء الوطن كي
يستفيد هو من ذلك ، فلم يكن الا قسما يعنون كثيرا بالخضوع

(١) الحضارة المصرية ص ٣٥ — ٤٠ .

لهذه الأوامر والنواهي (١) كما لم يعن المسلمون بمراعاتها من جانب الاقباط ، ولذا لم تكن هذه الأوامر والنواهي تظهر الا لتختفى . وكان احتفاؤها في أغلب الأحيان سريعا تحت دافع الوطنية والأخوة والحب الذى يكنه المصريون جميعا لبعضهم البعض . ولهذا السبب عينه حرص المماليك والأتراك ثم الانجليز كما سنرى على بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لصالح هذا الأجنبى ورغم طول الحكم المملوكى الذى استمر قرابة ثلاثة قرون . وطول العهد التركى الذى استمر أيضا قرابة ثلاثة قرون والذى حرص الحكام أثنائها على بذور بذور العداوة بين المصريين لم يفلح هذان الحاكمان فى جعل هذه التفرقة او هذا الاختلاف ذا جذور عميقة . ولذا ظل طول هذين العهدين سطوحيا . فاذا ما جاء القرن التاسع عشر وساد التسامح لم يجد المصريون صعوبة فى العودة الى حياتهم الطبيعية التى ألفوها . وتقبل المصريون جميعا أقباطا ومسلمين هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعية التى يجب ان يعيشها المصريون جميعا فى ظلها . والتى يجب أن تسود مجتمعاتهم سواء كانت ريفية أو حضرية وما سياسة التفرقة بين عناصر الأمة الا سياسة مقصودة من الحاكم حتى وان كان مصريا لا يقصد بها الا فائدته الشخصية . ومما يزيد فى فخر المصريين بأنفسهم أنهم طوال تاريخهم — لم يحاول مصرى قط اتباع هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعية التى يجب ان يعيشها المصريون المصريون الا رعاعهم وسفلتهم الذين يريدون الصيد فى الماء العكر من أجل السرقة أو النهب ولا يزيدنا تتبع هذه السياسة فى العصور الحديثة الا ايمانا بهذه الفكرة مما سوف تظهره فى الفصول القادمة .

(١) الحضارة الإسلامية ص ٨١ .

الباب الرابع

عصر اسماعيل

يبدأ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومصر تحت حكم عباس الأول المكروه من بقية عائلته لأنه حجب العرش عن (أصحابه الشرعيين) وهى تمارس حياتها السياسية تحت قيود فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ كما كان العهد خلال العشر سنوات الماضية . وكان هذا فرمان — وان ربطها بعجلة الامبراطورية العثمانية الواهنة بخيوط ثقيلة — يمنع تركيا من التدخل فى أمورها الداخلية الا فى حالة سفر الوالى الى استنبول عند توليته لاستلام مرسوم التولية . وفيما عسدا ذلك تستطيع اذا احسنت التصرف ان تجعل علاقتها بتركيا او هى من خيوط العنكبوت .

ولكن مما يؤسف له ان افراد (العائلة المالكة) اعتمد اطماعهم الشخصية عن ان يتبينوا مصالحهم ومصالح مصر ، فقد تكررت شكاياتهم ضد عباس (المستبد) مما دعا السلطان الى التدخل فيما بينهم وهو تدخل رأى كل واحد منهم فيه مصلحته ، فرأى عباس ان يستعين بمن هو اقوى من السلطان ، فكان التدخل البريطانى هو الذى اوقف بقية افراد العائلة عند حدهم ، فكان ثمن هذا العون خط سكة حديد اسكندرية الذى وافق عباس على انشاءه بواسطة شركة بريطانية لخدمة التجارة البريطانية . فشخصية مصر الكاملة وسيادتها كادا ان يتحققا الى حد ما فى ظل فرمان سنة ١٨٤١ — لولا هذه الاطماع الشخصية لأفراد قلائل لم يستطيعوا ان يتبينوا أكثر من مواطنيهم أقدامهم .

وكانت هذه الخلافات محصورة بين افراد العائلة فلم يكن للمصريين ان يتدخلوا فيها ولا فى استطاعتهم ان يتدخلوا ، ولذا انصرف المصريون الى أعمالهم يزاولونها فى هدوء وسكينة .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى اكمال التصفية التى بدأت أيام محمد على بعد سنة ١٨٤٢ لما كان بها من منشآت تقانية وصناعية اقيمت لأجل خدمة الجيش على أساس غير اقتصادى . ولما طلق محمد على سياسته الحربية بعد صدور فرمان سنة ١٨٤١ انتهت الدواعى اليها فأخذت طريقها الى التصفية . ومهما قيل عن فرمان سنة ١٨٤١ من أنه لم يغير حالة التبعية التى كانت تدين بها مصر نحو الباب العالى ، فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه رفع قيمة مصر عما قبل الحملة الفرنسية من ولاية عادية تتمتع بجميع مساوىء الحكم التركى الفاسد الى ولاية ذات مركز خاص يستطيع صاحب الشأن فيها كما يستطيع أهلها أن يدبروا أمرهم بأنفسهم وفق ما يشتهون وان كان ذلك فى حيز محدود .

وجاء عصر سعيد فكان خاليا بعض الشيء من هذه المشاحنات التى أدت الى التدخل التركى والتى انتقصت السيادة المصرية المحدودة . ولكنه لم يكد يعتلى (العرش) حتى رأى أن يتطلع الى عون تركيا فى الحرب التى كانت قائمة ضد الروسيا وهى الحرب المعروفة بحرب القرم . وقد كانت تركيا فى هذه الحرب تقف مستندة على ذراع انجلترا وفرنسا بل على اسطولهما فى البحر الأسود . وكان من الواضح أن هاتين الدولتين لن تتخليا عن (الرجل المريض) لما يعود عليهما من ضرر فئ تكون لهذه الحرب من نتيجة اذا انتصرت الروسيا سوى تقسيم تركيا واستيلاء هذه الدولة (الروسيا) على المضائق وجزء كبير من آسيا الصغرى . ورغم المساعدات المتوالية لم تكن الجيوش التركية تلقى غير الهزيمة سواء فى الميدان الغربى (البلقان) أو الشرقى فى أرمينية . وكانت مصر ترقب هذا الصراع الذى استمر ثلاث سنوات .

وان أقل فهم فى السياسة الدولية آنذاك ليقودنا الى الاعتقاد ان انتصار الروسيا لو تم — لكان فالا حسنا لمصر . فالروسيا لم تكن طامعة فيها ، فالاستيلاء على المضائق وشبه جزيرة البلقان وشنواطى آسيا الصغرى الشمالية وجعل البحر الاسود بحيرة روسية كانت كل أمانيتها ، ومصر تتمتع بشخصية مستقلة أباحت لها عدم تقديم مساعدة لتركيا حتى سنة ١٨٥٥ وضعف جيشها البادى والمقيد بفرمان سنة ١٨٤١ . كانت كلها

عوامل تتيح لها أن تستكمل هذا الاستقلال ، ومما كانت فرنسا أو إنجلترا تسمح أيهما للأخرى باحتلال مصر . اذ أن فرنسا كانت تجدها منطقة نفوذها الطبيعي منذ أيام محمد علي . وبينما كانت إنجلترا تجدها شريانها الرئيسى نحو مستعمراتها فى الشرق الاقصى وكانت هذه المنافسة هي التى سوف تؤدى بهاتين الدولتين الى الاعتراف باستقلال مصر الضعيفة على أن تحاول كل منهما الاستفادة من هذا الضعف لصالحها . فكأن موقف مصر الطبيعي كان يجب أن يكون الى جانب روسيا . ولكن هذا الموقف قد يكون سببا فى بلاء جديد لو انتصرت تركيا وحليفاتها . ولن يكون جزاء هذا الموقف اقل من ضياع هذه الشخصية المستقلة التى تتمتع بها ، فلا اقل اذن من أن تقف موقف الحياد المشوب بالعطف على روسيا . ولكن قصر نظر سعيد هو الذى أملى عليه أن يرسل جيشا مصرية ليقف الى جانب تركيا ، وليشارك فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، فكأن جهل سعيد وقصر نظره هما اللذان دفعا به الى ارتكاب هذه حماقة التى جعلت قبود نرمان ١٨٤١ أمنا وأقوى مما كانت .

وكان عصر سعيد أيضا العصر الذهبى للقناصل ، فقد تدخلوا فى جميع نواحي الادارة المصرية من أجل مصالح رعاياها ، وكان جزء كبير من هؤلاء الرعايا (الأجانب) من أصل عثمانى ولكنهم اشتروا هذه الحميات من أجل مصالحهم الشخصية ومنافعهم التى كثيرا ما كانت مخالفة للقانون . وضعف سعيد عن مقاومة هذا التدخل وبلغ الحال بهؤلاء القناصل أن تدخلوا لحماية تجارة الرقيق (١) .

ومضت بانهاء عهد سعيد ثلاث عشرة سنة كاد فيها هذا القدر من السيادة المصرية أن يختفى . ولكن أتت ثلاث عشرة سنة أخرى لاقت فيها السيادة المصرية طريقها الى الظهور بل سمت فيها القومية المصرية الى ما يشبه الاستقلال التام لولا خيط ضئيل . فقد صدر فرمان سنة ١٨٦٤ الذى أعطى مصر حق وراثة العرش ، فقطع طريق المؤامرات وتدخل السلطان ، كما ضمت الى مصر سواكن ومصوع فى السنة الثانية بشرط عدم سريان نظام

(١) مصر والسودان ص ٩٣ .

الوراثة اليهم (١) . ولكن لم تمض سنة أخرى حتى سرى على هاتين المأموريتين ما سرى على بقية الولاية . ولسنا بصدد تعداد الفرمانات المتوالية التي اكسبت مصر حقوقا فوق حقوق . ولكن يكفى أن نذكر الفرمان الشامل في سنة ١٨٧٣ الذي جعل مصر مستقلة تماما عن الباب العالي ، لولا خيط أوهى من خيوط العنكبوت . وبفضل هذه السلسلة المتتابعة من الفرمانات استطاعت مصر أن تصل بحدودها الى خط الاسنواء ، بل أطلت على المحيط الهندي مترة من الزمان وبفضل هذه الفرمانات راسست مصر حفلات افتتاح قناة السويس بصفتها صاحبة القناة وصاحبة الدعوة ، وحضر الحفلة مندوب من السلطان ، ولم يكن يزيد عن غيره من الضيوف بل تقدمه غيره من الضيوف الذين ارتفعت منزلتهم عن منزلته . وإذا ما فتحت هرر سنة ١٨٧٢ كتب أميرها محمد بن علي بن عبد الشكور أنه يقبل طائعا مختارا التسليم هو واهل طاعته ومملكته الى الخديوية المصرية (٢) لا الى السلطان . وبفضل هذه السلسلة من الفرمانات وقعت مصر سلسلة من المعاهدات مع الدول الأجنبية من أجل مصالحها الخاصة ف وقعت معاهدة صلح مع الامبراطور يوحنا في ١٨ مارس سنة ١٨٧٦ انتهت حالة الحرب بين الجانبين الأفريقيين (٣) .

وفي شهر أغسطس وقعت معاهدة مع إنجلترا بشأن إلغاء تجارة الرقيق (٤) ، وبفضل هذه الفرمانات راسست مصر مؤتمرا دوليا عقد في القسطنطينية من أجل إلغاء الامتيازات حين استبدل بها نظام المحاكم المختلطة . وهو ان كان نظاما فاسدا الا أنه وضع حدا لتدخل القناصل ، وبدا لكل ذي عينين ان مصر سوف تأخذ مكانها تحت الشمس . ولم يكن ذلك بفضل مساعدة أحد غير جهود أبنائها . ولم يكن ذلك مما ترتاح اليه إنجلترا وفرنسا وهما الطامعتان فيها منذ بداية القرن ، ولذا لا نستغرب اذا حاولت كلتاهام انتهاز فرصة الازمة المالية وديون اسماعيل كي تعيدا قصة التدخل وكى تحرما مصر من التمتع بثمرة جهودها .

-
- (١) مصر والسودان ص ١٠٤ .
 - (٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
 - (٣) مصر السودان ص ١٤٢ .
 - (٤) مصر والسودان ص ١٠٣ .

وبفضل جهود أبنائها تمتعت مصر بنوع من التمثيل النيابى لو ترك مع الزمن لتطور وأصبح أداة من أدوات اظهار ارادة الشعب بل نجح فعلا فى أن يحد من سلطة المراقبة الثنائية وأن يحد من التدخل الأجنبى : فقد اتجهت جهود مجلس شورى النواب الى ابعاد النفوذ الأجنبى أكثر مما اتجهت الى الحد من سلطة الخديوى (١) الامر الذى لم يرتاح اليه أعداء مصر المتربصون بها فكان عزل اسماعيل .

ولم يكن عزل اسماعيل فى حد ذاته نكبة أصابت مصر ، فما كان أول والى يعزل ولا آخرهم . ولكن وجه النكبة فيه أنه تم بناء على تدخل أجنبى لطفى ترحيبا من السلطان وكان هذا التدخل هو بداية انهيار السيادة المصرية التى كادت أن تستكمل . وكأنها تأمرت على مصر الذئاب اذ اراد السلطان الضعيف أن يسترد ما حصلت عليه مصر من امتيازات سابقة .

وجاء توفيق الضعيف لا ليرد لمصر كرامتها ، بل ليمرغها فى الطين ، فقد مزق السيادة المصرية يوم شـعر بجميل انجلترا عليه ، فجعل القنصل البريطانى مستشاره المفضل فى كل أموره مهما صغرت ومزق القومية المصرية يوم أعطى الجراكسة مكان السيادة من هذه الامة ، ومزق القومية المصرية يوم ألغى مجلس الشورى وصمم على أن يحكم البلاد بالحديد والنار ، ومزق القومية المصرية يوم قابل العـرابيين فى ميدان عابدين محوطة بالبريطانيين ، ومزق القومية المصرية يوم انسحب الى قصره ليترك امر مفاوضة قواد جيشه لعمال بريطانـيا ليرضى هو بما يبرمونه وما يتركونه ، ومزق القومية المصرية يوم قبل مطالب الجيش مدغوعا بعامل الخوف لا عامل الايمان بهذه المطالب وهذه الحقوق .

وأخيرا جاءت الثورة العربية لتنبه هذا الغافل الى حقوق شعبه . وما كانت فى بادىء أمرها ثورة . بل لم تعد أن تكون مطالب جيش مستندا الى امة ليحققها له من بيده الامر . ولكن جبن الخديوى وقصر نظره هما اللذان حولتا هذه الحركة البريئة الى ثورة يقوم بها شعب ليسترد كرامته وقوميته

بعد أن أضعفها هذا الضعيف . وفنام الشعب وأعطاه المجلس النيابى الذى يستطيع أن يستند اليه فى مغالبة المتدخلين . حين قرر مسئولية الوزارة أمامه وكان يرمى فى ذلك الى تحدى سلطة بريطانيا أكثر من أى شىء آخر (١) ولكنه أبى إلا أن يعصف بهذا المجلس . وإذا ما تولت الأمر وزارة وطنية تمثل هذا الشعب المكون من جمهور الفلاحين أبى إلا أن يستعدى السلطان عليها ويطالبه بالتدخل . وقد كادت حقوق السلطان تصبح نسيا منسيا حتى اذا لم يسعفه هذا السلطان الضعيف ذهب يستعدى البريطانيين الذين وجدوا الفرصة المواتية لتحقيق أغراضهم القديمة خصوصا وقد ازدادت أهمية مصر منذ افتتحت قناة السويس للملاحة سنة ١٨٦٩ وصار الاستيلاء على هذا الطريق المائى من أغراض السياسة البريطانية (٢) فأرسلوا جيشهم وقاومه المصريون ما وسعتهم قوتهم ولكن الخيانة والفدر كانتا أعظم من هذه القوة وسقطت البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولم يكن هذا الاحتلال سوى بداية للطريق الذى سوف يقودهم الى اختراق قارة أفريقيا من الشمال الى الجنوب وكانوا قد بدأوا يرسمون الخطوط الاولى لهذه السياسة البعيدة فى سنة ١٨٦٩ حين قدموا السيد صموئيل بيكر الى اسماعيل ليكون حاكم مديرية خط الاستواء فكان نجاحه فريدا فى بذر بذور العداوة بين المصريين والسودانيين .

انصرف قبط مصر خلال الجزء الأول من هذه الفترة الى أعمالهم الخاصة يصرفونها فى هدوء وسكينة ، ومكنتهم جدهم ودأبهم على العمل من أن ينجحوا فيها ، واتجه كثيرون منهم الى التجارة فجنوا من ذلك أرباحا مكنتهم من التمتع بشىء من الثروة (٢) (بالرغم من سياسة عباس العدائية نحوهم حتى لقد فكر فى طردهم من البلاد) . ويبدو أن التصفية التى اتبعتها الحكومة ازاء المنشآت الحكومية كانت ذات أثر قاس عليهم . فقد كان كثيرون من صغارهم يعملون فى هذه المنشآت لاتقانهم القراءة والكتابة والاعمال الحسابية ، فقد كانت مدارسهم القبطية الملحقة بالكنائس تمكّنهم من هذا الاتقان ولكنهم اذا ما شعروا بالضيق من جراء هذه السياسة الجديدة عادوا الى قراهم .

-
- (١) مصر والسودان ص ١٦٢ .
(٢) Egypt and Egyptian Question p. 81
(٣) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٣٠ .

ولكنهم لم يجدوا ما يمكنهم من العيش الرغد الذي تعودوه ، فهاجر كثير منهم الى السودان وهناك شغلوا الوظائف الصغرى فى المديرىات ؛ فان المستر ستانلى يروى (حين وجه لانقاذ أمين باشا مدير مديريةىة خط الاستواء) أنه كان معه واحد وعشرون كاتباً يعملون فى هذه المديرىة كلهم من الاقباط (١) ولم يبالوا بالاحوال الصحية السيئة حين كان كثيرون من المصريين يخشون هذه الهجرة . بل أقبل كثيرون من المهاجرين يشتغلون بالتجارة مع من بقى من اخوانهم فى مصر ، وشجعهم على ذلك عاملان : استتباب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لتأسيس الحكومة الموطدة فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض للملاحة . وقد عنيت حكومة القاهرة دائماً باختيار الكفاء من الحكمداريين الذين امتازوا بالجد وحسن تصريف الأمور والاستماع لشكايات الاهالى واشتهر أكثرهم بالأمانة والاستقامة ولم تضطر حكومة القاهرة الى استدعاء أحد منهم (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وهم أربعة سوى جركس لطيف الذى احتكر التجارة فى النيل الأبيض لحسابه ولنفعه الخاص (٢) وكان أكبر مايفريهم هناك تجارة العاج والصمغ والسنامكى ومنتجات سنار فقد ألغت الحكومة احتكارها للصمغ ، فكان ذلك مشجعاً لهم أن يأخذوا بنصيب من هذه الموارد (٣) وبلغ عدد الاقباط وثروتهم فى السودان مبلغاً أن أصبح لهم حتى نهاية الحكم المصرى ثلاث كنائس فى الخرطوم وأخرى فى الأبيض وثالثة فى دنقلة (٤) ولكن لم تلبث كميات العاج أن تدهورت وقل الربح من تجارته ، فأتجهوا الى تجارة الرقيق (٥) وهى تجارة رائجة آنذاك . وان كان يشوبها كثير من المخاطر . ونمكن بعضهم من أن يكون هذه الزرائب والمحطات المسلحة حتى لقد اغتصبوا السلطة تدريجياً من حكومة الخرطوم (٦) بل بلغ من نفوذ بعضهم أن كون شتودة وخورشيد أغا وديبونو دكتاتورىة ثلاثىة بسطت سلطاتها حول غندكرو فى بحر الجبل (٧) .

in the Darkest Africa p. 55

(١)

(٢) مصر والسودان ٧٣ .

(٣) مصر والسودان ٨٤ .

(٤) الدليل العام للأقباط ص ١٩٦ . (٥) مصر والسودان ص ٢٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٦٦ . (٧) نفس المصدر ص ٩٥ .

وقد كان ضعف عباس وانصرافه عن الأخذ بناسر شعبه وانصرافه عن تثبيت القومية المصرية وكذلك كرهه للمسيحيين ومحاولة اجلائهم عن البلاد ان حاول الأجانب أن يتسللوا الى الاقباط ليتخذوا منهم أداة لتنفيذ اغراضهم

ولكن هذا لم يكن ليفريهم عن قوميتهم ، فالقوسبة من القبطى كالروح من الجسد . ولذا كان اتجاههم نحو الكاثوليكية والبروتستانتية دينيا بحثا غير مشوب بالسياسة، فقد أبوا الا أن يظلوا محتفظين بقوميتهم فأطلقوا على أنفسهم لفظ (أقباط) وهو الاسم التقليدى الذى يميز منسبحى مصر عى مسيحيى العالم أجمع . بل لقد حاولت الكنيسة الروسية أن تلج هذا السبيل حين أوفد القبط الى البابا بطرس السابع المعروف بالجاولى أحد أفراد أسرته المالكة ليعرض عليه وضع الكنيسة القبطية تحت حمايته وكانت روسيا قد حصلت على حماية الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية فى معاهدة كتشك كيناوجى سنة ١٧٧١ فرفض العرض بلباقة قائلا أنه يفضل أن يكون حامى الكنيسة هو راعيها **الحقيقى الملك الذى لا يموت** (١) وهى كلمات لو ترجمت الى اللغة المدنية لكانت (لا يا سيدى . لن نكون أبدا خائنين لقوميتنا) .

والحقيقة ان هذا الاتجاه من الدول والكنائس الأجنبية لم يحدث الا لأن الخراف كانت ضالة لا تجد الرعاية الدينية الصالحة . ويكاد كل واحد من أفراد الرعية ينصرف فقط الى مصلحته الخاصة دون قائد . ولكن شاء الله لنا رشدا . فوجدنا القائد الحازم والراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ذلك هو الأنبا كيرلس الرابع الذى استطاع أن يبرهن خلال قيادته القصيرة (١٨٥٣ — ١٨٦٢) ان رجل الدين اذا كانت له الشخصية القومية والماضى الناصع البياض والمستقبل المنزه عن الأغراض الشخصية يستطيع أن يؤدي لأمتة أجل الخدمات فى ميادين كثيرة متفرقة ، قد يتصل بعضها بالدين وقد لا يرتبط بعضها بالدين بسبب . فقد أتيح له أن يغزو ميادين الاصلاح فى

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٧ .

أكثر من جهة (١) فلا عجب أن أطلق عليه المؤرخون ذلك اللقب الذى أصبح علما وهو (أبو الاصلاح) وما زال الاقباط حتى العصر الحالى يستعيدوه كعصر المعجزات . فقد أثر عنه التقوى منذ نعومة اظفاره فهجر أهله وعزف عن المدينة بمباهجها وولى وجهه شطر الصحراء يقطع فيافيها ويصعد كتبائها حتى يصل الى دير القديس أنطونيوس لينخرط فى عداد الرهبان ولم يتعد الثانية والعشرين من عمره .

وقد عرف منذ شبابه قسوة الشهوة نعرف كيف يتغلب عليها بالابتعاد عما يثيرها ، فعرف عنه كراهيته للنساء كى لا يثرن فيه ما كمن من شهواته ، وكان يقول (تغلب على الشهوة قبل أن تتمكن منك لأنها ان غلبتك لا يمكنك الا أن تقع فى شر الخطية) فكان اذا أحس ببوادرها عمل على انتهاك جسده ليريح نفسه ، فقد حدثوا عنه انه نزل ليلا الى الناحية الغربية من المدرسة القبطية وأخذ يدير ساقيتها بيده وينقل المياه بنفسه ليفسل دورات المياه فيها . فأحس به الحارس فأسرع اليه طالبا أن يقوم عنه بهذا العمل . فأبى قائلا (انك لست مسئولاً عني . ولا تقل لأحد ما دمت حيا .

(١) دير القديس أنطونيوس كما مر بنا أحد أديرة الاقباط الارثوذكس فى مصر وهو فى سفح جبل القلالى بصحراء العرب وتبلغ مساحته ١٨ فدانا ويعتبر أكبر الاديرة ويرجع عهد تجديده الى الملك المؤيد (١١١٢ - ١١١٤) وبه أيقونة قديمة تمثل السيد المسيح تحيط به الملائكة . وبه أربع كنائس ، أحدثها واحدة بناها الانبا كيرلس الرابع . وبه مكتبة بها ١٥٦٣ كتابا منها ١٤٣٨ مخطوطة . وبه عين ماء كبيرة . ويصل اليه المسافر عن الطريقين ، أحدهما من بلدة العلاقة المقابلة لبوش ، والآخر عن طريق البحر الأحمر الى نقطة فنار الزعفران ، ثم الى الدير . ويقطع كل من الطريقين فى ثلاثة أيام بالجمال وثمان ساعات بالسيارة . وبه مرصد صغير لمصلحة الطبيعيات وفى الجهة الشرقية من الدير جبل عال به مغارة القديس أنطونيوس التى عاش فيها أربعين سنة . وكان له الى ما قبل صدور قانون الاصلاح الزراعى وتطبيقه على الأوقاف الخيرية سنة ١٩٥٧ - ١٠٧٨ فدانا عدا بعض العمارات التى تدر ما يقرب من خمسمائة جنيها شهريا تقريبا ويقوم به حاليا ثلاثة وستون راهبا وإدارته فى بوش حيث معظم أطيانه . (الوسائل العملية) لحبيب جرجس .

انى خفت ان تغلبنى الميول الفاسدة فأردت ان أتعب جسدى لأريح
روحى) .

وكأنما كان يعرف ان الأقدار تهيئه لقيادة شعبه ، فما انخرط ضمن
رهبان الدير حتى أقبل على مكتبة الدير يقرأها كتابا مستوعبا ما يقرأ في
تمعن وروية ، بل شرع ييث في زملائه الرهبان حب القراءة والاطلاع . ولم
يكتف بذلك بل كان يجمعهم في أوقات الفراغ من العبادة ليعلمهم ويثقفهم بما
حصل عليه من قراءاته العديدة فكأنما كان في نفسه كليسة أكليريكية تثقف
الرهبان بما يؤهلهم لرعاية شعبهم وينبهم الى ما يجب ان يعملوه لا من أجل
انفسهم ولكن من أجل الشعب الذى ينتظر منهم الرعاية الحقيقية .

وما كاد يرقى الى منصب (مطران بلا أبرشية) في ابريل سنة ١٨٥٣
حتى سارع الى انشاء مدرسة كبيرة في الدرب الواسع بجوار الكنيسة
الكبرى ونى ذلك يقول الايغومانوس فيلتاعوس فيما كتبه الى على باشا
مبارك . (وفي سنة ١٥٦٩ شهداء الموافقة لسنة ١٨٥٣) شرع في عمارة كبرى
تجاه الكنيسة من الجهة البحرية ، فأخذ المنازل اللازمة لاستيفاء المدرسة
والقلاية والكنيسة بعضها استبدالا بآماكن أخرى والبعض اشتراه بالثمن
حتى حاز المنازل التى كانت مجاورة للقلاية والكنيسة المقابلة لها من مدخل
العطفة المذكورة الى انتهائها . وفي أثناء عمارة المدرسة سد الطريق الذى
كان موصلا الى حوش القطرى اذ لم يبق في العطفة سوى أملاك الوقف وتم
عمارة المدرسة وبذل نظامها الأول وحوله الى الوضع الذى هو عليه الآن .
وجلب اليها المعلمين وأباح لأبناء الامة جميعا من المسيحيين والمسلمين
والاسرائيليين ادخال ابنائهم ليتعلموا ما يريدون من العلوم العربية واللغات
المعتبرة والآداب مجانا وكان أول افتتاحها سنة ١٥٧١ سنة « ١٨٥٥ » (١)
وعين للصرف عليها ايراد جملة أماكن من وقف الدار البطريركية ولم تزل
للآن تصرف في شئونها مع باقى المكاتب التى افتتحها في القاهرة . وقد
نجحت هذه المدرسة منذ أوائلها وشاهد نجاحها مؤسسها وكثير من طلبتها
الأول مشرفون الآن بالرتب والخدم الاميرية . هذا وقد صير موقع العطفة

(١) التعليم في مصر لامين باشا سامى ص ١٦ .

المذكورة دائرة واحدة تشتمل على الكنيسة . والبطريركية والمدرسة وجعل على هذه الدائرة بابا كبيرا من الجهة الغربية وهو الباقي الآن بحالته بالدرب الواسع (١) .

وكان اذا ما زاره أحد ذو شأن صحبه الى المدرسة لزيارتها وسأله عما يراه من أوجه النقص فيها فيسارع باصلاحه . كما كان كثيرا ما يدخل الفصول ويجلس مع التلاميذ وينصت الى ما يقوله المدرسون . حتى اذا انتهى الدرس التفت الى التلاميذ قائلا : « لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن أعرفها من قبل » (٢) فكان بذلك يضرب المثل لغيره ان طلب العلم لا ينتهى عند الحصول على المنصب بل يجب على الفرد أن يثقف نفسه ما دام حيا .

ولما رأى ان بعض الطلبة يقيمون في جهات بعيدة . اشفق عليهم وأنشأ لهم مدرسة وكنيسة بحارة السقاين وكان يتفقد حالتها مرة كل أسبوعين . وكان للغتين الايطالية والانجليزية مكان ممتاز في خطة الدراسة بالمدرستين ولذلك عين كثير من خريجي هاتين المدرستين في المصارف المالية وعند التجار لمعرفة اللغة الايطالية واستأذن البطريرك من سعيد باشا في ادخال تلاميذ المدارس القبطية في مدرسة الطب وغيرها من المدارس (٣) الأميرية وهو ما نسميه في الوقت الحاضر اعتراف الوزارة بشهادتها .

ولعل أكثر ما يكتب لهذا الرجل بأسطر من ذهب أنه عرف ان النساء نصف الأمة . وهن القوامات على تربية أبنائهن . ولا فلاح - لامة نساؤها جاهلات . فأسرع بإنشاء أول مدرسة للبنات في مصر (١) في الوقت الذي لم تكن هناك مدرسة أخرى لهن لا في مصر ولا في تركيا بل الشرق العربي كله . فكانه بذلك سبق اسماعيل كـمـا سبق قاسم أمين الى الدعوة الى تعليم المرأة وتحريرها كي تأخذ مكانها في المجتمع المصري كشريكة للرجل وعلى قدم المساواة معه . فكان بذلك رائد النهضة النسائية . ولعل هذه — لو كانت

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٣١ .

(٢) نوابغ الاقباط مشاهيرهم في القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) تاريخ التعليم في مصر ص ٨٣٥ .

(٤) Ceorci Sobhi, Education in Egypt, Balletindela Sr. A. C. (٤)

IX. p - 117.

وحدها — لدليل على القومية الصحيحة التى تبغى قياده صحيحة . لا نبريجا فارغا يرمى الى الصيت الزائف . وكما قال أحد معاصرينا (كان الوحيد الذى يبنى وغيره يهدمون) وبلغ عدد المدارس التى انشأها كيرلس الرابع ست مدارس (١) وفتحها لجميع أبناء الأمة فى الوقت الذى كانت فيه سياسة الحكومة متجهة الى اكمال سياسة التصفية واغلاق ما بقى من مدارسها .

وكأنه عرف أيضا ما لموقع مصر من الأهمية كنقطة ارتكاز العالم أجمع . وما على أهلها من واجب جمع الشرق والغرب ، فحضر على تعليم اللغات الأجنبية وكان أكثر اهتمامه موجهها الى اللغتين الإيطالية والانجليزية ، أما الأولى فكانت لغة التجارة فى ذلك الوقت ، أما الثانية فكانت لغة أجنبية أخرى لموازنتها كى لا تكون هناك أفضلية للغة على أخرى . وحضر على احياء اللغة القبطية وجعل فى المدرسة فصولا لتعليمها كما اهتم بأمر الكتب القبطية ونشرها . فكان بذلك منبهًا للمصريين الى لغتهم القومية الاصلية (٢) .

ولم تكن هناك وسيلة لهذا النشاط الثقافى سوى الطباعة فاهتم

(١) مازالت ثلاث من هذه المدارس باقية تعمل منذ انشائها حتى الآن وقد اكملت عام ١٩٦٤ عامها العاشر بعد المائة فتكون بذلك أقدم مدارس مصر القبطية .

(٢) واللغة القبطية هى اللغة الديموطيقية بعد ان كتبت أصواتها بحروف يونانية لتبسيط قواعد كتابتها . وكان ذلك فى القرن الثانى الميلادى . وسميت بالقبطية لأن الاقباط أو المصريين تمسكوا بها كلغة قومية أولا وكمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى ثانيا . وهى لا تمت الى المسيحية بصلة . فأولى بنا نسميها باسمها الصحيح وهو اللغة المصرية . ولها أربع لهجات . الصعيدية وهى لهجة سكان الصعيد الأعلى . والفيومية . وهى لهجة سكان مديرتى الفيوم وبنى سويف والمنفية أو البشمورية . وهى لهجة سكان مديرية الجيزة وجنوب الوجه البحرى . والبحيرية ، وهى لهجة الوجه البحرى والأخيرة المستعملة حاليا فى الكنائس . وقد ظلت هذه اللغة لغة التخاطب والكتابة بين المصريين حتى القرن السابع الميلادى . حين جعلت العربية لغة رسمية لمصر أيام عبد الملك بن مروان . ولكن اللغة المصرية ظلت مع ذلك حية بين المصريين وان أخذت فى الضعف . وتتغلب عليها العربية شيئا فشيئا حتى بدأ للكتاب القبط فى القرن الثالث عشر أن لابد لهم أن يؤلفوا بالعربية . كى تجد كتبهم راجا . وكان أول من فعل ذلك صفى الدين بن العسال .

بإنشاء مطبعة عربية خاصة للدار البطركية . فحانت أولى المطابع العربية في مصر . اذا استثنينا المطبعة الأميرية . واستصدر من سعيد أمرا بقبول أربعة من الاقباط للتمرن على العمل في المطبعة الأميرية .

ومن طريف ما يروى أنه لما وصلت المطبعة الى الاسكندرية — وكان يقيم آنئذ في الدير أمر باستقبال أدواتها من مدخل الدرب الواسع بموكب يسير فيه الأكليروس بملابسهم الرسمية وقد أعرب البطاركة عن سروره بوصول المطبعة . بقوله : « لو كنت حاضرا لرقصت أمامها . كما رقص داود النبي أمام تابوت الرب » .

وساعت العلاقات بين مصر واثيوبيا بسبب اختلافهما على الحدود . فسكان المنطقة التي تصل بين اثيوبيا والسودان رعاة لا يعترفون بالحدود السياسية المصطنعة ولم تستطع كل من الحكومتين المصرية او الاثيوبية أن توقف نشاط هجراتها المستمرة بين المنطقتين لانهم ما زالوا يسعون نحو الكلا أينما كان . فأدى ذلك الى اضطراب العلاقات بين الدولتين . هذا الى نشاط عصابات الشفقا وعلى رأسهم الرئيس كاسا الذي أصبح فيما بعد تيودوروس الثاني . وفرضهم الاتاوات على الاموال ووصل نفوذهم الى القلايات ومديرية فازوغلي الداخلة في حدود السودان .

وكانت انجلترا تسعى من جانبها الى زيادة الجفاء بين الدولتين . بسبب سياسة سعيد الفرنسية . وسيره في اجراءات حفر قناة السويس رغم معارضة انجلترا ورغم تدخلها لدى السلطان أكثر من مرة من أجل ذلك . وكان مما يتفق ومصلحتها أن يشغل سعيد في حرب توقف حفر القناة . لأنها كانت تخشى سيطرة فرنسا عليها فقد أخذت الأحوال تضطرب في الهند وظهرت أهمية مصر كطريق للمواصلات السريعة بين انجلترا وممتلكاتها في الشرق الأقصى (١) فعزم سعيد على أن يرسل حملة تؤدب قبائل الحدود وتعيد الى المنطقة هدوءها . ولكن الباب العالي لم يلبث أن أرسل اليه يثنيه عن عزمه

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

لأنه لم يصدر من جانب الاتيوبيين ما يستدعى اتخاذ هذا الاجراء (١) فلم يجد سعيد بدا من اللجوء الى السياسة فالتجأ الى الأنبا كيرلس الذى يتيح له مركزه كبطريرك الاسكندرية فى النوبة واتيوبيا والخمس مدن الغربية ان يتدخل فى الامر . فلم يتردد الانبا كيرلس فى أن يسافر الى اتيوبيا من أجل ازالة سوء التفاهم رغم ما عرف عن وعورة الطريق . وأمر سعيد فجهزت للبطريرك ولمن معه باخرة نيلية وحمله الهدايا النفيسة وخرج من القاهرة فى الرابع من سبتمبر سنة ١٨٥٦ (٣٠ مسرى سنة ١٥٧٢) وأمر سعيد أن يستقبل الركب استقبالا رسميا على طول البلاد التى يمر بها فكانت المدافع تطلق اجلالا وتعظيما وأمر أن يرسل الى الباخرة يوميا كل ما يطلبه ركبها من مؤونة .

وكانت سنة ١٨٥٦ السنة الثانية من حكم الامبراطور تيودوروس الثانى الذى عرف بعدائه للانجليز فما ان علم الامبراطور بمقدمه حتى سارع لمقابلته فى موكب حافل على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود الحبشية لأنه وجد فى هذه الزيارة فرصة طيبة تمكنه من توطيد مركزه الى درجة سوف يقضى بها على أعدائه . القضاء الاخير كما يقضى على كل محاولة تبذل من أجل الثورة عليه او اقصائه عن العرش . رغم تتويج الأنبا سلامة له فى فبراير سنة ١٨٥٦ .

ولكن صادف غياب البطريرك فى اتيوبيا زيارة سعيد باشا للسودان (٢) وهى الزيارة المشهورة التى اعلن فيها سعيد مراسيمه الاربعة باصلاح الأحوال هناك . قد وصل اليه مصطحبا جيشه على عادته . فانتهاز الدساسون الفرصة فأوعزوا الى الامبراطور بأن زيارة البطريرك ليست الا ذرا للرماد فى العيون كى يتقدم سعيد باشا بجيشه الى اتيوبيا .

فقد كانت فرنسا ترى فى تتويج البطريرك للامبراطور القضاء الاخير على محاولتها التدخل من أجل استبداله اذ أنها لم تكن قد اعترفت به وتؤمل تغلب انصار رجلها الرأس على عليه فقد أرسل نابليون الثالث بعثة رسمية من

(١) رسالة من الصدر الاعظم الى سعيد باشا فى ٢٢ مايو سنة ١٨٥٩ .
(٢) مصر والسودان ص ٨٤ .

أجل الاعتراف بهذا الأخير امبراطورا لقاء منح فرنسا امتيازات في بلاد اتيوبيا . فلم تكد تصل الى مصوع لتخترق الهضبة الى العاصمة حتى كان كاسا قد اودى معه بأحلام فرنسا في اتيوبيا (١) وجلس على العرش باسم تيودوروس . وكان وصول البطريرك الى اتيوبيا وقت زيارة سعيد باشا للسودان أكبر دليل على اتفاهه معه خصوصا وقد صور له أنه يحمل برنسا مسموما اذا لبسه الامبراطور سرى السم في جسده فيموت .

فخدع الامبراطور بهذه الأقوال وصمم على قتل البطريرك ، الا أن والدته تدخلت وأمرت أن يجرد البطريرك من ملابسه ويلبس هذا البرنس المسموم فوضع البطريرك في خيمة منفردا بعد أن لبس هذا البرنس وظل أربعة أيام تحمل في أثائها كثيرا من الاهانات . وأرسل في أثائها رسولا الى سعيد يرجوه سحب الجنود المصرية من الحدود الايوبية . فلم تلبث براءة البطريرك أن ظهرت وتأكدت هذه البراءة عندما سمع الامبراطور بانسحاب الجيش المصرى . فتقدم الامبراطور اليه رافعا حجرا كبيرا على رأسه ثم انحنى أمامه وقبل قدمه فقبل البطريرك رأسه وسامحه .

ونجح البطريرك في مهمته وعاد الى وطنه مثقلا بالهدايا مصطحيا وفدا اتيوبيا يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين موقعا عليها من الامبراطور وما ان جاءت الاخبار بوصوله من الخرطوم حتى أمر سعيد باستقباله رسميا . واذا ما وصل الى القاهرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ بعد ان غاب سنة حتى استقبله الشعب والحكومة في موكب دينى سار فيه القسس والشمامسة متشحين بملابسهم المذهبة رافعين الصلبان من شاطئ النيل حتى حارة السقاين ، ومنذ هذا الوقت أصبح للأقباط أن يجهروا بشعائهم الدينية ومواكبهم في الشوارع بعد أن كان ذلك محرما عليهم . فكأنه بذلك وضع الحجر الأخير في بناء سياسة المساواة التامة بين المصريين جميعا وهى الركن الركين في

(١) المقتطف يوليو سنة ١٩٥٢ .

القومية المصرية . كما أنزل الوفد الاتيوي في دار الضيافة ولم يلبث سعيد أن استقبله وتقبل ما معه من الهدايا ورد عليها ردا جميلا .

ومن العجيب أن البابا حينما رأى أن الاقباط الذين دخلوا في الكاثوليكية لم يحاولوا استغلال هذا التحول من الناحية السياسية أراد أن يتجه الى البطريرك مغريا اياه بحماية البابا لأقباط مصر تحت ستار اتحاد الكيستين ، فأرسل اليه رسولا يصحبه الخواجا حنا مسرة وكان وقتئذ جالسا أمام عمارة المدرسة بملايسه العادية . فما أن كاشفاه بالأمر حتى استهوله ولكنه ملك أعصابه وأمر لهما بالقهوة . وإذا ما شرباها . أمسك بالانجيل يقلبه بين يديه منشغلا عن ضيفيه فاذا سألاه عن سبب انشغاله قال لهما ان العمارة قد استنفدت كل ما كان لديه من مال . وانه طلب من أبناء الطائفة مالا فلم يستغفوه ففكر في بيع صكوك الغفران كما فعل بابا روما . وها هو يقلب صفحات الانجيل لعله يجد في ذلك سندا يسوغ له ذلك . وطال بحثه ولكنه لم يجد هذا المسوغ ولذا فهو يرجوهما أن يدلاه على ذلك . فكان ذلك نهاية النقاش (١) .

ولم تكن محاولة اتحاد الكيستين الشرقية والغربية هذه بأول محاولة من نوعها فقد سبقتها أكثر من ثلاثين محاولة . ولكن مما يؤسف له ان هذه المحاولات لم تقصد لذاتها بل كانت دائما تخفى وراءها أغراضا سياسية . فاذا ما دنت هذه الأغراض الحقيقية بالزوال . ضرفت النية عن مجهودات الاتحاد . فالدفاع عن الدولة كان الغرض الحقيقي الذي أثرت من أجله محاولات الاتحاد بين سنتي ١٠٥٥ ، ١٠٧١ حينما أراد الإمبراطور قسطنطين التاسع أن يتخذ من البابا ونسيلة للدفاع عن بلده ضد غزوات النورمانديين .

وفيما بين سنتي ١٠٧٣ ، ١٠٩٩ كان ميشيل السابع والكسيس كومنينوس يبغيان الدفاع عن دولتهما ضد الاتراك السلاجقة .

وفي القرن الثالث عشر بذل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية محاولات

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٦ .

الاتحاد مرة أخرى بنية القضاء على الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية .
وفي سنة ١٢٦١ عمل ميشيل باليوجوس على استعمال هذا السلاح
ضد شارل انجو .

وكانت مجهودات القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشتت وتتراخي.
تبعاً لهجوم الاتراك العثمانيين .

وعندما اشتد هجوم محمد الثاني دعا جون الثامن الى عقد مؤتمر في
فلورنسا سنة ١٤٤١ لغرض اتحاد الكنيستين . وقد اشترك في هذا المؤتمر
مندوب مصر هو الأب أندراوس رئيس دير القديس أنطونيوس وقد قبل
المفاوضون الشرقيون أن يعترفوا بسلطة البابا مقابل أن يدعو هذا الأخير ملوك
أوروبا الى حملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر التوتوع في يد الاتراك .
ولكن قرارات المؤتمر لم تكن عملية ولم تؤد الى نتيجة فقد وعد البابا بما لم
يستطيع أن يفعله فلم تحقق المعونة الاووبية للدولة الرومانية الا جيشاً هزلاً
لقى حتفه عند أول لقاء مع الاتراك (١) ولو خلصت النيات يوماً واجتمع
الساعون للاتحاد اتحاداً دينياً بحتاً وتنزهت نياتهم عن الاغراض الذاتية
لتوصلوا سريعاً الى الاتفاق لأن نقط الخلاف سطحية بحتة .

ولم يقف الانبا كيرلس عند حد بناء الكنيسة او المدارس او المطبعة ، بل
امتدت يده الى الاديرة فوضع للرهبان أنظمة صارمة لا يخلون بها ،
فحرم على الرهبان الخروج من الاديرة والطواف بالقرى لجمع المال . ولم
يتردد عن اظهار حزمه عند كل مخالفة حتى اطلق عليه الرهبان اسم
(أبو نبوت) هذا الى اهتمامه أيضاً بمكتبات الاديرة فعين لكل منها اميناً
وجتم عليه أن يمسك سجلاً بمحتوياتها كما جعل اهتمامه باللغة القبطية عملياً
فألف لجنة من عريان جرجس مفتاح والقس توكلا والمعلم قزمان وبرسوم
ابراهيم الراهب لتضع لها كتباً لتدريسها وأمر بإدخالها في منهج المدارس
القبطية (٢) .

(١) Lembridgs Gnedieval Hvrtry Vol. II.

(٢) الدليل العام للأقباط والمسيحيين في الامة ص ١٨١ .

ومات الانبا كيرلس الرابع في ظروف غامضة في ٢٣ طوبة سنة ١٥٧٧. الموافق الاحد والثلاثين من يناير سنة ١٨٦٢ ولم يتسن للأقباط أن ينتخبوا بطريركا جديدا خلال مدة قصيرة فاختر الانبا مرفس مطران البحيرة والاسكندرية قائما بطريركيا . واراد سعيد أن يتدخل في انتخاب البطريك ليصير ذلك تقليدا تتدخل الحكومة بمقتضاه في اختيار كل من يعتلى هذا المنصب الرفيع .

وما أن شاع الخبر حتى وقف الاقباط كلهم معارضين هذا الامر الذى سوف :

١ — يسلبهم حق انتخاب البطريك بملء حريتهم الامر الذى جروا عليه منذ القرن الخامس .

ب — يخالف تقاليدهم في انتخاب البطريك من طائفة الرهبان .
ج — يخالف قوانينهم الصريحة في عدم انتقال أسقف الى منصب آخر مهما كان رفيعا (١) ووقف المسيحيون في وجهه واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا

(١) ايما أسقف ترك كرسيه وعمله وابروشيته وما يعنيه من تدبير شعبه ومضى الى غير بلده ولو كان محتاجا مضطرا أو مضرورا فلينف . ويلق من درجته) .

المادة ١٣ من قوانين الرسل .

ب — (أمرنا ان لا يتعدى الاسقف من نفسه ولا القس ولا الشماس أن ينتقل من موضعه الذى سيم عليه ورسمه باسمه . فمن خالف لما رسمناه وتجاوز من موضع الى موضع وجبنا عن رايه ويعود الى موضعه راجعا . ولا يتجرا على مقاومة الكنيسة والتعدى على سنتها وحرمانا . فانه لا بأس من سوء العاقبة من الله . وقد جعلناه تحت السنودس المقدس . وحرمة وسيأتى عليه سخط الله عاجلا) القرار الخامس عشر من قرارات مجمع نيقية سنة ٣٣٥ م .
ج — (لا يجوز لأحد من الاساقفة أن ينتقل من ابرشيته الى أخرى) .

د — (السيف أو النار أو الرمي الى الاسود أو النفى أو السبى لا يغلبنى فليست أدخل تحت مالا يجب ولا أدخل تحت حرمة . الذى كتبته وبدأت به ان لا يصير أسقف بطريركا) .

(قرار الانبا ميخائيل بطريك الاسكندرية السادس والاربعين . تاريخ البطاركة ج ١) .

بحرمان الاسقف الذى يتطلع الى منصب البطيركية أو يسعى اليه (١) ولما مات البطيريك ديمتريوس سنة ١٨٧٠ أراد اسماعيل باشا أن يعيد الكرة وبنجح فيها فشل فيه سابقه فاختر الانبا مرقس مرة أخرى قائمقاما بطيريكيا والبس اسماعيل المحاولة الثانية ثوب القانون . وأوعز الى وهبة بك رزق باشكاتب ديوان المالية أن يجمع من الاقباط تركيزة بذلك ونجح وهبة بك فى التأثير على بعض الناس الذين كانوا يخافون نوة اسماعيل . وكاد الأمر أن يتم وفق ما يشتهى . ولكن الاقباط وقفوا هذه المرة أيضا كما وقفوا فى المرة الاولى واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا بحرمان كل من يتولى المنصب من الاساقفة (٢) .

واحتاجت مشروعات اسماعيل الى عدد كبير من الموظفين ليشتغلوا الوظائف فى الجهاز الحكومى الواسع الذى أنشئ فى مصر فاشتغل فى هذه الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . وكانت بعض الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . حتى رأينا عزمى باشا يشغل وظيفة رئيس الديوان الخديوى ورجس بك الفيشاوى يشغل سكرتيرته .

كما شهد السودان خلال هذه الفترة نشاطا ليس أقل مما شهدته مصر . فان الجهود التى بذلت فى السودان خلال هذه الفترة (١٨٦٣ — ١٨٧٨) جعلتها من أهم الادوار فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر (٢) واستوعبت هذه الوظائف كثيرين من الاقباط الذين بلغوا فيها مبلغا كبيرا من الرقى .

-
- (١) كل من يطلب رتبة البطيركية من الاساقفة أو المطارنة . أو أصحاب الكراسى أو يسعى فيها أو رضى بها . أو أحد سعى له فى شأن يطلبوه لها . كاهن أو رئيس كهنة أو علمانى يكون محروما .
- قرار المجمع المقدس للكنيسة القبطية فى ١٥٨٥ ش .
- (٢) قد نحقق ان المنتخب للبطيركية الا يكون الا بكرا . وان كان له بعض مراتب المذبح لا يكون أكثر من كاهن . وان بطاركتنا المائة والحادى عشر ليس منهم من كان أسقفا على ابروشية وتركها وان القانون منع انتقال الأسقف من كرسية) .
- (٣) مصر والسودان ص ٩٨ .

وكان السودان يتبع ادارة خاصة فى القاهرة حملت اسم (ادارة السودان) عين لها ابراهيم روفائيل الطوخى رئيسا فى سنة ١٨٧٣ وظل بها حتى سنة ١٨٨٢ حين منيت مصر بالاحتلال البريطانى ولم يتركها حتى عمها الاضطراب فلم تمض بضعة أشهر حتى استدعى اليها مرة ثانية ليبقى بها الى سنة ١٨٨٤ واذا ما انشئت المحاكم الاهلية عين قاضيا بمحكمة الاستئناف الاهلية وله فوق ذلك مؤلفات دينية عديدة .

وعلى شاكلة ابراهيم الطوخى رأينا كثيرين يتولون مناصب هى موضع الحسد من كثيرين كما فعل ميخائيل بك شاروبيم الذى كان سكرتيرا خاصا لاسماعيل باشا صدقى حتى سنة ١٨٧٦ حين نقل وكيلا لمصلحة الجمارك ثم مديرا لجمرك دمياط والى نسيم بك شحاتة كبير كتاب مصلحة السمك الحديدية يعزى فضل تنظيم أعمالها الكتابية والحسابية على قواعد علمية عالية . واليه أيضا يعزى فضل انشاء نظام ادارى دقيق للترقية يقضى على كل اثر للمحسوبية ويجعل الترقية على اساس الكفاءة ليس غير . فكان ذلك موضع اعجاب الوزير الذى اثنى عليه لدى اسماعيل وطلب له الرتبة الثانية فأنعم عليه بها . ونقل الى ادارة الخزانة العامة بوزارة المالية (١) .

ووصل بعض الاقباط الى مناصب مديرى المديریات وهو منصب يعتبر نيابة عن الخديوى ومن أمثال هؤلاء جرجس بك وصفى الذى كان مديرا للمنوفية وعوض بك سرور الذى كان مدير القليوبية (٢) .

وقد ساهم الاقباط فى النشاط الكبير الذى شمل نواحي الزراعة والصناعة . ولم تكن هذه المساهمة يسيرة بل كبيرة الاثر حتى اقتنى كثير منهم ثروات يحسدون عليها وقد شهد كثير من السياح الأجانب الذين زاروا

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٤ ص ٧٥ .
(٢) محاضر المؤتمر المصرى فى القاهرة سنة ١٩١١ .

مصر في السنة الأولى من الاحتلال البريطاني ثراء كثير من الإقباط في أسيوط وقالوا ان هذا الثراء يبدو في عمائمهم البيضاء النظيفة وملابسهم الغالية وسلوكهم الراقى وتعبيرهم المؤدب مما أعطاهم مكانا اجتماعيا مرموقا (١) كما شهدنا كثيرين من الأعيان الذين تولوا مكان الزعامة في قراهم أمثال بشارة عبيد بقنا ومقار تادرس ومشرقي عبد النور بجرجا (٢) بل رأينا عائلات استطاعت بفضل تعاون أفرادها ان تمتلك مئات الأقدنة بل الآلاف تستغلها فيما يعود بالمنفعة عليهم وعلى من حولهم من الفلاحين وعلى بلادهم مثل عائلتي ويصا وشنودة وحنا ميخائيل بأسيوط (٣) والبطارسة جرجا (٤) وتكلا في بهجورة (٥) وطلب اسماعيل من هذا الأخير ان يشغل وظيفة ناظر بقسم قضايا مديرية جرجا فنزل عند ارادته .

ولم يقتصر نشاط الإقباط في هذا العهد على الميدان الحكومى أو الزراعى فحسب بل اتجهوا الى الناحية الثقافية أيضا وساهموا فيها بنصيب لا ينكر ففي سنة ١٨٧٨ أنشئت مدرسة الإقباط الصناعية لتتيح للبلاد ما تحتاجه من مهرة الصناع المثقفين وذلك بفضل عالم كبير هو وهبى بك الذى اتجه الى فائدة مواطنيه عن طريق التأليف فوضع عدة كتب للدارسين مثل العقيد الانفس في ملخص التاريخ المقدس () والتحفة الذهبية في تقريب اللغة الفرنسية () و (ارتشاف الراوى في صرف النحو الفرنساوى) ويبدو أن الكتابين الآخرين وضعا لمساعدة دارسى اللغة الفرنسية .

ولما كان متبحرا في اللغة العربية الى جانب تبحره في اللغة الفرنسية فقد طلب العلم في الأزهر (٦) فوضع « الخلاصة الذهبية في علم العربية » فكان أول كتاب في النحو كما وضع « مرآة الظرفى فن الصرف » كما أقبل على

-
- (١) الإقباط في القرن العشرين ج ١ ص ١٧١ .
 - (٢) الإقباط في القرن العشرين ج ٣ ص ٧٢ .
 - (٣) نفس المصدر ص ٨١ .
 - (٤) نفس المصدر ص ٨٦ .
 - (٥) نفس المصدر ص ٣٤ ج ٣ .
 - (٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٤ .

نظم الشعر فأجاده حتى لقد ترجم شعر لرواية تمثيلية هي رواية « تليماك » بل يعزى اليه فضل أول رواية تمثيلية عربية « التوفيق فهي قصة يوسف الصديق » وقد مثلت على مسرح الاوبرا وحضرها الخديوى توفيق واثنى على مؤلفها . وكان هذا التشجيع داعيا له لأن يندفع في تيار التأليف فوضع « الأثر النفيس في تاريخ بطرس الاكبر ومحاكمة الكسيس » التى مثلت كذلك فى نفس الدار فى عهد توفيق كذلك (١) .

وتولى منصب البطريركية هذه الاثناء الانبا ديمتريوس (١٨٦٢ — ١٨٧٠) ثم كيرلس الخامس (١٨٧٤ — ١٩٢٧) وقد كان الاول شديدا الاهتمام بالناحية الثقافية فتابع اثر سلفه فى الاهتمام بمدارس الاقباط حتى بلغ عددها فى نهاية حكم اسماعيل اثنى عشر مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر القديمة وواحدة فى الجيزة ومدرستين بالاسكندرية يتعلم فيها الطلاب القبطية والعربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والحساب ومبادئ الهندسة والتاريخ والجغرافية وبعض المنطق وتأسيس الكنيسة وذلك خلاف مدرسة اكليركية (٢) يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبى الكهنوت اللغة القبطية والعربية والالحيان الكنسية . وكانت أهم هذه المدارس المدرسة البطريركية وقد بلغ عدد طلبتها فى سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وتسعة وسبعين طالبا منهم ثلاثمائة واثنين من الاقباط . كان عدد تلاميذ حارة السقاين والآخرى بجانب الازبكية وكان فى الاولى خمس وأربعون بنتا وثى الثانية ما فوق ذلك (٣) وقد عرفت الحكومة فضل هذه المدارس فكان رفاة بك يحضر سنويا لامتحان طلبتها وتقرر اعفاؤهم من الخدمة العسكرية (٤) ووهب لهم اسماعيل ألفا وخمسمائة فدان هى تفتيش رأس الوادى لينتفعوا بريعتها رنل هذا التفتيش وقفا عليها حتى أواخر أيامه حينما رأت لجنة التصفية

-
- (١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤ .
 - (٢) لم تعيش هذه المدرسة طويلا بسبب ضعف مواردها المالية .
 - (٣) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ .
 - (٤) الاقباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٣٤ .

الاستيلاء على أملاك اسماعيل علاجا لمسألة الديون والحق ان الاقباط اقبلوا على التعليم في نهم غريب خلال هذه الفترة من تاريخهم حتى لقد وصلت نسبتهم الى مجموع عدد الطلبة في المدارس الاميرية الى ٦٦ ٪ .

ولكن يبدو ان المؤرخ نسي مدرسة أخرى للأقباط وهي مدرسة الخياط الواصفية بأسسيوط وهي التي أنشأها في سنة ١٨٦٧ واصف خياط فكانت بذلك المدرسة الرابعة للبنات في مصر ثلاث منها للأقباط ورابعة حكومية وقد تولى الاتفاق على هذه المدرسة بسطوروس خياط ومن بعده ابنه أمين خياط ثم انجاله واصف وشكري خياط وجدد بناء هذه المدرسة أمينة خياط وهذه المدرسة وان كانت تعلم البنات نظير مصروفات الا انها كانت منخفضة وكان ريع عدد الطالبات ينعلن بالمجان وتقوم احدى سيدات عائلة خياط بسد العجز سنويا دون أن تلجأ الى جهة حكومية أو أهلية (١) .

واذا ما أراد للبطريرك ديمتريوس أن يزور المسيحيين في الصعيد ليتقدمهم (٢) كما يتفقد الراعى رعيته وضعت الحكومة تحت تصرفه باخرة نيلية وامرت أن يستقبل في كل البلاد التي ينزل بها استقبالا رسميا .

وفي ظل سياسة المساواة التامة بين المصريين اقبل الاقباط على بناء الكنائس حينما ارادوا دون أن يتطلب الامر اذنا أو تصريحاً بل لم يجد بعض الاقباط حرجا في بناء المساجد ووقف الاوقاف عليها كما فعل مرقس بك يوسف الذى أنشأ في طنطا كنيسة سنة ١٨٦٥ ومسجدا في بلدة جناح .

وقد ساهم الاقباط أيضا في هذه اليقظة الفكرية التي شملت مصر في نهاية عصر اسماعيل وكان اسهامهم فعلا فقد أسس ميخائيل عبدالسيد جريدة الوطن سنة ١٨٧٨ وعمل جرجس ميلاد مديرا لها وكان الاخير متضلعا في

(١) أهرام ١٩٥٧/١١/٨ .

(٢) السنكسار ١٠ بؤونة .

اللغة الانجليزية داعيا الى انتشارها وقد أثر عن هذه الجريدة فهمها للتطورات السياسية الخارجية وعمق بحثها لما تناوله من موضوعات . فقد انتهزت فرصة الحرب البلقانية الاولى (١٨٧٥ — ١٨٧٨) لنشر تاريخ الروس وجغرافية بلادهم وأسباب الحرب مشيرة الى موقف الروس من الدويلات العثمانية في أوربا الشرقية وأحقية هذه الشعوب في الحرية التي تسعدها والدستور الذي تلح في طلبه والمذاهب السياسية الجديدة التي تتف تركيا دون تحقيقها ووالت الجريدة تتبع هذه الحرب وقرنت أخبارها ببحوثها العميقة حتى أضحت اعدادها سجلا لأطوار الحرب (١) وإذا ما طلبت الحكومة التركية من الحكومة المصرية مناصرتها بإرسال الجيوش المصرية ورفضت الحكومة المصرية هذا الطلب بحجة قصور الميزانية وقفت الوطن تؤيدها دفاعا عن الاستقلال المصرى الذى حصل عليه اسماعيل بفرماناته المتعددة . وإذا ما اقترحت الصحف البريطانية على حكومتها احتلال مصر لتمنع انتشار النفوذ الروسى اليها قصدت لها جريدة الوطن تندد بهذا الموقف الاستعماري وتنبه الأذهان الى ما يحاك من الدسائس من أجل الانقاص من الاستقلال المصرى (٢) .

ولم تقف جريدة الوطن هذا الموقف لعدائها ولا لصداقتها لروسيا بل وكانت تنظر الى مصلحة مصر وحدها فما أن انتهت الحرب ووقفت روسيا في مؤتمر برلين تحاول أن تنقض على تركيا فتتقترح مساهمة مصر في تسديد الغرامة الحربية التي فرضت على تركيا بسبب هزيمتها حتى تصدت جريدة الوطن لتدافع مرة أخرى عن مصر المستقلة وبعدها عن الشؤون التركية بعد فرمان سنة ١٨٧٣ (٣) .

وإذا كانت جريدة الوطن قد وقفت هذه المواقف المشرقة وكانت كلها في صف اسماعيل خديو مصر الشرعى فانها لم تتردد في التعريض به وبحكمه

-
- (١) تطور الصحافة المصرية من ٧٥ .
 - (٢) الوطن مارس سنة ١٨٧٨ .
 - (٣) تطور الصحافة المصرية من ٧٨ .

الاستبدادى وانتهزت فرصة تعيين الوزارة النوبارية لتشرح مساوىء العهد القديم فى تقريره ضرائب (غير مقررة ولا جائزة ولا مبررة) وحملت على الموظفين الذين (أثروا من فقر الفلاح حتى أصبحوا من أهل اليسار والثروة وصارت فى حيازتهم أخصب الأطيان) ورجعت بالوزارة النوبارية كمظهر من مظاهر تقييد سلطة الخديوى (١) .

ولم تكن جريدة الوطن كما لم يكن الاقباط مرحبين بالنفوذ الاجنبى الا على أنه واسطة لاصلاح الخلل الذى انتشر فى ظل حكومة اسماعيل الاستبدادية ولكنها لم تتردد فى الوقوف فى وجه هؤلاء الأجانب اذا ما رأتهم يحاولون فرض سلطتهم واستغلالها لنشر نفوذهم فحملت الجريدة على كل من المستر ولسن المراقب البريطانى والمسيو دولنيار المراقب الفرنسى حينما أراد شغل بعض المناصب الكبرى بالبريطانيين والفرنسيين وذكرت ان ذلك سيحرم أبناء الوطن المتعلمين من حقهم فى مناصب بلادهم (٢) .

واذا كان الوطن قد رحب بوزارة نوبار التى سوف تتحمل المسئولية فى حكم البلاد فانها لم ترحب بالمسئولية الوزارية لذاتها بل رحبت بها لتكون مقدمة لما هو أجل وأعظم (ليست هناك نائدة مطلقا من هذه المسئولية ما لم يكن هناك مجلس نواب الذى هو الزم لمصر من لزومه للدول الأوربية) لأن الوزارة المصرية مختلطة. وهؤلاء الوزراء الاوربيون سوف يقدمون مصالح بلادهم على المصالح المصرية فمجلس النواب هو القوة التى توقف هؤلاء الأجانب عند حدهم وتلزمهم انتهاج سبيل خدمة مصر وتقديمها على مصالح دولهم (٣) .

فاذا كانت جريدة الوطن ومن ورائها الاقباط قد أيدوا اسماعيل فانهم لم يفعلوا الا حين رأوا مصلحة وطنهم تقتضى هذا التأييد واذا ما عادوا بعد ذلك فنقدوا اسماعيل مؤيدين التدخل الاجنبى ثم انتقدوا هذا التدخل

-
- (١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ .
 - (٢) الوطن ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ .
 - (٣) تطور الصحافة المصرية ص ٨٦ .

آخذين يضحى بمصالح مصر فانهم لم يكونوا في ذلك الامصريين قوميين يبحثون عن مصلحة مصر وحدها فيقفون لها مدافعين عنها واذا كان التاريخ قد سجل لاسماعيل فخر انشاء اول مجلس نيابى في مصر الحديثة فان الاقباط كانوا من ورائه يطلبون هذا الطلب ويلحون فيه ويبتهجون لتحقيقه واذا كتب لمصر يوما أن تؤرخ تاريخها الدستورى وتسجل للأبطال الذين ساهموا في الثورة على استبداد اسماعيل والمطالبة بالحكومة الديمقراطية الدستورية فان أسماء ميخائيل عبد السيد وجرجس ميلاد يجب أن تكون في مقدمة هذه الأسماء ، فقد كانت جريدتهم هى التى عالجت شئون مصر من وجهة نظر مصرية بحثة متخطية جميع الصعاب الرسمية من انذار وتعطيل فتحدثت عن مساوىء الحاشية والوزارة النوبارية معا وهاجمت الأجانب ووزيريههم وشجعت مجلس النواب وأتاحت فرصة الظهور وأمدت رجاله بالرأى السديد وناقشت أموره الفقهية كواجب انتخاب رئيسه لا تعيينه وحق المجلس في فرض الضرائب ومسئولية الوزارة أمامه كما بحثت في وجوب فرض الضرائب على الأجانب وخاصة (الوزراء) اللذين يتقاضيان آلاف الجنيهات من شعب مفلس (١) واذا ما عزل اسماعيل رحب الوطن بهذا العزل وذكرت ان الله جلى عن الأمة الظلم والغمة (٢) .

ولأجل حسن ادارة ما بيد الاقباط من أملاك عرض الانبا مرقص مطران البحيرة على اسماعيل تشكيل مجلس ملى من أبناء الأمة يتحد مع البطريك ورجال الاكليروس في نظر ادارة الأوقاف فأجيب الى طلبه وصدر الأمر بانتخاب اثنى عشر عضوا أصليا واثنى عشر نائبا فكان أول مجلس ملى في مصر . ولكن لم يلبث الخلاف أن أودى به وصدرت اللائحة به في العشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ عمله بتولييه اصلاح المدارس والبت في قضايا الاحوال الشخصية واصلاح الكنائس والاقواق .

وجاءت الثورة العرابية فاشترك الاقباط فيها جنبا الى جنب مع بقية الأمة فقد راوا في عرابى البطل الذى يحاول ابعاد النفوذ الاجنبى (٣) ودفع الطغيان

(١) الوطن ٥ يوليو سنة ١٨٧٩ .

(٢) جريدة مصر عدد ١٨٨١٩ في ١٣/١١/١٩٦٤ .

Egypt and Egyptian Question p - 106

(٣)

الخدوي (١) .

ومن الطبيعي أن يكون الجيش جنودا وضباطا مكونا من أبناء الأمة دون
تفرقة في دين أو مذهب فقامت الجرائد المصرية وبينها جريدة الوطن تذكر علو
همة الضباط الثائرين وعدالة مطالبهم ثم تلح في وجوب اتفاق الحكومة
والشعب على انشاء برلمان مسئول يجعل غابته أن تكون مصر للمصريين
وحدهم بعد أن رأت المناصب العالية مغلقة في وجوه المصريين مع أن مصر
مهما بلغت بها الحال ملك للمصريين فأشادت بموقف المويلحي عضو مجلس
شورى النواب حين وقف ليعترض على مرسوم رياض باشا بحل المجلس
ويؤكد أن النواب مصممون على دوام انعقاد المجلس ورات الجريدة أن من
واجبها أن تذيع على الناس ذلك الموقف ليشهدوا المشاركة بين الاستبداد
والحرية كما ألحت في اطلاق حرية الصحافة وسن قانون لها ينظم امورها (٢)
واذا ما اقيمت وزارة الثورة عقب المذكرة المشتركة اشترك بطريق الاقباط
الانبا كيرلس الخامس مع غيره من رؤساء الدين في التوجه الى الخديوي برجاء
الابقاء على عرابي لانه الوحيد القادر على حفظ الامن واذا ما ادلهمت
الأمور اشترك الفلاحون والاقباط في تزويد الجيش بما يحتاجه من مخلف
المؤن فكان تادرس بك شنوده المنقبدي يعمل معاونا لوابورات النيل في
اسيوط فعمل على تشغيل جميع الوابورات لنقل العساكر والمهمات الحربية
من الوجه القبلي الى اسيوط التي كانت نهاية الخط الحديدي وكان عرابي
يتصل به رأسا لثقتة به (٣) .

كما انهالت التبرعات على عرابي من أعيان البلاد وكان بينهم عدد كبير
من اقباط الصعيد (٤) فقد كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينجح عرابي في
طرح سلطة كل من السلطان والخدوي لانهم كانوا يرون أن اشتراك أكثر
من طباح لابد أن يؤدي الى حرق الطعام (٥) .

(١) انجلترا والجلاء عن مصر (يوسف خليل ! ص ٢٠ .

(٢) تطور الصحافة المصرية ص ٨٩ .

(٣) الاقباط في القرن العشرين ج ٣ ص ٣٥ .

Egypt and Egyptian Question p - 106 (٤)

Egypt and Egyptian Question p - 107 (٥)

وكأنها أراد أعداء الحركة ان يشوهوا من جلالها فأشاعوا ان الغرض الحقيقي لعرايى انما هو دفع المسلمين الى الاستيلاء على أموال النصرى . فكان من أثر ذلك ان اندفع بعض الغوغاء يحاولون الاستفادة من هذه الفرصة الا أن عرايى بادر بمقاومة هذه الحركة التى نعارض القومية وتؤدى الى انهيارها فأرسل الاوامر المشددة الى المديرين بالمحافظة على أموال الاقباط وحياتهم ولم تكن هذه الازمة اليسيرة بصارفة الاقباط عن بذل العون لهذه الحركة المباركة فاستمروا فى مدها بما يملكون (١) .

وليس ادل على التعاون والتآزر والحب بين أبناء الوطن من أن يؤلف بطرس غالى الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ فيقوم بالخطابة فى حفل افتتاحها الشيخ محمد عبده واشيخ محمد النجار وعبد الله النديم (٢) .

الباب الخامس

عهد الاحتلال البريطاني

وجاء الاحتلال البريطاني في سبتمبر سنة ١٨٨٢ فخسرت مصر استقلالها المحدد . وضاعت على مصر جهود ثمانين سنة بذلت فيها ما فوق طاقتها من الدم والمال . وخسرت امبراطوريتها الواسعة . فقد كانت مؤامرات الانجليز هي التي أضاعت السودان بعد ان أصبحت امور مصر تدار من لندن (١) . وتقاطر الناس هناك على المهدي يبائعونه بالزعامة بعد ان ايقنوا ان زمام الأمور في مصر أصبح في يد جماعة من (الكفرة) يديرونه كيف يشاءون (٢) لا لغرض إسعاد الأهالي بل لغرض سحق الاسلام .

وبذلك أصبحت مصر ذات مركز دولي شاذ فهي تحت السيادة العثمانية اسما بمقتضى فرمانى سنة ١٨٤١ وما تلاهما من فرمانات امتدت حتى سنة ١٨٧٣ بينما لا تملك هذه الدولة من أمر مصر شيئا . والسلطة فيها في يد اصحاب احتلال غير شرعى . ينادى أصحابه بعدم شرعيته (٣) ويعسدون بالجلاء في أسرع فرصة لما تستتب الأمور ولكن تقدير هذا الاستتباب راجع اليهم وحدهم بينما المصريون تواقون الى التخلص من هاتين السیادتين سواء الاسمية او الفعلية كي يتمتعوا باستقلالهم وقوميتهم كاملتين .

ومنذ اللحظة الأولى اتجهت سياسة المحتلين الى تضييع القومية المصرية وهدمها وكانت خطواتهم في ذلك سريعة ولكننا وطيدة . فالغى

(١) تلغراف جرانفل الى بارنج رقم ٦ سرى في يناير ١٨٨٤ .

(٢) مصر والسودان ص ١٥٣ .

(٣) انجلترا والجلاء عن مصر ص ٢٩ و ٣٠ .

الجيش الوطنى وسرح أفرادہ فعادوا الى قراهم يملأ نفوسهم السخط على هؤلاء المحتلين ، كما بدء فى انشاء جيش جديد لا يزيد عن أن يكون قوة بوليسية لا يصلح أفرادها للعمل خارج الحدود المصرية (١) يسيطر عليه ضباط بريطانيون . وليس أذل للقومية من تسلط أجانب على جيش وطنى . ولكن أدهى من ذلك هو محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد حين تحببوا الى الاغلبية ليظهروا أنفسهم بمظهر الآخذين بيدهم الناصرين اياهم ضد الأقلية (المتطفلة) .

ولعل اقرب طريق الى سحق القومية المصرية هو محاولة جانزة البلاد أى صبغها بالصبغة الانجليزية وقد ظهر ذلك واضحا فى الغناء المدارس الوطنية بحجة الاقتصاد فى النفقات من أجل اصلاح المالية فوجهوا أولى ضرباتهم الى المدارس التى تحيى الشخصية وتنبيه القومية وهى المدارس العالية كما الغيت المدارس الثانوية الحكومية أيضا واذا كان قد بقى بعد ذلك التعليم الابتدائى فقد أصبحت الانجليزية لغة التعليم فيه ، ثم ملئت الوظائف العالية بالانجليزية ليوجهوا سياسة البلاد وفق مصالحهم . فكان أن عين المستشارون البريطانيون فى الوزارات المختلفة خصوصا وزارة المالية بعد ان الغيت المراقبة الثنائية ووزارة المعارف لتوجيه الشباب والتحكم فى نزعاته . فلم يعد المصريون الا مجرد آلات تنفذ أوامر الاسياد الجدد . ولا بد ان يحتاج هؤلاء المستشارون الى من يعاونهم ويهيىء لهم العمل .

فانبت البريطانيون فى جميع أجزاء الجهاز الحكومى . وكان أظهرها جهاز الامن الداخلى . فجعل منهم المفتشون فى المديریات . مع بقاء المديرين من المصريين وعلى عاتق هؤلاء تقع التبعة أمام الشعب ، بينما المفتش هو الذى يوجهه كما أصبح رؤساء هذه الادارة (رؤساء البوليس) من البريطانيين أيضا .

وغرست الرسوم العالية على التعليم وأصبح على الطالب الذى يرغب فى الانتظام فى سلك التعليم أن يدفع مصروفات أخذت تزداد مع سنوات الاحتلال فغدت بلغت فى سنة ١٨٩٠ ما يقرب من ١٧ ألف جنيه ووصلت عام ١٩٠٤ الى ٧٦ ألف جنيه وكان معنى ذلك أن لا يستمر فى التعليم سوى أبناء القادرين الذين يمثل كبار الملاك عمودهم الفقرى وكانت نسبة الطلبة المجانيين فى سنة ١٩٠٢ فى المدارس العليا ٦٣ ٪ نقصت الى ١٨ فى المائة فى سنة ١٩٠٣ وإلى ١ ٪ فى سنة ١٩٠٤ واختفت تماما فى العام التالى (١) .

ولم تكن بريطانيا بالدولة الغريرة التى تتهاون فى فرصة اتاحتها لها الاقدار وأتاحها لها سعيها المتواصل طوال السنين الماضية فمضت فى تثبيت اقدام الاحتلال فى مصر فأقنعت المصريين أن تركهم لمصر سوف يتيح للمهدين فرصة غزو مصر من الجنوب تنفيذا لبرنامجهم الذى رسمه المهدي لأنصاره (٢) خصوصا بعد أن فقدت مصر جيشها القديم فى موقعة شيكان وأصبح جيشها الجديد لا يزيد عن قوة بوليسية . ولم يكن ملا الحسكومة بالبريطانيين الا وسيلة أخرى من وسائل تثبيت الاحتلال . الى جانب تحبيبها وتقربها الى الشعب وذلك بأن تركت للموظفين المصريين يدبرون الامور وفق ما يشتهون على أن يتقدم البريطانيون لاصلاح ما يقعون فيه من أخطاء فكان مفتش الرى ومفتش الداخلية البريطاني هما مسما الامن فى نظر الفلاحين المصريين كما أعلن السير افلين بارنج أن بابه مفتوح لكل شكوى وكانت وسيلتهم فى ذلك دعايات ضخمة بواسطة الجرائد التى أخذوا فى انشائها كالمقطم الذى أغروا أصحابه ورئيس تحريره بأن ينقله من السودان الى مصر على أن يدبروا له أمر الاشتراكات . كما لم يكن اصلاحهم نظام الرى فى مصر وتحويلهم رى الحياض الى رى دائم سوى احدى هذه الوسائل أيضا . ولم يكن موقفهم من الخديوى توفيق حين نصحوه بأن يؤلف مجلس شورى القوانين سوى محاولة أيضا للتحبيب الى الشعب رغم أن هذا المجلس لم يكن الا صورة باهتة للحكم النيابى وكما نجح البريطانيون فى سياستهم هذه نجحوا أيضا فى التقرب

-
- (١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٦ .
(٢) مذكرة شريف باشا الى بارنج فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ .

الى الاجانب بالعمل على تنظيم دفع الديون وكانت هذه مشكلة المشاكل أمام الدائنين كما عملت على تشجيعهم على القدوم الى مصر والعمل بها .

وكان موقف المصريين من هذا كله موقفا سلبيا بعد أن وجدوا جيشهم يسرح وزعمائهم ينفون . والخديوى يسلم لهم بكل شيء في ذلة وخضوع . فكانوا مأخوذين بهذه القوة الجبارة التي استطاعت أن تكتسح كل شيء أمامها . فاستكانوا الى الواقع . ولم تبدأ هذه الغمة بأن تنزاح من عقولهم الا بعد سنين من الاحتلال حين نمت طبقة المثقفين فقام مصطفى كامل يحاول بحركته أن ينبه أذهان المصريين الى ما كانوا عليه والى ما هم سائرون اليه . ونجح مصطفى كامل في هذا التنبيه بعض الشيء وان لم يلق التأييد من جميع الطبقات لما شاب حركته من نقائص . وحين التف حوله بعض الاجانب الذين أضروه أكثر مما أفادوه .

وفي سنة ١٨٩٦ أتاح لانجلترا مركزها في مصر أن تمتد نفوذها الى السودان . وأخذت تشق طريقها نحو جنوب افريقيا ولم تتوقف في وجهها محاولة فرنسا الهزيلة التي وقفتها في فاشودة . وفي هذا القطر الجديد وجدت انجلترا مجالا جديدا لعدد من الموظفين البريطانيين بثبهم أيضا في جميع المراكز الرئيسية حيث استطاعت أن تدعى انها هي التي نشرت الحضارة الجديدة في ربوع السودان . بعد أن قضت على الحكم الوطنى الفاسد هناك وأخذت تقود السودانيين نحو المدنية الأوربية . وتقضى على تجارة الرقيق وتفتح أنحاء السودان للاستغلال الاقتصادى الحديث . كسبت انجلترا كل هذه المكاسب رغم مركزها غير الشرعى في مصر وان حاولت ان تسبغ عليه بعض الشرعية . حينما عقدت الاتفاق الفرنسى البريطانى في سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق كانت بريطانيا نفسها أول من اقتنعت بعدم جدواه في تصحيح مركزها في مصر .

بمقتضى ما قامت الحرب العالمية الاولى . أرادت انجلترا أن تحاول هذا التصحيح مرة أخرى ولكنه كان تصحيحا كمن يحاول ستر جريمته بارتكاب جريمة أخرى . فأعلنت عزل الخديوى واعلان الحماية البريطانية على مصر وكان عزلا لم يقره الشعب وكانت حماية من جانب واحد فلم تكن عدم شرعية هذين الاجرائين الجديدين بأقل من عدم شرعية الاحتلال .

الاقتصاد أولا ثم لاحلال قلة من الموظفين البريطانيين الكبار مكانهم ثانيا . فقد كان الطرد من نصيب الاقباط أكثر من نصيب غيرهم . واذا كان البريطانيون الجدد قد احتاجوا الى عدد من الموظفين الذين يجيدون اللغات الاجنبية لمعاونتهم في العمل . فقد وجدوا ما فوق كفايتهم في اللبنانيين والسوريين (١) .

واذا عمد البريطانيون الى تسريح الجيش المصرى القديم فقد أصاب الاقباط جزء من هذا التشريد وعاد الاقباط الى قراهم فلم يجدوا أمامهم الا الجوع والشفاء **إلا إذا قلنا** ان هذا الجيش كان اسلاميا خالصا . وهذا أمر يخالف الواقع جد المخالفة . فقد كان شرف الخدمة العسكرية من نصيب المصريين جميعا دون تمييز منذ أيام سعيد حين أجاب ملتمس البابا كيرلس الرابع في هذا الشأن كما حرمت المدارس القبطية تفتيش الوادى الذى أوقف عليها فحرمت المورد الذى تعتمد عليه كما سحبت الاعانة السنوية وقدرها مائتان وخمسون جنيها .

ولعل ابلغ الضرر الذى حاق بالاقباط هو ما وقع عليهم في السودان الذى ضاع — كما قلنا — نتيجة للسياسة البريطانية الخاطئة ولم يكن قد مضى على الاحتلال أكثر من سنتين ونصف سنة . فقد استولى المهديون على الخرطوم في يناير سنة ١٨٨٥ . ولم يعد للحكومة المصرية نفوذ هناك . وترك المصريون وكثرتهم من الاقباط لنصيبهم المحتوم حيث نهبت أملاكهم وسلبت أموالهم بل أن بنساتهم وزعن على زعماء المهديّة ومن رفضت قتلت أو انتحرت دون أن تجد من يدافع عنها بل هدمت كنائسهم وأرغموا على ترك دينهم (٢) أو التظاهر بذلك واذا كان المهدي قد استخدم بعض المصريين في الاعمال العامة فقد ترك الاقباط يدبرون أمر أنفسهم ومع كل ما وقع على الاقلية من غبن وظلم سواء في مصر أو السودان قيل عنهم بعد ذلك أنهم كانوا عمد الاحتلال البريطانى في مصر . وكانت غاية البريطانيين من كل ذلك أن يتقربوا الى الأغلبية على حساب الاقلية وهى سياسة يخطتها المحتلون في كل بلد ينزلون به على أمل أن يلجأ هؤلاء المظلومون الى الشكوى فيقوم المحتلون

Ibid p - 143

(١)

Ten Years In Mahdio 's Captivity p - 66

(٢)

بانصافهم ولكن الاقباط كانوا أكثر وطنية من أن يشكو (١) ولذا كان غيظ الانجليز منهم كبيرا فتقدموا الى الاغلبية بمظهر من يرد اليهم بعض ما كان مسلوبا منهم فأعطوهم الحق في اغلبية وظائف الحكومة بحكم ماكانوا عليه من اغلبية عددية بل عمدوا — عامدين — الى ابعاد المسيحيين عن بعض الوظائف العليا مثل مديري المديریات ونظار المدارس ورؤساء المحاكم وباشمهندسى الرى وحكمدارى البوليس وحكيمباشى الصحة بالمديریات ومنتشى الداخلية والمالية ولجنة المراقبة القضائية (٢) بدعوى ان هذه الوظائف تمثل حاكم البلاد المسلم فكان الاحتلال هو الذى بث جرثومة التمييز الدينى للمرة الاولى منذ القرن التاسع عشر ، فكانت نتيجة هذه السياسة البريطانية الداخلية ان شعر بعض المسلمين ان المسيحيين لا يستوون فى الحقوق كما يستوون فى الواجبات . الامر الذى يعصف بالقومية ويذهب بها الى غير رجعة فأخذوا فى مقاومة هذه الفكرة وكذلك فى مقاومة الاحتلال ولكن بطرقهم الخاصة وكان أهم هذه الطرق ابلغها اثرا هو التعليم .

ففى الوقت الذى أغلقت فيه المدارس الحكومية بحجة الاقتصاد ظلت المدارس القبطية المنهل الوحيد للمصريين يرشفون من مواردها وكانت تنادى بالمساواة على اوضح صورها حين فتحت أبوابها امام جميع المصريين على اختلاف دياناتهم .

وفى الوقت الذى جعل فيه التعليم الابتدائى الحكومى مقابل مصاريف باهظة ظلت المدارس القبطية تمنح تعليمها المجانى لمن يطلبه ولم تقف مدارسها عند حد القاهرة أو الاسكندرية كما كان الحال فى المدارس الحكومية بل انتشرت فى جميع قرى مصر وتألقت الجمعيات القبطية التى تمنح معونتها للفقير والمحتاج لتمنع عنهم ذل السؤال والفاقة . وحفظ ماء الوجه والكرامة من أن تمتهن أولى خطوات القومية الصحيحة فتألقت الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ ووسعت نشاطها بعد ذلك فأنشأت مشغلها سنة

(١) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

الأمور الدينية المحضة والفصل في الدعاوى التي تقام على الأكليروس بحسب قانون الكنيسة كما نصت مادته التاسعة والعشرون على أن يكون للمجلس حق إدارة الأديرة الكائنة بمدينة القاهرة وضواحيها . أما أديرة الرهبان خارج القاهرة وضواحيها فيكون النظر في أمر أوقافها وكذلك ترقية رجال الأكليروس وإنشاء المدارس اللازمة لهم من اختصاص البطريرك وأربعة ينتخبهم من رؤساء الأديرة . فيقوم بضبط أوقافها وتحسين إيراداتها وصرفها فيما يعود بالمنفعة حسب شروط الواقفين وحتم القانون على رؤساء الأديرة تقديم حساباتها سنويا الى البطريرك .

وتم انتخاب المجلس الاول في أول مارس سنة ١٨٨٣ وتألقت من أعضائه أربع لجان هي لجنة الإدارة ولجنة المدارس ولجنة الفقراء والكنائس . ولجنة لقضايا الأحوال الشخصية (١) .

(١) الاقباط في القرن العشرين ج ٥ ص ٩ - ١٣ .
لم تلبث هذه اللائحة أن عدلت في سنة ١٨٩٢ ومرة أخرى في سنة ١٩٠٥ وجعل أعضاء المجلس أربعة وعشرين وجعل اختصاصه طبقا للمادة الخامسة (جميع ما يتعلق بالاوقاف الخيرية التابعة للأقباط عموما وكذا ما يتعلق بمدارسهم ومطبعتهم وفقرائهم وكافة المواد المعتاد نظرها بالبطركخانة) .

أما فيما يتعلق بالاوقاف فقد نصت المادة التاسعة على أن عمل المجلس هو :

- أ - حصر الأوقاف وقيدها .
- ب - حفظ جميع الحجج والتقاسيط وسائر مستندات الملكية .
- ج - طلب كشوفات بيان المتأخرات الموجودة .
- د - الحصول على حسابات عن الإيرادات والمصروفات والنظر فيها وحفظ ما يكون زائدا من الإيرادات وتخزينه بالبطريركية لصالح وقف أهله .
- هـ - إدارة الأوقاف المذكورة وأجراء ما يؤول منه وتحسين حالتها والنظر فيما يلزم لها من إنشاء وتصليح والترخيص بأجراء ما يرى لزومه من ذلك كما أجازت له افتتاح مدارس ومكاتب جديدة ومدارس دينية وإيجساد كتب خانات وترتيب وتنظيم ما يكون موجودا منها على أن تكون كافة المدارس تحت ملاحظة نظارة المعارف .

فلا عرابة اذا أدى هذا الاصلاح الى الاندفاع فى تيار اصلاحي قوى ظهر
أثره أول ما يكون فى الناحية التعليمية . فاذا كانت أول مدرسة ثانوية أميرية
انشئت فى الاقليم كانت فى طنطا سنة ١٩١٤ فان المدارس القبطية اندفعت فى
أترها منذ سنة ١٩١٦ وان امتازت عنها بتعليم نسبة كبيرة من طلبتها
بالمجان .:

واذا ما انشئ التعليم العالى اندفع الاقباط ينهلون بل يعبون منه عبا
فقد وصلت نسبتهم بين طلبته فى سنة ١٩١٠ الى أكثر من ٢٩ ٪ بينما لم تزد
نسبتهم فى التعليم الابتدائى الحكومى عن ١٧ ٪ وفى التعليم الثانوى عن
٢٤٦ ٪ (١) .

ولم يترك الاقباط المكاتب الاهليسة التى كانت تديرها وزارة الاوقاف
وتصرف عليها من أوقاف المسلمين دون أن يلتحقوا بها فقد بلغ عدد تلاميذها
فى سنة ١٩١٠ (٤٢٩٢) تلميذا كان بينهم ٩١٢ قبطيا وكذلك بعض المدارس
الابتدائية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف أيضا بلغ عدد تلاميذها ١٨٨٧
تلميذا بينهم ٢٤٢ قبطيا أى بنسبة ١٢٨ ٪ .

ولكن نوعا واحدا من التعليم العالى لم يرض عنه الاقباط ولم يتجهوا اليه
هو مدرسة المعلمين الخديوية فلم يزد عدد الطلبة الاقباط منذ سنة ١٨٨٨
الى سنة ١٩١٠ أى مدى ربع قرن كامل عن أربعة من الطللاب هذا شئ

== أما من الناحية الاجتماعية فقد نصت المادة الثالثة عشر على أن يقوم
المجلس :

- ١ — بحصر وجمع الايرادات المخصصة للفقراء .
 - ٢ — توزيعها على المحتاجين بالعدل والانصاف .
 - ٣ — صرف ما يلزم لدفن المعدمين وتربية أبنائهم .
 - ٤ — البحث والنظر فيما يترتب عليه زيادة نحسين الايرادات وتحسين
حالة الفقراء واجراء ما يؤدى الى ذلك .
- (١) محاضر المؤتمر المصرى .

يعاب عليهم . ولعل السبب في ذلك ما كانت عليه وظيفة المدرس في مدارس الحكومة من ضعف في المرتبات وكثرت تناسوا أن المدرس هو منشئ الجيل ولذا كان تعليمهم تنقصه الناحية الروحية ومعرفة الدين الصحيح ، ولعل هذا هو ما يعلل نكبتنا الطائفية الحالية .

ولكن الإقباط وإن عزلوا عن ميدان التدريس فقد إقبلوا على ميدان آخر من ميادين القيادة وهو ميدان الجرائد فقد إنشأوا جريدتين هما الوطن لإنشائها ميخائيل عبد السيد التي ظهرت في أواخر عهد إسماعيل كما مر بنا ، ثم جريدة مصر لإنشائها تادرس بك شنودة الإنتقادي وقد ظهرت عام ١٨٩٥ . ولم تكن إحداها طائفية بل كانت شاملة وكانت أنباء الطائفة إحدى نواحي نشاطها . كما أنشأوا مجلات عدة مثل المفتاح ورمسيس وصهيون والأولى والثانية مجلتان جامعتان شهيرتان . كانت كل منهما فيما يقرب من ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط بينما كانت الثالثة قاصرة على بحث الأمور الدينية .

وبشي آخر أهتم الإقباط بإنشائه ولم يكن غرضهم فيه ربحا ماديا بل كان ولا يزال مصدر الهام بالقومية المصرية الحية على توالى العصور . ذلك هو المتحف القبطي فقد دأب مرقس سمكة على جمع المخططات القبطية منذ عام ١٩٠٠ وأفرد لحفظها حجرة بجوار الكنيسة المعلقة بمصر القديمة وما يزال يدأب على هذه المهمة الجليلة وهو يصرف عليها من ماله الخاص حتى استطاع أن يجعل له بناء مستقلا وما زال هذا المتحف ينمو ويكبر حتى ضمته الدولة الى مؤسساتها القومية في سنة ١٩٣١ بعد أن عرفت أهميته كممثل هام لجزء من تاريخ الحضارة المصرية . ونقلت اليه ما كان بالمتحف المصري من مجموعات قبطية نفيسة . وبه الآن — علاوة على قسم المعروضات — مكتبة ثمينة حوت أكثر من ٤٥٠٠ مجلد بين مطبوع ومخطوط كلها في التاريخ القبطي (١) .

ولقد عرفت الإقباط في هذا العصر سبب نكبتهم الماضية الا وهو ضعف القادة وعدم وجود الاكليروس القوي الذي يرعى شعبه حق الرعاية ولذا

(١) الدليل العام للأقباط ص ٨٩ .

اتجهوا في هذا الوقت الى خلق الراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة .
ولذا كان انشاء المدرسة الاكليريكية عام ١٨٩٣ مظهرا من مظاهر النهضة
القبطية الشاملة . ولعل اكبر ما حفزهم على ذلك ما راوه من نشاط
الاساليات الانجائكانية

وان مدرسة الاسكندرية القديمة التى اُسست فى القرن الاول
الميلادى التى اخرجت جهازة العلماء المسيحيين والتى طار صيتها فى انحاء
العالم المسيحى هى صاحبة الفضل الاول فى محاربة البدع والضلالات
والقضاء على الآراء الفاسدة التى تخالف التعاليم المسيحية القديمة (١) بل
هى صاحبة الفضل الاول فى المحافظة على روح القومية المصرية من ان
تمتصها القومية الرومانية . فقد لقيت المسيحية فى الاسكندرية مصاعب لم
تلق مثلها فى غيرها من البلاد بسبب ازدحامها بالعلماء الوثنيين الذين تتقفوا
فى مدرسة الاسكندرية ثقافات الاغريق الواسعة العميقة والذين ظلوا
يجادلون النظريات المسيحية مجادلات مبنية على الفلسفة فعرف المسيحيون
حينئذ ان لا سبيل لهم الى مجادلة الفلسفة الا بمثلها . فانشئت مدرسة
الاسكندرية الاكليريكية ونجحت هذه المدرسة فى تخريج طائفة من الفلاسفة
المسيحيين الذين وقفوا امام الوثنيين وتمكنوا اخيرا من الانتصار عليهم . وفى
عهد اكليمنديس الاسكندري وأوريجانوس بلغت هذه المدرسة اسمى درجات
التفوق (٢) وفاقت مدرسة انطاكية . واذا كانت المدرسة قد لقيت الاضطهاد
ايام دقلديانوس كما لقبه جميع المسيحيين الا انها عادت بعده الى رونقها
الاول وتخرج فيها كثيرون من ابطال المسيحية الذين قامت على اكتافهم كنيسة
الاسكندرية القوية من امثال البطاركة بطرس ، واثناسيوس ، وكيرلس الكبير
وغريغوريوس ، ثم يوليوس المؤرخ واليسيميوس صاحب القانون
انيونانى ، والقديس مكاريوس الملقب بالشاب ، ونيديموس الملقب بالضرير .
ولعل نجاح اثناسيوس فى مجمع نيقية ثم كيرلس فى مجمع خلقدونية ليمثلان

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٤٢ — ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣١ .

نجاح يمثل هذه المدرسة خير تمثيل .

وقد افتتحت المدرسة الاكليريكية الجديدة في سنة ١٨٩٣ واختير لها
اولا اثنا عشر طالبا علمانيا واثنى عشر قسا وأسندت رئاستها الى يوسف
منقريوس .

ولقد كانت الكنيسة في خلال هذه الفترة تعاني أزمة مالية عنيفة من
جاء زيادة المصروفات على الإيرادات حتى لقد كانت مرتبات الموظفين تتأخر
أكثر من ستة شهور الا ان حماسة الاقباط ووعيتهم دفعا بهم الى التبرع
للمدرسة بمبالغ لم تكن تخطر على بال أحد حتى لقد تمكن ناظرها من ان يجمع
من مدينة أسيوط وحدها أكثر من ألف جنيه في يوم واحد وبلغت جملة
التبرعات مبلغا مكن ادارة المدرسة من أن تبتاع لها بناء خاصا علاوة على ٣٦٥
فدانا بمبلغ ٢٢٨٠٠ ج أوقفت ريعها على الصرف على هذه المدرسة والمدرسة
الصناعية التي أنشئت في بولاق (١) .

ورغم ما قاسته هذه المدرسة من أزمات في أوقات متفاوتة الا انها
ما كانت تكبو الا لتنهض (٢) فلم تكن مواد هذه المدرسة قاصرة على المواد
الدينية بل وجدت ان رسالتها الدينية لا تعفيها من تدريس المواد المدنية كي
لا يخرج طلبتها بعيدين عن الوسط الذي يعيشون فيه فدرست فيها مواد
التاريخ والجغرافيا والرياضة والمنطق وعلم النفس والتربية الى جانب
اللغات العربية والانجليزية والقبطية والعبرية . وقد أدت هذه المدرسة
رسالتها في تخريج عدد كبير من الرعاة الصالحين وفي تأليف عدد وافر من
المؤلفات الدينية والرسائل القيمة والبحوث العميقة كما أنها هي التي أخذت
على عاتقها النهوض باللغة القبطية ونفخت فيها من روحها وعملت على
نشرها بين الافراد والأسر كما ان خدماتها لم تقتصر على الاقباط بقدر ما كانت
شاملة لأبناء الامة جميعا من حث على عمل الخير ونهى عن الشر

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٢٥٠ و ٢٥١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ و ١٥١ .

والفساد (١) .

وما يؤسف له ان هذه النهضة الشاملة لم تمتد الى الرهبان في أديرتهم . فقد نقص عدد الرهبان من ١٠٠٣ في سنة ١٨٧٠ الى ١٨٩ في سنة ١٩١٠ (٢) بل من المؤسف حقا أن يكون بعضهم ممن سددت في وجوههم أبواب العمل بل من طريدى العدالة اذ لم يهتم أحد بتفقدتهم وتعليمهم . ولذا كان بعض المطارنة والأساقفة — وهم ينتخبون دائما من بين الرهبان — على درجة من الثقافة اقل مما يتطلبه منصبهم وقد عمل مركب النقص عمله فيهم فأتجهوا الى أن يختاروا القسس ممن يقلون عنهم ثقافة ويزيدون عنهم جهلا وتناسوا خريجى الكلية الاكليريكية رغم صدور المنشورات البطريركية المتكررة التى يلفت فيها البطريرك نظر المطارنة الى ضرورة رسم القسس ممن إتموا الدراسة بالمدرسة الاكليريكية وحصلوا على اجازتها النهائية (٣) .

كما إتجهوا الى قبول السيمونية وبيع المناصب الدينية الامر الذى دعا المفكرين الى وجوب الانتباه الى هذه الناحية ولكن انتباههم لم يأت إلا متأخرا .

ومن الطبيعى ان هذه الحالة السيئة لم تمنع من أن يكون بينهم من تثقف ثقافة دينية رفيعة وعرف ما لهذا المنصب من كرامة فحافظ عليه وقام بواجبه خير قيام ولم ينس الاقباط أن يتجهوا في جهادهم اتجاهها اجتماعيا يربى فى افراد الأمة روح التعاون الاقتصادى . ولعلنا لا ننكر ان هذا التعاون الاقتصادى كان ولا يزال المسمار الاول فى نعش الاحتلال البريطانى الذى سعى منذ بدايته الى تحطيم المصرى وجعله مستندا على الاقتصاد الاجنبى .

فسعى تادرس بك شنودة المنقبادى فى سنة ١٨٠٩ الى تأسيس صناديق توفير أهلية فى أسيوط وسوهاج وجرجا وقنا والمنيا والفيوم والعاصمة ولم يكن سكان هذه البلاد اقباطا فقط كما لم ترفض هذه الصناديق ودائع غير

-
- (١) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٤ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ .
(٣) المدرسة الاكليريكية .

الاقباط (١) ونجحت هذه الصناديق في بث ثقة المصريين في انفسهم وظلت هذه الصناديق تبأشر عملها حتى انشئت مصلحة البريد نظام التوفير فضمت هذه الصناديق اليها وجعلتها ملحقة بها والفت قبيل ذلك الشركة التجارية القبطية في سنة ١٨٨٤ برأس مال قدره الف جنيه موزعة على الف سهم وجعلت مجال نشاطها الاعمال المنزلية ، فكان تخفيض ثمن السهم الى جنيه واحد داعيا الى اشتراك كثير من الفقراء وذوى الدخل المحدود في عمل اجماعى نضالانى الغرض منه تخفيف اعباء الحياة عن عاتق الطبقة المكدودة دون ان ينتظروا من ذلك ربحا فقد خصص ربح هذه الشركة للأعمال الخيرية وتمكنت الجمعية في النهاية بما تجمع لديها من ارباح ان تشتري اطبائا اوقفوها على مدرسة ثانوية في اسيوط . وكان نجاح هذه الشركة داعيا الى شركات اخرى تماثلها في كل من سوهاج وجرجا واخميم في سنة ١٨٨٦ .

وما زالت سياسة الامة في وقتنا الحاضر بل سياسة الحكومات الوطنية المتعاقبة تتجه نحو تشجيع الاقتصاد الوطنى وحث ذوى الدخل المحدود على التعاون من أجل تخفيف اعباء الحياة عنهم وما هذه الشركات المضرة المساهمة التى تقوم بالأعمال الكبيرة فى الوقت الحاضر وأشارك كثيرين من ذوى الدخل الضعيف فيها وأقبالهم على حضور جلسات جمعياتها الخيرية ومناقشة أعضاء مجالس ادارتها ألا تطورا طبيعيا لما قام به الاقباط فى العشرين سنة الاخيرة من القرن الماضى فكان عمل الاقباط فى ذلك انما هو اللبنة الاولى فى بناء الاقتصادى المصرى القائم على تعاون جهود الطبقة الشعبية العاملة الكادحة .

وفى سنة ١٨٩٨ استعيد السودان وأبى الانجليز إلا أن ينفردوا بالأمر فيه ولكن الاقباط فوتوا عليهم غرضهم . فلم تمض سنتان على الاستعادة حتى كان الاقباط قد احتلوا رقعة كبيرة شغلت اتم درمان القديمة وابتنوا فيها مساكنهم فحملت اسمهم التقليدى (خارة النصارى) (٢) .

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ .

Baedeker's , Egypt p - 388

(٢)

يزعم بعض قصار النظر أن البريطانيين لم يسمحوا للاقباط بدخول السودان الا ليكونوا لهم انصارا ولكن هذا كلام العاجزين وانما نسوا ما قام به الاقباط من نشاط علمى واقتصادى كان أبعد ما يكون عن رغبة البريطانيين .

فاذا افتخر الانجليز بأنهم هم الذين عملوا على تمدين السودانين فنشروا المدنية بين ربوع هذا القطر كذبهم الاقباط في دعواهم فقصد أسرعوا هم اليه وانبثوا في بلاده المختلفة يعملون في مختلف نواحي النشاط فشعلوا جزءا كبيرا من وظائفه . وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم في هذا الجزء المجهول بادر الاقباط بطرح أموالهم في السوق والاشتغال بالتجارة فيه ولم يمض على وجودهم هناك أربع عشرة سنة حتى بلغ عددهم مبلغا اذ كانت لهم ست كنائس منها اثنتان أنشئت في سنة ١٩٠٠ وهما كنيسة أم درمان ووادي حلفا ، ثم أنشئت واحدة أخرى في سنة ١٩٠٥ هي كنيسة الخرطوم وواحدة في سنة ١٩١٠ في الدامر واثنتان في سنة ١٩١٣ هما الخرطوم بحري والأبيض . وكانت تكاليفها جميعا من تبرعات الاقباط الذين استقروا هناك (١) فاذا ما ارتفعت قيمة التجارة السودانية في سنة ١٩١٤ الى مليون وثمانمائة ألف جنيه كان الاقباط من ورائها يدفعونها بالجهد والعرق والدم .

واذا ما اراد الانجليز أن ينشئوا كنيسة لهم لم يتمكنوا من ذلك الا في سنة ١٩١٢ وكأنما شعروا أنهم لا يستطيعون أن يعملوا الا اذا تقربوا الى الاقباط وطلبوا الحماية منهم فدعوا نيافة البطريرك الى حضور حفل تدشينها فاعتذر . وفي هذا الحفل ألقى مطران لندن خطبة قال فيها انه يعترف لغبطة البطريرك برئاسته لأقدم أمة وأنه يعتبر الكنيسة القبطية الشقيقة الكبرى للكنيسة الانجليزية (٢) واذا ما حضر الى القاهرة بادر بمقابلة البطريرك وقال له « أملنا أن تعمل الكنيستان كتنا لكثف فتنهض كل منهما من عزيمة الاخرى على القيام بخير الاعمال » فكان الانجليز هم الذين طلبوا حماية الاقباط لهم ولم يكن الاقباط هم الذين عملوا في ظل الاحتلال البريطاني كما يزعم البعض .

اما قصة نشر الحضارة الحديثة في السودان والارتفاع بمستوى سكانه من الحياة البدائية الاولى الى حياة المدينة فطلست في احتياج الى جهد كبير لاثبات فضل المصريين في ذلك ؟ فمن القادر على أن يأخذ بيد السوداني في

(١) السودان في التاريخ القديم ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) الاقباط في القرن العشرين ج ٥ ص ١٤ .

هذا السبيل ؟! أهو الموظف البريطاني الذي عاش يتردد الى مكتبه صباحا والى بيته الانيق المزود بملعب التنس وحمام السباحة ظهرا واخيرا الى ناديه الذي لا يستطيع السوداني اقتحامه الا اذا كان يعمل خادما فيه ؟ وفي كل هذه الحالات لا يعيش معيشة اوروبية فحسب ، بل اوروبية رفيعة لا يستطيع السوداني أن يرقى الى مجرد التفكير فيها . أم هذا القبطى الذى يعيش فى أم درمان وأخيرا يستقبل السودانيين فى منزله ويستقبله السودانيون فى منازلهم .

لا جدال فى أن الاقباط وحدهم هم الذين شادوا المجتمع السودانى نحو الحضارة الاوروبية وليس انصاف الالهة من الاوروبيين . ولم يكن هذا التأثير قاصرا على الموظفين بل شاركهم فيه هؤلاء التجار واساط الناس من المصريين الذين عاشوا فى مدن السودان . واختلطوا بالسودانيين . وكان اقبال المصريين على سكنى الخرطوم وابتناؤهم البيوت والكنائس والنوادى هو الذى رفع ثمن الارض من مليمين للمتر المربع الى جنيهين فى مدى الخمس سنوات الاولى من الاستعادة .

وقد أخذت الادارة الجديدة فى تنفيذ جملة من المشروعات كان منها الاهتمام بفتح المدارس فلم تجد من يعمل مدرسا الا هذا القبطى الذى اخذ على عاتقه قيادة الجيل الجديد من السودانيين لا الى الحضارة بل الى الافكار والاهداف التى بنى عليها السودان الحديث .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذه الحقيقة على السودان فحسب ، بل كانت صفحاتهم فى اتيوبيا انقى وأنصع . فقد ارتقى الامبراطور منليك العرش الاتيوبى فى سنة ١٨٩٠ بعد قرن من الفوضى (١) لم تنقطع خلاله العلاقات الروحية العتيقة التى ربطت بين الكنيستين المصرية والاتيوبية (٢) فعول على أن يدخل بلاده ضمن نطاق الحضارة الاوروبية وأولى خطواتها خلق الجهاز الادارى الحديث الذى يقسم الاعمال الحكومية فى وزارات يشرف على كل

Budge, History of Ethiopia Vol II

(١)

(٢) السنكسار ٢٨ برمهات .

منهمــا وزير مختص يرأسهم الوزراء وجميع هؤلاء الوزراء مسؤولون عن أعمالهم أمامه ، فكان منها وزارة التعليم وعين مصري هو الاستاذ حنا صليب سكرتيرا عاما لها فعول على ادخال التعليم الحديث الى اثيوبيا فأنشأ مدرسة منليك الثانية مقسمة الى ثلاثة أقسام قسم انجليزى وآخر فرنسى وثالث ايطالى . وارسل الى البطريركية فى القاهرة يطلب اختيار اساتذة لهذه الأقسام . فأشرك البطريرك معه فى اختيار الاساتذة لجنة المدارس والتعليم بالمجلس المالى وكذلك تادرس بك شئودة المنقادى (١) وأخيرا اختير ستة من الاساتذة المصريين سافروا الى هناك فى سنة ١٩٠٧ عن طريق البحر الأحمر حتى وصلوا الى ثغر جيبوتى الفرنسى حيث أخذوا القطار الى ديزدوا ثم اكملوا رحلتهم على ظهور البغال الى اديس ابابا. وهناك بدأوا عملهم واستمروا فيه فتخرج على أيديهم كثيرون من الشباب الذين سرعان ما تبوأوا مراكز الدولة وحين سافرت الى اثيوبيا سنة ١٩٣٤ كان وزير التعليم آنذاك هو بلاتن جينا سهلا ستيدالو الذى سمعته يفخر بأنه كان تلميذا هؤلاء الاساتذة المصريين . والى هذا الوزير يعزى فضل انشاء المسرح الأول فى اثيوبيا . وظلت البطريركية ثم وزارة المعارف المصرية تواليان ارسال الاساتذة المصريين لهذه المدرسة حتى قضى الاحتلال الايطالى على استقلال اثيوبيا عام ١٩٣٦ ، اى قرابة تسع وعشرين سنة متوالية فكان معظم هؤلاء الأساتذة حتى سنة ١٩٢٧ من خريجي الأكليريكية . أما العشرة سنين الأخيرة فقد تولت وزارة (المعارف) انتقاءهم من خريجي مدارس المعلمين والجامعة . فكان الاقباط بذلك أول من نشر الثقافة المصرية خارج الحدود المصرية منذ بداية القرن العشرين . وان كان ذلك بلغة اجنبية . قبل ان تعرف الحكومة المصرية نظام انتداب المدرسين الى الاقطار الشقيقة بربع قرن .

وقد ظل هذا الرغيل الاول من المدرسين يقوم بواجبه حتى مات منهم من مات واثّر الباقيون الاستقالة للاستغفال بالأعمال الحرة فعمل أحدهم وهو الأستاذ نصر عوض فى تجارة البن حتى أصبح من أكبر تجارته الى أن مات فى سنة ١٩٣٩ وقد أقبل هذا التاجر أثناء اقامته الطويلة على دراسة اللغة الامهرية

(١) الانباط فى القرن العشرين ج ٣ ص ٥٥ .

حتى بز فيها أهلها واستطاع أن يقرض فيها الشعر الجيد الرصين الذي بادرت الجرائد الامهرية بنشره له وفي مقدمتها جريدة برهاننا سلام « النور والسلام » وظل أخذ هؤلاء المدرسين يعيش في اديس ابابا بعد ان اعتزل التدريس واصبح وكيلا للرأس كاسا الى ان مات منذ عامين .

ولنعد الى مصر . فقد قام فيها مصطفى كامل يدعسو الى جلاء البريطانيين عنها وكان الرجل وطنيا في دعوته وان لم يكن وطنيا كاملا . ففي الوقت الذي دعا فيه الى جلاء البريطانيين عن مصر وندد بهم وبأعمالهم ونعى على المصريين ثأورهم واستسلامهم وتسليمهم للبريطانيين لم يذكر الاثراك بسوء . فمُند آمن بالولاء التام للسلطان . ودعا الى الخضوع له كما آمن بالجامعة الإسلامية دينيا وسياسيا .

ولم يستطع الاقبياط أن يهضموا هذه الدعوة . فهم وإن أمثوا بغير شرعية الاحتلال وعملوا جهدهم على مقاومته بطريقتهم الخاصة من حيث تعليم الشعب ونشر الوعي القومي بين الناس إلا أنهم لا يستطيعون مطلقا أن يؤيدوا دعوة تدعوهم الى أن يستبدلوا بالسيد البريطاني سيّدا آخر هو السيد العثماني الذي قاسوا من حكمه ما قاسوا وكادت القومية المصرية تحتحكمهم الفاسد ان تصبح في خبر كان . خصوصا وقد كان الحكم العثماني في ذلك الوقت أفسد من الفساد . فقد كان على رأسها السلطان عبد الحميد الثاني ينشر فيها حكمه الملطخ بالدم .

لم يستطع الاقبياط أن يؤمنوا بـ مصطفى كامل وهم يرون أحرار تركيا يعانون الاضطهاد والنفي ويذرعون أجزاء أوروبا طولا وعرضا مريا من هذا الطاغية الذي كان يتعقبهم ليقضي عليهم بينما كان مصطفى كامل يسافر سنويا الى استنبول ليلقى كل احترام وترحيب كما كان موضع عطف من السلطان ورجاله المجرمين حتى لقد منحه رتبة الميرمان التي تباع له ان يلقب (بالباشا) .

لم يستطع الاقبياط أن ينصروا دعوة تضع الأيراني والافغاني والتونسي الى جانب المصري المسلم على قدم المساواة ثم تضع القبطي المصري في مرتبة اقل منهم فالقومية المصرية كما يفهمها الاقبياط هي ان خيرات مصر حلال للمصريين وان اختلفت دياناتهم جرام على غيرهم . وان حبهم لحر وتقاتلهم في

سبيلها وموتهم من أجلها إنما ينصب على هذه الرقعة من الأرض الى تحدها الحدود السياسية المعروفة . وقد تضيق هذه الحدود تحت حكم ظروف خارجة عن ارادتهم كما كان الحال بين ١٨٨٥ — ١٨٩٩ . أو تتسع كما كان الحال في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلا أنها تحمل اسم مصر . ولذا وقف الأقباط من حركة مصطفى كامل وقفه التردد غير المؤمن بها فلم ينضم الى الحزب الوطنى الا قبطى واحد هو الاسناذ ويسا واصف فأطلقوا عليه اسم يهوذا (١) .

وإن يكن الاقباط في موقفهم هذا نسيج وحدهم فقد شاركهم هذا الراى أغلبية الأمة إذ لم تستطع جريدة اللواء أن تعيش إلا عن طريق المساعدة التى كان مصطفى كامل يتلقاها من السلطان (٢) والخديوى . ويوم انقطع عنه هذا المورد الأول بعزل السلطان والمورد الثانى باعراض الخديوى عن الحزب الوطنى قبيل وفاة رئيسه بقليل أخذت الخسارة تكتنفها وأخذ محمد بك فريد يسدده هذه الخسارة من ماله الخاص . وقد ألف بعض هؤلاء المعارضين وعلى رأسهم احمد لطفى السيد حزب الأمة الذى جعل ينادى بمصر المستقلة البعيدة عن أى نفوذ أجنبى سواء كان بريطانيا و عثمانيا . ولم يكن أفق أعضاء الحزب الوطنى ليتسع لمثل هذه النظرة القومية الصحيحة ولذا رمى هذا الفريق الأخير بالخيانة .

وقد برهن الاقباط بموقفهم هذا من حركة مصطفى كامل على وطنية عريقة وقومية صحيحة مأثورة عنهم طوال تاريخهم . فان الاقباط بعد أن رأوا تخلى فرنسا عنهم فى سنة ١٨٠١ أيام المعلم يعقوب وكذلك تخليهما عنهم عام ١٨٤١ أيام محمد على وتخليها عنهم فى سنة ١٨٦٧ فى حادثة فاشيودة حين أرادت أن تقف فى وجه التقدم البريطانى فى أفريقيا (٣) ثم تخليها عنهم فى سنة

(١) لم يلبث الرجل أن استقال عندما أصبح الشيخ عبد العزيز جاويز رئيسا لتحرير جريدة اللواء ونشر مقالته « الاسلام غريب فى بلاده » التى شبه فيها الاقباط بزئوج الكونغو (أغسطس ١٩٠٨) .

(٢) آخر سبابة عدد ١١٩٧ فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٥٧ مقال لعباس محمود العقاد .

(٣) مصطفى كامل لفتحى رضوان ص ٦٨ .

١٩٠٤ لم يعودوا يؤمنون بدول أجنبية يعتمدون عليها بل أصبح إيمانهم الوحيد أن القومية المصرية يجب أن تنبع من مصر وحدها وأن تعتمد على أذرع المصريين وحدهم . أما غير ذلك فعبث في عبث .

وقد حاول من تصددوا للدفاع عن مصطفى كامل أن يذكروا أنه كان لا يبغي غير الاستقلال التام وأنه لم يتخذ من تركيا غير تكأة يتكأ عليها تعاونه على هذا الاستقلال . وهذا كلام من السهل أن يقال . ولكن هل كانت تركيا هي الدولة التي تسدى الجميل دون أن تأخذ له ثمنا . إذ لم يكد مصطفى كامل يبدأ دعوته حتى هرع إلى استنبول ونجح في أن يقابل السلطان . الذي دعاه إلى صلاة الجمعة في الجامع الاحمدى وتقابل معه وفي أثناء هذه الزيارة أهدى إليه هدية من الذهب والماس ومن الطبيعي أن هذه الهدية لم تكن إلا نتيجة تفاهم تام بينهما .

وإذا كان مصطفى كامل قد تنصل في خطبته من تهمة اخلاص مصر لتركيا فقد كان صادقا في ذلك فهو بإيمانه بالجامعة الإسلامية دينيا وسياسيا لا يجد تعارضا مطلقا في تبعية مصر للدولة العلية وكونها مستقلة استقلالا تاما . فهو في حديثه مع الأميرالاي بازنج شفيق اللورد كرومر سألته الأخير عن جنسيته فأجاب (مصرى عثمانى) وحين تعجب الأخير لذلك وسألته (هل تجتمع الجنسيتان) فأجاب مصطفى « ليس في الأمر جنسيتان بل هي في الحقيقة جنسية واحدة . لأن مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع لا يختلف عن المتبوع (١) .

وقد كتب مصطفى كامل كتابا عن المسألة الشرقية وتطورها وصف فيها علاقة تركيا بالدول الأجنبية خلال القرن التاسع عشر وما كانت عليه من الضعف وتكالب الدول الأجنبية وخصوصا إنجلترا على اكتساب المنافع منها فلا يكاد يكتب كلمة سوء واحدة عن تركيا ولا يصورها إلا ضحية مسكينة لأطماع الدول الاثعبية القاسية . بل تمنى لتركيا الاحتفاظ بمصر حين كتب يقول « حسب الانجليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر وراء النيل ويضعون بذلك

(١) مذكراتى في نصف قرن لاحمد شفيق باشا ، والحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال ص ١٨ .

أيدهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية . والسلطة العثمانية ولكن
مما لا ريب فيه هو أن نصيبهم في مصر الفشل عاجلاً أو آجلاً .

بل اندفع مصطفى كامل في تأييد السلطان عبد الحميد في أعماله
الاستبدادية فوصم الوطنيين الاتراك الذين كانوا يعارضون سلطة السلطان
المطلقة ويطالبون بالدستور أنهم سابحون في الاحلام . بل وصل الى حد
تهديد المصريين أعضاء حزب الأمة الذين يطالبون بأن تكون مصر للمصريين
بنحاكمتهم طبقاً للقانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه (١) ولا أستطيع أن
أقول أن مصطفى كامل لم يؤد الى مصر خدمة بل كان الرجل وطنياً ولكن
من طراز خاص آمن بحقيقة واحدة وهى وجوب أن تكون مصر جزءاً من تركيا
فسمى لها . هذا الى أنه نجح في التشهير بالحكم البريطاني في مصر والعالم
الخارجى . وبذل في ذلك جهداً مشكوراً كما سعى الى نشر العلوم والمعارف
بين المصريين بالمشاركة في فتح المدارس على أساس من الدين القسوم
السليم من أجل تنبيه الراى العام بنشر الكتب وإنشاء الصحف وفهم الوسيلة
الفعالية لبث الروح الوطنية وإيجاد حب السؤدد والزمغة ومسابقة الأمم
الراقية وجعل الاستقلال رائدها (٢) .

وخلف محمد فريد مصطفى كامل في زعامة الحزب الوطنى فلم تختلف
سياسته عن سياسة سلفه في أول الأمر بل صرح في خطبته تأييد مصطفى
كامل (أن أحسن تأييد لفقيدتنا المرحوم هو أن نسير في نفس الطريق الذى
رسمه ومهده لنا) ولكنه اختلف عنه في المبادرة بطلب الدستور وصرح بذلك
للمستتر كتل العضو بمجلس العموم في حديث له حين لخص له مطالب
مصر في .

أولاً : الجلاء عن مصر .

ثانياً : إنشاء مجلس نواب .

ثالثاً : تأسيس حكومة أهلية محضة . ولم يشر الى تركيا بخير أو

(١) مجلة آخر ساعة عدد ١١٩٣ في ١٩٥٧/٩/٤ مقال لعياس محمود
العقباد .

(٢) اللواء سنة ١٩٠٧ .

سوء . وإذا ما بدأ الجهاد الايجابي بإدراك السفر إلى استنبول كما كان يفعل سلفه فوصلها في أبريل سنة ١٩٠٩ وكان جل عمله هناك تقوية روابط الود بين مصر وتركيا (١) ولتعريف إحرار تركيا بمقاصد الحركة الوطنية واجتياح مساعي إنجلترا في حمل تركيا على الاعتراف بمركز الاحتلال في مصر (٢) . وكان من شأن هذه الدعاية (الناجحة) أن اكبرت الصحف التركية من شأن مصر وأعجبت بجهادها ضد الاحتلال ومجدت الحركة الوطنية .

ولا اظن أحدا مهما بلغ به حسن الظن بهذا السعى يظن أن تمجيد الصحف التركية لجهاد هذا البطل وأعجابها بالحركة الوطنية معناه خروج مصر من التبعية العثمانية ، بل إذا سائرنا المدافعين عن الحزب الوطني في حسن ظنهم به لوجدنا أن أقصى آماني إحرار تركيا هو أن تكون تركيا ومصر دولة ثنائية شبيهة بنظام النمسا والمجر (٣) ما كان أحد من الإقياط يطمع في ذلك مطلقا .

وليس أدل على ولاء محمد فريد لتركيا من أنه جند نشاطه من أجل تأليف كتاب في تاريخ تركيا (تاريخ الدولة العلية) بل أنه دعا في صيف سنة ١٩١١ إلى التطوع في صفوف الأتراك لنصرتهم ونصرة الطرابلسيين في حربهم ضد إيطاليا . ولم ينس بعد هذه الدعوة المرور على استنبول ليتلقى ثمن هذه الدعوة من صحافتها ومن دوائرها السياسية كل حفاوة واجلال . وعندما دخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا سافر محمد فريد إلى ألمانيا وركز دعايته على نصره تركيا وألمانيا ضد إنجلترا . وإذا كان محمد فريد قد تخلى بعد ذلك عن مبدأ نصره تركيا ومناداته بمبدأ « مصر للمصريين » فليس له في ذلك فضل . إنما هو فضل الأتراك بعد أن أظهروا له وللعالم أجمع سياسة (الاتحاد والترقي) من إصرارهم على احياء الجامعة الطورانية التي تنادي باستعلاء العنصر التركي على غيره من العناصر التي تكون الامبراطورية العثمانية واحتقارهم للعرب .

وظهرت هذه السياسة صريحة حين أبلغه الأمير سعيد حليم في نوفمبر

(١) الشهيد محمد فريد ص ١٣٠ . (٢) المرجع السابق ص ٨٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

١٩١٤ نقمة الباب العالي منه ومن الحزب اليطسنى قولهم دائما « مصر
للمصريين وعندما تبين الرجل أن هذه الأفكار لسبت أفكار الأمير سعيد
حليم ، بل شاركه فيها معظم زعماء الترك وبخاصة طلعت وجمال فلم
يرضوا أن يقيّدوا أنفسهم بأى عهد لمصر خلال الحرب بل ظهرت هذه
السياسة منهم بطريقة عملية حين عين جمال باشا واليا على الشام في بداية
الحرب العالمية الاولى فنصب المشائق في ميادين دمشق وبيروت لزعماء
الشام المطالبين بالاستقلال .

واذا كان الاقباط قد وقفوا من الحزب الوطنى هذا الموقف فانهم لم
يترددوا عن مؤازرته حين رأوا مطالبه معقولة تحقّق آمالهم في الحكم القومى
الضحيح وذلك حينما طلب من الخديوى اصدار الدستور فأقبلت الامة على
تفضيده عن طيب خاطر اقبالا جماعيا وأخذت في توقيع العرائض التى طبعها
لذلك حتى اكتمل لديه الفوج الاول وعليها خمسة واربعون ألف توقيعاً
فرفعها الى الخديوى في ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٨ (١) . الى جانب الحزب
الوطنى وان عارضه في الاتجاه قام حزب الامة باعلان مفاجيء لحسن
عبد الرازق باشا في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وكان معنى هذه الخطوة
ان تلاميذ الشيخ محمد عبده لم يكتفوا بالعداء لأفكار مصطفى كامل بل عزموا
على تكوين حزب سياسى يساند (الجريدة) في ابداء وجهة نظرهم ورأس
هذا الحزب محمود سليمان باشا أحد اعيان الصعيد البارزين وجعل أحمد
لطفى السيد محرر (الجريدة) سكرتيراً عاماً له .

وكان الحزب في الواقع يضم أغلبية رؤساء العائلات . وعلى اثر اعلان
قيامه انضم اليه عدد من المحامين والاعيان ورأى الاقباط في هذا الحزب
ما يعارض الاتجاه الدينى الذى بدا واضحا في خطب مصطفى كامل لا سيما وقد
نادى هذا الحزب بأنه الممثل (للامة المصرية) فانضم اليه أربعة عشر قبطياً
جعل أحدهم ضمن اللجنة الادارية .

وانحصرت مبادئ هذا الحزب الجديد في أول الأمر في محاولة الاشتراك
مع الحكومة في وضع القوانين والمشروعات العمامة بالسففى في توسيع

(١) قبل اعلان تأليف الحزب الوطنى بشهر تقريبا .

اختصاص مجالس المديریات. ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ،
ثم النهوض بالتعليم والعمل على تقدم الزراعة والصناعة والتجارة . وكان
الاقتصار على هذه (الوسائل) يعنى ارجاء الهدف وهو المستقبل السياسى
للبلاد من هنا ظهر عدااء رجال الحزب الوطنى له كمتعاونين مع سلطات
الاحتلال التى كان يمثلها آنذاك سير الدون جورسفا (١) .

والى جانب هذين الحزبين الرئيسيين كانت هناك اجزاب اقل شأنًا
وهى :

١ - الحزب الوطنى الحر أو حزب الاحرار رأسه محمد وحيد الذى
اتهم جماعة الحزب الوطنى بأنهم جرثومة التعصب والفتن ويرى مسألة
المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم والسعى الى الشعب بنشر التعليم الابتدائى
ثم السعى الى الحكم النيابى .

٢ - الحزب الدستورى ورأسه ادريس راغب ويدعو الى الولاء
للسلطة الشرعية والبريطانية والخديوية ثم الى طئب الدستور على أن يكون
للأمر صوت وللمتعلم خمسة أصوات .

٣ - حزب النبلاء ورأسه حسن حلمى زادة ويدعو الى الدفاع عن
الخديوى والى عودة السيادة للعناصر التركية والشركسية .

٤ - الحزب المصرى ورأسه اخنوخ فانوس بعد أن أثارت مبادئ الحزب
الوطنى مخاوف الاقلية القبطية التى كانت تضيق بالدعوة العثمانية ويلح فى
اصدار الدستور بعد ازالة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الحقوق
والمصالح . وكان يشجع الاقباط على طلب العلم الذى يراه خطوة أساسية
فى التقدم وبلغ الأمر برئيسه أن أرسل فى سنة ١٩٠٨ عشرة من الشبان الى
الخارج فى بعثة علمية على نفقته .

٥ - حزب الاصلاح على المبادئ الدستورية ورأسه الشيخ على يوسف

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٥٠ - ٥٥ .

ودعيا إلى تدعيم السلطة الخديوية ومطالبة إنجلترا باعتبارها السلطة الحقيقية بتحقيق وعودها وكان الخديوي يؤيده لا لأنه يؤمن بالدستور بل لأنه كان يراه مساندا له ضد سلطة الاحتلال كما فعل جده اسماعيل .

٦ - الحزب الجمهوري ورأسه محمد فائق ويدعو إلى استقلال الجمهورية واتخذ من شعار الجمهورية الفرنسية (حرية - أخاء - مساواة) شعارا له وذلك يعد نيل الدستور والاستقلال التام الذي فسره بأنه استقلال ادارى فكان أن اتهم بالخيانة (١) .

ولم يخل الامر من رجال كانوا يعملون بعيدين عن هذه الاحزاب بمنا يرونه من الوسائل لمصلحة بلادهم . وبعيدين أيضا عن صيت الدعاية الكاذبة وليست لهم جرائد تعبر عن وجهة نظرهم ومن هؤلاء بطرس غالى باشا الذى شغل منصب وزير الخارجية فى وزارة مصطفى فهمى باشا ثم أصبح رئيسا للوزراء الى أن اغتيل فى سنة ١٩١٠ وما يؤسف له ان هذا الرجل لقي نفس الجود والنكران الذى وجده سلفه المعلم يعقوب حنا بعد أن اتهم مثله بالخيانة .

ولد بطرس غالى فى الايام الاخيرة لحكم محمد على وعاش حتى عصر عباس الثانى .

كان والده غالى بك نيروزا احد رجال مصطفى باشا فاضل بن ابراهيم باشا . وقضى صباه يتعلم فى مدرسة حارة السقاين التى انشأها كيرلس الرابع ثم فى مدرسة مصطفى باشا فاضل ثم التحق بمدرسة الترجمة حيث اتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية ثم تعلم القبطية وهو فى الثلاثين من عمره . واشتغل فى اول الامر مدرسا بمدرسة حارة السقاين ثم تقدم فى امتحان مسابقة بمجلس تجار اسكندرية (وهو الذى صار فيما بعد المحكمة المختلطة) وكان ترتيبه الاول فاشتغل كاتباً به . وما زال يرتقى حتى صار رئيس كتاب المجلس ولم يكمل الثلاثين سنة ومنها انتقل الى رئيس كتاب نظارة الحفانية .

(١) الحياة العزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٢١ - ٦٤ .

وبدأت الحكومة فى انشاء المحاكم الاهلية واخذت فى ترجمة القسوانين الاجنبية الى اللغة العربية فلم تجد خيرا منه للقيام بهذه الترجمة . وهناك التقى بنوبار باشا . ولم يكن قد تجاوز الثلاثين الا قليلا حين أصبح سكرتيرا عاما لوزارة الحقانية . كما عين مساعدا لمندوب الحكومة فى لجنة صندوق الدين . واذا عين رياض باشا رئيسا لهذه اللجنة أصبح بطرس غالى مندوبا للحكومة بها . ولم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين سنة حين عين وكيلا لوزارة الحقانية .

وقد وصفه معاصروه بالذكاء وبعد النظر واتساع الافق وتوة الشخصية ولذا لم يكذب يعين فى هذا المنصب حتى اخذ فى تعيين الكفاء فى وظائف القضاة الجديدة . وان اتهم بالتعصب الدينى حين جعل للأقباط نصيبا من هذه التعيينات . الا انه لم يحفل بهذه الصفات . فقد كان يرى مساواة افراد الأمة جميعا فى الحقوق والواجبات دون نظر الى دين . الامر الذى هو من الوطنية لبها وصميمها . وفى يونيو سنة ١٨٨٢ طلب عرابى باشا الانعام عليه برتبة الميرمران فأجيب الى طلبه .

واذا ما اضطربت أمور العربيين والخيوى . نصح العربيين بالترىث وطلب منهم أن يطلبوا الصفح من الخيوى كى لا يتخذ أعداء البلاد هذه الفرصة للدس بين أبناء الوطن الواحد فأنصاعوا لنصيحته ولم يجدوا خيرا منه ليحمل هذا الرجاء الى الخيوى .

ولا ينسى الأقباط له جهاده الحق فى سبيل انشاء المجلس الملى فقد عرف كيف يحمل الحكومة على أن تجافى الرئاسة الدينية على ما بيدها من أموال لتتصرف فيها بما فيه مصلحة الشعب . هو فى هذه الخطوة لم يكن قبطيا بقدر ما كان مصريا يسعى الى تعويد الشعب محاسبة رؤسائه مهما كانت سلطتهم ومهما كان مصدر هذه السلطة (١) .

واذا كان معاصروه قد ظلموه ووجهوا اليه مختلف التهم التى تنقص من

(١) الأقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٢٨ .

وطنيته بهذه كلهما لا تثبت أمام التمهيص النزيه . وأول هذه التهم أنه كان صنيعة الاحتلال يعمل بأمر المحتلين والحق أنه لو كان هؤلاء مكانه فما فعلوا غير ما فعل . فقد كان شابا حين رأى الانجليز يطيحون باسماعيل كأنه ملك من ورق اللعب دون أن يحفلوا بشيء . ورآهم وهم ينصبون توفيق رغم ارادة السلطان . ورآهم وهم يدسون بين توفيق والشعب . وكان الأول في أيديهم لعبة من اللعب .

ورآهم وهم يدخلون العاصمة دخول الظافرين ويكادون يحطمون كل مقدسات الوطن فرأى من الخير لوطنه أن يصانعههم . فالثورة عليهم لا تعنى غير الضرر ببلاده . وان نجحت هذه الثورة فئن تعنى غير العسودة الى الحكم التركى الفاسد الذى لا يعنى شيئا سوى الفوضى والرجعية . ولم تجن مصر من تبعيتها لتركيا طوال ثلاث قرون سوى التأخر والجمود والانحطاط . سواء فى مبدان التجارة أو الصناعة أو التعليم والاخلاق ولم يكن الحكم التركى فى هذه الآونة بالذات — تحت حكم السلطان عبد الحميد الثانى — فوق مستوى التشبهات . فالمصانعة هنا حكمة لا جن ولم يكن بطرس غالى فى هذه المصانعة نسيج وحده . بل آمن بها غيره كثيرون من رجال عصره . آمن بها سعد زغلول وآمن بها الشيخ محمد عبده وآمن بها طهى السيد . ولم يتهمهم أحد بالخيانة كما اتهم بطرس غالى وآمن الرجل بعد ذلك بأن خير سياسة نرسم من أجل مصلحة الشعب هى الرقى بهذا الشعب الى مستوى يؤهله للوقوف على قدميه قبل أن يرفع صوته بالمطالبة بالاستقلال . فقد يكون هذا الاستقلال مضرا به فى هذه المرحلة من النضوج غير المتكامل . واذا كانت انجلترا قد احتلت مصر وقضت على استقلالها كما قضت على دستورها وبرلمانها فما فائدة هذا الدستور وهذا البرلمان الذى لم يكن أكثر من لعبة يتلهى بها كل من الشعب والخدوى . كما ان الدستور لم يكن فى يوم من الايام غاية فى ذاته . بل هو لا يعدو أن يكون وسيلة لرفاهية الشعب . أما اذا لم يكن كذلك فبئس الدستور . وبئس أصحاب الدستور .

ووقع فى سنة ١٨٩٩ بصفته وزير الخارجية اتفاقية الحكم الثنائى للسودان وهى سيئة أخرى يأخذها أعداؤه عليه . والاتفاق فى حد ذاته — دون النظر الى مساوئه — نهاية طبيعية لسيطرة البريطانيين على مصر منذ

احتلالهم في سنة ١٨٨٢ ثم لاشتراك الحكومة البريطانية في استعادة السودان ما دامت الحكومة في ذلك الوقت عاجزة عن استرداده بمفردها . وكانت الظروف تحتم عليها أن تقوم بهذا الاسترداد في هذا الوقت بعد أن امتدت يد فرنسا وبلجيكا محاولان الاستيلاء على أجزاء منه وهل كان من المنتظر أن تشترك إنجلترا في الاستعادة لتتركه خالصا للمصريين . وكان هذا الاشتراك هو الثمرة التي سعت إنجلترا اليها منذ ١٨٦٩ حين افتتحت قناة السويس للملاحة واصبحت معها البحر الأحمر شريان المواصلات البريطانية نحو أملاكها في الشرق الأقصى (١) .

ومن المدهش أن ينصب جزء كبير من الحملات بل كل الحملات التي قادها الوطنيون على رأس وزير الخارجية دون غيره من الوزراء لأنه هو الذي وقعها باسم الحكومة المصرية . ولم يوجه أى عتات الى رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى باعتباره المسئول الاول عن سياسة وزارته أو غيره من الوزراء باعتبارهم متضامنين مع رئيسهم ووزير الخارجية في تحمل المسؤولية الوزارية .

وهذه المعاهدة وان كانت قاسية على مصر بالنسبة للدور الذي قامت به وللمصير الذي تكبدتها وللدماء المصرية التي أريقَت . الا اننا نسأل . هل كان هناك من بين المصريين من يستطيع عقد اتفاق أفضل منه . فضلا عن أنها لم تمس حقوق السيادة المصرية على السودان مطلقا وأنها لا تعد أن تكون اشتراكا في الإدارة . وإذا كانت مصر قد حرمت من مباشرة حقوقها في السودان . فان هذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق بقدر ما أتى نتيجة لعجز الجهات المصرية عن الاشتراك الفعلي في الإدارة والاستفادة من الاتفاقية بقدر ما تفيد من نصوصها .

هذا الى أن إنجلترا قد اعترفت أكثر من مرة بأن موقف مصر بالنسبة للسودان لم يتغير مطلقا فقد صرح اللورد كرومر أن هذه المعاهدة لم تبرم لغرض

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

انتقاص حقوق مصر الشرعية فعندما طلب مجلس شورى القوانين تبليغه
تناصيل ايرادات حكومة السودان ومصرفاتها لم يتردد اللورد في اجابة
هذا الطلب (١) كما ان انجلترا رفضت أن تتحمل أى نصيب من نفقات الادارة
في السودان (٢) لأن موقفها منه لا يعدو أن يكون موقف من أو تمن على وديعة
ليسلمها الى صاحبها غير منقوصة .

وقد حوت هذه المعاهدة كثيرا من الغموض ومع ذلك لم يحاول أحد من
الوطنيين فيما بعد حتى سنة ١٩٥٢ الاستفادة منه . فاذا كانت هذه المعاهدة
قد بينت كيفية تعيين حاكم السودان العام . فانها لم تبين كيفية تعيين بقية
الموظفين الكبار ولا جنسيتهم وعندما عين ونجحت في سنة ١٩١٠ السكرتيرين
الثلاث ثم مجلس الحاكم . لم تحاول السلطة المصرية مطلقا ان تفرض عليه
ولو مصريا واحدا . وكذلك عند تعيين كبار الموظفين لم تحاول السلطة
المصرية التدخل مطلقا من أجل تعيين بعض المصريين في بعض المناصب التي
لها خطرهما في السودان . وهذا الجنب الذي مكتبه المصريون على أنفسهم
لا ينصب فقط على وزراء مصر حتى سنة ١٩١٤ بل يتعداهم الى كل من تولى
السلطة حتى عام ١٩٥٣ .

هذا ، الى هذا الاتفاق وان بين كيفية تعيين الحاكم ومدى سلطته . الا انه
كان غامضا من حيث حق مصر في معارضة التعيين وحق مصر في عزله . ولم
يحاول أحد من الذين ادعوا الوطنية فيما بعد حتى سنة ١٩٥٣ الاستفادة من
هذا الغموض . مع ما أتاه الحاكم العام في كثير من الاحوال من تحدى السلطة
المصرية في اكثر من مناسبة . واذا جاز أن نقول أن محاولة تدخل
الوزراء سواء في المعارضة أو من أجل عزل الحاكم لا تجدى لانها لا تملك
القوة التي تجعل قرارها نافذا . فان مجرد محاولة الوزارة عرقلة التعيين
أو محاولتها العزل كان يكفى لأن يخلق حالة تجعل انجلترا تتردد مرة اخرى في

The Unity of The Nile Valley p . 74
I bid p - 66

(١)

(٢)

الانفراد بالامر . هذا الى ان الحالة بعد سنة ١٩٠٨ قد تغيرت بعد ان خلقت محكمة المسدل الدولية وأصبح الاختلاف على تفسير المعاهدات أهم اختصاصاتها .

فمصر اذا كانت قد حرمت من كثير من حقوقها في السودان بمقتضى هذا الاتفاق فهذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق قدر ما أتى من عجز الجهات المصرية الوطنية عن الاشتراك النفعلى فى الادارة . بعد ان سلموا متوالين للبريطانيين بجميع الحقوق على طول الخط مدة استطالت الى أكثر من نصف قرن . رغم تغير الظروف التى أبرم فيها هذا الاتفاق ورغم قيام الحركة الوطنية وازدياد الشعور بالقومية المصرية . وازدياد الشعور بالفن الذى وقع على مصر . هذا الى ان الزعماء الوطنيين الذين حاولوا مفاوضة انجلترا منذ سنة ١٩١٩ والذين تولوا الحكم لم يحاولوا مطلقا تغيير نصوص هذا الاتفاق بل كان جل أمانتهم هو العمل على تنفيذ هذا الاتفاق والاشتراك فى الادارة عمليا بالقدر الذى يتيح لهم الاتفاق (١) .

ولنسائر المتشائمين فى تشائمهم لنرى ماذا ضيع هذا الاتفاق من حقوق لمصر فى السودان فقد استأذن محمد على السلطان فى فتح السودان . ولسنا الآن فى صدد بحث الاسباب التى أدت الى هذا الفتح — فأذن له على ان يضم ما يشاء من اراضى السودان على أن يكون ذلك باسم السلطان (٢) وتقدمت الجيوش المصرية الى السودان ونجحت فى مهمتها . فأصدر الباب العالى أمرا الى محمد على بتعيين ابنه اسماعيل حاكما على سنار سنة ١٨٣٢ ولا جدال فى أن معنى هذا الامر تبعية السودان للسلطان لا لمصر . اذ ليس لدولة مسلوبة السيادة أن يكون لها سيادة على دولة أخرى .

حتى اذا ما تازمت الأمور بين السلطان ومحمد على فى سنة ١٨٣٩ تدخلت الدول الأجنبية انتهى امر الى صدور فرمانى ١٣ يوليو ١٨٤١

(١) الكتاب الاخضر المصرى عن السودان ص ١٧ و ٤٠ و ٦٢ .
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٥ .

وبمنح أحدهما محمد على ولاية مصر على أن يكون حكمها وراثيا . ويعطيه
الثاني حكم السودان مدة حياته وقد جاء في فرمان السودان ما نصه (لوزيرى
محمد على باشا والى مصر المعهودة اليه مجددا ولايات مقاطعة النوبة
ودارفور وكردفان وسنار ان سدتنا الملكية كما نوضح فى فرماننا السلطانى
السابق قد ثبتكم فى ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة
وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان
وسنار وجميع تعوابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق
التوارث) (١) .

ولا أظن هذا الا دليلا واضحا على السودان لا يتبع مصر بحال من
الاحوال وحدث بعد ذلك أن صدر فرمان سنة ١٨٤٩ بتولى عباس باشا حكم
مصر والسودان (على أن يكون لعباس حكومة مصر وتوابعها على أن يكون
ذلك بالشروط التى وردت فى فرمان المرسل الى محمد على باشا) ومعنى
ذلك ان حكم مصر وراثى فى أسرة محمد على أما حكم السودان فلمدى
الحياة (٢) .

وواضح من كل ذلك انه لم يترتب على هذه الفرمانات أى نوع من
السيادة المصرية أو الحقوق فى السودان . فالسلطان وان كان لا يملك حق
سلب أسرة محمد على ولاية مصر الا انه يملك حق سلبها حكم السودان
فى أى وقت يراه .

وفى سنة ١٨٦٦ نجح اسماعيل باشا فى الحصول على حق الوراثة
الصلبية وامتد هذا الحق الى السودان (على هذا جميعه أن تنتقل ولاية مصر
مع ما هو تابع اليها من الاراضى وكامل ملحقاتها وقائم مقاميتى — سواكن
— ومصوع الى اكبر اولادك الذكور بطريق الارث بالصورة نفسها الى اكبر
اولاد ذريتك » (٣) .

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٢٠ .

(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٣٠ .

(٣) فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الموافق ١٢ محرم الحرام ١٢٨٣ .

فاذا كانت مصر قد كسبت من هذا الفرمان حق التوارث الصلبي في السودان أيضا الا أن مركز السودان القانوني لم يتغير عن كونه تابعاً للسلطان لا لمصر وهو يملك حق سلبه له .

وحدث أن عجزت الحكومة المصرية عن إدارة السودان إدارة حسنة فلم تأت سنة ١٨٨١ حتى كان هذا الجزء يغلى بالثورة وعجزت الجيوش المصرية عن سحقها ولقى هكس باشا حتفه وأبید جيشه في موقعة شيكان سنة ١٨٨٣ . مما جعل الحكومة البريطانية وقد أصبحت صاحبة الأمر في مصر منذ سبتمبر ١٨٨٢ تشير على الحكومة المصرية باخلاء السودان وعملت الحكومة المصرية بهذه النصيحة . وأرسل لذلك الجنرال جوردون الذي فشل لا في الاخلاء فحسب بل في انقاذ الجيش المصرى الذى كان هناك بل قتل جوردون في السابع من يناير سنة ١٨٨٥ .

ومنذ الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ لم يعد للحكومة المصرية صورة من نفوذ في السودان وأقيمت هناك حكومة وطنية تجحت في فرض سلطتها على بعض اجزاء السودان وهى وان فشلت في الحصول على اعتراف الحكومات الاجنبية بها الا انها كانت الحكومة الشرعية الوحيدة وصاحبة السلطة الفعلية هناك .

واعترفت الحكومة البريطانية بأن السودان قد أصبح أرض خلاء . ودعت الحكومة الاجنبية أن تضع يدها على اجزاء منه . فاذا ما أبرمت فى يوليو ١٨٩٠ اتفاقاً مع المانيا لتعيين المناطق الاستعمارية لكل من الدولتين بساحل افريقية الشرقية احتفظت انجلترا لنفسها بجميع حوض النيل الاعلى حتى الحدود المصرية . . وكانت تعتبر هذه المنطقة أرض خلاء لا يملكها أحد . اذ لم يذكر فى هذا الاتفاق ان انجلترا تحتفظ بالمنطقة المشار اليها نيابة عن السلطان العثمانى أو الخديوى (١) واذا كانت فرنسا قد نادت بغير ذلك فلم يكن موقفها هذا بسبب مصر بل بسبب موقف العناد الذى وقفته أمام بريطانيا منذ انفراد الاخيرة باحتلال مصر . حتى اذا غيرت انجلترا موقفها وعادت تذكر ان السودان من أملاك مصر . (وما كان يوما من

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٣ .

أَمَّا لَهَا) . وقفت فرنسا في الناحية الأخرى وأعلنت أنه أرض خلاء وأرسلت جيشها بقيادة الجنرال مارشان لاحتلال أعالي النيل ونجح فعلا في الوصول إلى فاشودة وإذا كان مارشان قد انسحب بعد ذلك منها فلم يكن ذلك تسليمها منه بحقوق مصر أو السلطان في السودان بل لأن فرنسا لم تكن مستعدة للاشتباك في قتال قد يعود على مستعمراتها وعليها بأوجهم العواقب (١) .

وإذا كانت مصر قد نجحت بعد ذلك في استعادة السودان فلم يكن ذلك نتيجة لمساعدة السلطان العثماني لها سواء بالمال أو الجند كما أنه لم يكن نتيجة لدعواها في السيادة السابقة على السودان . وكانت الاستعادة بالاشتراك مع البريطانيين . وكانت نتيجة هذا الاشتراك عقد هذا الاتفاق الذي أطلق عليه اسم اتفاق السودان وهو الذي يبيح لبريطانيا الاشتراك مع مصر في إدارة السودان .

فليست هناك إذن أي حقوق لمصر أو سيادة مصرية أو شبهة لسيادة مصرية ضيعها هذا الاتفاق . وإذا كانت هناك سيادة على السودان . فإنها كانت لتركيا ولم تحاول هذه الدولة الاحتفاظ بهذه السيادة أو بذل أي مجهود للاحتفاظ بها فهذا الاتفاق إذا كان قد بدد سيادة ما . فقد بدد السيادة التركية التي كانت قد تبددت من تلقاء ذاتها منذ قيام الحكم الوطني في السودان .

ويبدو أن مصطفى كامل كان حريصا على هذه السيادة التركية أكثر من حرصه على أي شيء آخر ولعله كان يرى نفسه ممثلا للدولة التركية في مصر أكثر مما هو مصري ، فبطرس غالي بعقده هذا الاتفاق لم يكن إلا معترفا بالحقيقة الواقعة وهي أن مصر وإنجلترا قد فتحتا بالاشتراك أرضا جديدة . لهما الحق في حكمها .

ومع ذلك فقد حرص بطرس غالي على أن يؤكد « حقوق » مصر في السودان التي كان يرى أن الاتفاق المصري البريطاني لم يمسها في قليل أو

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٦ .

كثير . فقد انتهز فرصة المفاوضات البريطانية الفرنسية بشأن فاشودة ليكتب الى القنصل البريطانى « ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغيب عن نظرها فى حين من الاحيان العودة الى استئناف احتلال الاقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الاقاليم الا عقب قوة قاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة » .

« ولعزم الحكومة المصرية ان مسألة فاشودة هى موضوع مفاوضات الآن بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فانها تكل الى ان اطلب الى سيادتكم ان تفضلوا يحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليقم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الاقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد ابن عبد الله المهدي (١) .

ورأى بطرس غالى بصفته وزيرا للخارجية ما جرت به على البلاد سياسة وخز الابر التى سار عليها كل من اللورد كرومر والخديوى . فقد كان كل منهما يحرص على ان تكون الكلمة العليا له ولم تجن البلاد من ذلك سوى ضياع هيبتها وفقد كرامتها . فقد كانت الازمات فى العادة تنتهى بانتصار اللورد كرومر ، فقد انتقد الخديوى الشاب نظام الجيش المصرى عندما زار الحدود الجنوبية فعد اللورد كتشنر هذا الانتقاد انتقاضا لقدرته كسردار عام للجيش المصرى وكانت النتيجة ان ارقم الخديوى على الاعتذار . وامثال هذه الحادثة كثير . فلم يجد الوزير الحريص على كرامة بلاده بدا من التقريب بين الخديوى والانجليز فما ان زار معه انجلترا فى سنة ١٩٠٨ حتى انتهى مع وزارة الخارجية البريطانية الى تغيير هذه السياسة الى سياسة الوفاق اى تفاهم الطرفين على الاشياء قبل تنفيذها . اى تنازل الحكومة البريطانية عن سياسة حصر السلطة كلها فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين البريطانيين . بل تركت للمصريين امر التصرف فى سياستهم داخل اطار خاص . فأسندت بعض المناصب الكبيرة الى الاكفاء من المصريين فأقبلت وزارة مصطفى باشا فهمى وأسست الوزارة الجديدة

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٣٨ .

الى بطرس غالى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨، ولم يدخلها من أعضاء الوزارة القديمة غيره وسعد زغلول باشا ودخاها حسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا وكل منهم وطنى صادق الوطنية . وجدير بنا أن نشير الى تاريخ تولية بطرس غالى الوزارة كحدث وطنى جدير بالتسجيل فى التاريخ المصرى اذ كان بطرس غالى باشا أول وزير من أصل مصرى تولى منصب الوزارة منذ انشائها . بل أول رئيس وزراء اختاره الخديوى دون تدخل من الانجليز .

ونستطيع الآن أن نذكر فى كثير من الأيجاز ما عرف فى السياسة المصرية (بأزمة طابا) دليلا على وطنية هذا الرجل وصدق خدمته لبلده أن سياسة الوفاق التى أسسها مع بريطانيا لم تكن خيانة معه لبلده كما ادعى المعارضون .

فى سنة ١٨٩٢ حين تولى عباس الثانى السلطة أصدرت له تركيا كعادتها فرمان التولية ولكنه هذه المرة جاءت به بعض التعديلات عما سبقه من فرمانات التى صدرت لكل من عباس الاول وسعيد واسماعيل وتوفيق . وقد قصدت تركيا بهذا التعديل استرداد شبه جزيرة سيناء من مصر وهى التى حصلت عليها بمقتضى فرمان سنة ١٨٤٠ — وهو فرمان الذى جعل حدود مصر الشرقية خطا مستقيما يصل من رفح ورأس خليج العقبة — جزءا من مصر .

وقد حاولت تركيا بهذا فرمان — الى جانب استرداد شبه الجزيرة التى أصبحت على درجة كبيرة من الأهمية منذ افتتاح قناة السويس — تحرير علاقتها بمصر من الصيغة الدولية التى كسبتها فى اتفاق سنة ١٨٤٠ .

ومما يؤسف له أن الحزب الوطنى ومن ورائه مصطفى كامل لم يتردد فى تأييد الباب العالى فى هذه المحاولة حتى وأن أدى الى تمزيق وحدة الاراضى المصرية التى لم تكن تعنيه قدر عنايته بوحدة أراضى الدولة العثمانية وهو المبدأ الذى اتخذه مصطفى كامل أساسا لجهاده الوطنى .

ولكن مصر لم تلبث أن تنبعت الى هذه المحاولة وعدل فرمان التولية واحتفظت مصر بسياستها كاملة على شبه الجزيرة .

وفي سنة ١٩٠٥ — حين كان مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزارة المصرية وبطرس باشا غالى وزيرا للخارجية — حاولت تركيا هذا الأمر مرة ثانية حين شرعت فى تعزيز قواتها فى طابا الذى تقع على الناحية الغربية من رأس خليج العقبة .

ووقف الحزب الوطنى من جديد نفس موقفه السابق متفاضيا أيضا عن المصالح المصرية مضحيا اياها على مذهب المصالح التركية التى كانت نمده بالمال والتأييد من أجل مقاومة الاحتلال البريطانى لمصر متناسيا ان كلا من بريطانيا وتركيا مستعمران لبلده . ولكن الحكومة المصرية بادرت الى التصدى لهذه المحاولة الجديدة وحفظت وحدة الاراضى المصرية بالرغم من ان الوالى (عباس الثانى) حاول أن يلعب فيها دورا مزدوجا حين تظاهر بتأييد الوزارة فى مسعاها فى الوقت الذى ارسل فيه أحمد شفيق باشا الى استنبول ليقابل السلطان ليطعن الوزارة من وراء ظهرها .

وقد استندت تركيا فى هذه المحاولة الجديدة الى ان (مصر كلها — مقاطعة متممة للممالك الشاهانية وليس هناك من حدود بينهما الأمر الذى يعد منافيا لصداقة التبعية) .

ووجهة النظر التركية هذه وان بدت منطقية لعلاقة مصر بتركيا الا أنها كانت منافية منافاة صريحة للاتفاقات الدولية المبرمة بشأن مركز مصر الخاص تحت ولاية بيت محمد على (١) وقد كانت الحكومة المصرية ومن ورائها بطرس غالى وزير الخارجية متشددا غاية التشدد فى موقفه وظهر هذا التشدد واضحا فى ردوده على السلطان الا أن الخديوى كان كثير التدخل من أجل تخفيف لهجة التشدد كما أنه كان يرسل الى السلطان من وراء ظهر وزير خارجيته برقيات متتالية بهدم النظرية المصرية ويقول « ان نفسير

(١) لم يجر الى جعل العلاقة التركية المصرية الى علاقة دولية الا ضعف تركيا واستئجارها لكل من انجلترا وروسيا حين هددت الجيوش المصرية استنبول وبدا العرش السلطانى على وشك الانهيار .

الاتفاقات وايضاها هما من حق صاحب الامر دون سواء وان الدولة التي تترك ادارة جهة من جهاتها الى أحد اتباعها « مصر » هي صاحبة الحق في أن تسترد هذا الحجة » .

ونحن لا ننكر ان موقف التشدد الذي كانت الحكومة المصرية تقفه كان مؤيدا من بريطانيا تحقيقا لمصالحهما من ناحية وتأييدا لسيادة الوفاق التي اتفقت عليها مع وزير الخارجية المصرية ولكن هذا التأييد لا يجب أن يعطينا عن انه كان لصالح مصر ١٠٠ ٪ .

وكان من نتيجة هذا التشدد ان تراجعت تركيا عن محاولتها بعض التراجع وعرضت اقتسام شبه الجزيرة بين مصر وتركيا ولكن الحكومة المصرية ظلت محافظة على موقفها الأمر الذي أرغم الخديوى على التراجع عن دوره المزدوج لا سيما وقد ترددت الاشاعات ان انجلترا لم تكن تتردد في عزله .

ومما هو جدير بالذكر ان الخديوى حاول خلال الأزمة ان يلعب على وتيرة الدين حين جعل رسوله شفيق باشا مبعوثه الى السلطان يسأل السلطان التساهل في مسألة دير السلطان للقدس الذي كانت الكنيسة المصرية تتمسك بملكيتها والموافقة على وجهة نظرها لقاء رضا بطرس غالى القبطى فيتساهل في تبعية سيناء لمصر ولكن وظيفة بطرس غالى تنأ به عن هذا الموقف .

وانتهت الازمة في مايو سنة ١٩٠٦ (على بقضاء القديم على قدمه) واحتفاظ مصر بشبه الجزيرة كاملة لسيادتها .

ولنتصور معا ما كان يحدث لشبه جزيرة سيناء ولقناة السويس فيما لو نجحت تركيا في هدفها وزحفت الحدود التركية حتى قناة السويس ثم جاءت الحرب العالمية الاولى وقسمت الاراضى اعربية بين الدول المنتدبة وجاءت انجلترا الى فلسطين ومعها وعد بلفور وسمحت لليهود بالهجرة وسكنى شبه جزيرة سيناء واستقروا على الضفاف الشرقية للقناة منذ سنة ١٩٢٠ .

وكان بطرس غالى الوطنى قد نظر الى المستقبل بعين السياسى البعيد

النظر ورسم سياسة الوفاق التي ضمنت لمصرية تأييد إنجلترا لموقفها في هذا النزاع وهو الموقف الذي رماه بعض المؤرخين بسببه بتهمة الخيانة (١) .

منذ سنة ١٩٠٢ أخذ عدد اليهود اللاجئين الى إنجلترا هربا من الاضطهاد الروسى والرومانى يزداد والحكومة غير راضية عن وقفهم بسبب سياستها ، ولكنها من ناحية أخرى لانهم كانوا يقبلون أجورا أقل من أجور البريطانيين مما أدى الى تفاقم العطلة بين العمال .

وحضر هرتزل الى لندن طالبا اتخاذ أرض لتجميع اليهود عارضا أوغندا أو قبرص أو سيناء وكان هرتزل قد عرض هذا الاقتراح على السلطان (عبد الحميد الثانى) بعد أن اتخذ فيه مؤتمر بازل الخامس قرارا بالموافقة عليه وقابل فى ذلك اللورد روتشلد (وكانت أوغندا تشمل أوغندا الحالية وكنيا) واتفق الاتفاق على تركيز جهودهم على لندن حتى اذا قابل هرتزل مستر تشامبرلن وزير الخارجية مال هذا الاخير الى قبوله رغبة فى التخلص من اليهود الوافدين على إنجلترا ولم تلبث قبرص ان استبعدت لثلاثين الروسيا النى كانت تدعى حماية الارثوذكس فى العالم (ما عدا مصر) واستمر الراى على أن فلسطين ومعهما شبه جزيرة سيناء هى أرض الأمل .

وكان تشامبرلن يرغب من ناحية أخرى فى أرضاء اليهود وأهالى جنوب افريقيا للاستيلاء على مناجم الذهب هناك وكانت سياسة بريطانيا ازاء هذا الجزء من مستعمراتها هى استرضاء أهلها بعد أن هزموا فى حرب التحرير كما ان استقرار اليهود فى فلسطين تحت حماية بريطانيا تجعل من هذا الجزء أملا بريطانيا بعد انهيار تركيا .

وكان مفتاح هذا الموقف اذن فى يد الحكومة المصرية التى تملك التصرف فى أمورها منذ فرمان سنة ١٨٤٠ كولاية ممنازة وتحت ارشاد بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ وانتهى الامر الى قدوم بعثة صهيونية فى يناير سنة ١٩٠٣ مكونة من ستة أغلبهم من المهندسين ومكنت بها نحو شهر وكتبت تقريرا عن أحوال

(١) ابراهيم أمين غالى فى « شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ الحديث » عدد ٤٨ من مجلة السياسة الدولية أكتوبر سنة ١٩٧٤ م .

شبه الجزيرة قدرت عدد سكانها ٨٠.٠٠٠ مواطنًا يقطنون خمس مناطق وانتهت إلى أن المنطقة غير صالحة لسكنى الأوروبيين ولكن إذا حلت مسألة الماء بإنشاء الآبار أمكن إصلاح أجزاء كبيرة منها زراعة القمح والذرة والشعير والبقول كالعدس والفلول والصوبيا ومن الفواكه البلح والتين والبرتقال والليمون والزيتون والخروب وبعض الأشجار الخشبية كالكافور ، كما يمكن إنشاء بعض الصناعات الزراعية للزيوت وسكر القصب والفواكه المجففة والأنبذة والكحول بل بلغت بها الجراة أن حددت حدود المنطقة التي تجرى المفاوضة بشأنها مع الحكومة المصرية بالحدود التركية شرقا وقناة السويس غربا والبحر الأبيض شمالا ومرتفعات التيه جنوبا أي كل شبه جزيرة الجزيرة بل يرى التقرير أن يقوم الفلاحون المصريون بالمجهود الزراعي بل حرروا صيغة عقد لعرضه على الحكومة المصرية يتيح لهم (احتلال) الأرض واستعمارها مدة ٩٩ سنة ثم استغلالها بالصورة التي يرونها ، بل للشركة حق تجديد الامتياز لمدة مماثلة ، ورغم الاقتراح إلى الوزارة المصرية مشفوعا بتوصيات الحليف البريطاني ولكن لم يكدم أسبوعان حتى تلقت من بطرس غالي وزير الخارجية المصرية ردا بأنها (لا تستطيع وفقا للقرارات الشاهانية لأي سبب أو مبرر التنازل عن جزء أو كل الحقوق المتعلقة بالسيادة وكذا فإنه يجب أن نستبعد بصفة قاطعة كل فكرة ترمي إلى الحصول على اتفاقات من هذا النوع) وفي نفس اليوم أرسل اللورد كرومر إلى حكومته صورة من رد الوزير مع رأيه الشخصي انذى يقول ، إن الحكومة المصرية غير مستعدة للأخذ بهذا الاقتراح لأنها لا ترى فيه أي نسبة من العدل ومن ثم ترى وجوب صرف النظر عن هذا المشروع .

هذا هو موقف الرجل الذي يرميه بعض المؤرخين بالخيانة ومسايرته للانجليز في كل مشروع وأن كان ضارا بمصر فها هي الحكومة البريطانية تعضد المشروع وتوصي هرتزل بالمضي فيه بل ساعدته على إرسال القضية اليهودية ولكنها لم تملك إلا النزول عنه بعد موقف التشدد الذي أبداه وزير الخارجية المصري (١) .

(١) إبراهيم أمين غالي الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية في شبه جزيرة سيناء ، مجلة السياسة الدولية عدد ٤٣ يناير ١٩٧٦ .

أما بعث قانون المطبوعات فان المسؤولية لم تكن على بطرس غالى بل على الخديوى عباس نفسه ، ففى أكتوبر سنة ١٩٠٨ تقابل الخديوى مع جراهام نائب الدون جورست الذى حل محل كرومر وحدثه فيما وصلت اليه الصحف المصرية من تمادى فى نقده الى حد أن اتهمته صحيفة الحزب الوطنى بالخيانة وطلب وضع قانون لكبح جماحها فلم يوافق جراهام على هذه الفكرة ولكن ذلك لم يمنع الخديوى من أن يطلب الى بطرس غالى الذى أصبح رئيسا للوزراء سن هذا القانون فرضخ بطرس غالى للرجبة الخديوية وقدم هو القانون الى مجلس الوزراء فعارضه كل من سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد مما أدى الى تدخل الخديوى شخصيا لدى الوزراء المعارضين وبعد أن وافق على القانون مجلس الوزراء أرسل الى مجلس شورى القوانين الذى كان فى استطاعته رفضه ولكنه وافق عليه دون أى تعديل مما يدل على تدخل الخديوى لدى النواب أيضا .

وكان من ملتمسه هذا ان رأى بطرس غالى صورة ادخال تعديل على سلطة مجلس شورى القوانين يعطيه الحرية فى مراجعة أعمال الحكومة واتفق فى ذلك مع ممثل انجلترا وكان غريبا ان الحزب الوطنى عارض هذه الرغبة بدعوى ان الحكم الدستورى يعارض الاسلام (١) .

وقد حاولت انجلترا فى ظل هذه السياسة الجديدة أن تحمل الحكومة المصرية على مد امتياز شركة قناة السويس الى مدة جديدة نظير مبلغ عاجل من المال وزيادة نصيبها من الارباح وكانت الصفقة ولا شك خاسرة لمصر . فما كان من الوزير الا أن أوعز الى مجلس شورى القوانين — بعد ان تظاهر هو بالموافقة — بأن يطالب بمناقشة هذا الاتفاق وما تقدم المجلس بهذا الطلب حتى أسرع رئيس الوزراء بتلبيته . أما عن دفاع الوزارة عن المشروع أمام المجلس فنيس بطرس غالى مسئولا عنه فقد مات الرجل قبل نظره . ولسنا فى ذلك نلتقى الكلام على عواهنه بل نستدل عليه بأن بطرس غالى كان رئيس

(١) ابراهيم أمين غالى — شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ — السياسة الدولية عدد ٣٨) .

الوزراء الاول الذى قرر علنية جلسات مجلس الشورى (١) بعد ان كانت سرية وجعل الوزارة مسئولية امام المجلس عن اعمالها (٢)، وبذلك مكن الراى العام من الاطلاع على اعمال كل من الوزارة ومجلس الشورى كما مكن السلطة الدستورية الصورية من ان تصبح سلطة دستورية فعالة وليس هذا بعمل رئيس الوزراء الذى يعمل عملا يخاف ظهوره ولم يكن هذا العمل الوحيد الذى فعله رئيس الوزراء من اجل تمكين الشعب من الاشراف الفعلى على اعمال السلطة التنفيذية بل والاشتراك فيها فقد عدلت وزارته قوانين مجالس المديرية فزادت من عدد اعضائها فجعل لكل مركزا عضوين كما حولت هذه المجالس سلطة فرض ضرائب اضافية على الاطيان لانفاقها على المنافع العامة ومنها التعليم (٣) .

وكانت نتيجة شجاعة هذا الرجل الذى حمل رأسه على كتفه أينما ذهب ان اعتدى عليه علنا فى العاشر من فبراير ١٩١٠ ومات الرجل وهو يردد (يعلم الله انى لم اعمل عملا يضر ببلادى) وكان الرجل صادقا . فبطرس غالى هو الذى :

١ - علم المصريين قيمة العمل الهادى المبني على التعاون الصادق والذى يرمى الى خدمة الوطن دون اللجسوء الى الصخب الذى يرمى الى الدعاية اكثر مما يرمى الى الخدمة .

٢ - اشعر المصريين بضرورة تعاون جميع أبناء الامة وقد جعله ذلك موضع تقدير كثيرين من المسلمين الصادقى الاسلام كالشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار . اذ لم يكن يتردد عن خدمة احد اذا وجد الحق فى جانبه .

٣ - علم المصريين كيف يقف الرجل مدافعا عن رايه فى شجاعة دون

(١) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

(٢) مقال لجمال حسين هيكلى عن بطرس غالى بالمجلة الجديدة سنة ١٩٣٥ .

(٣) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

النظر الى رأى الآخرين ما دام يرى الخير فى جانبه . اذ انه لم يتردد وهو الوزير القبطى عن أن يتدخل بنفسه عند اصلاح المحاكم الشرعية ويعطى حاكم البلاد حق تعيين قاضى القضاة وكذلك حق اصلاح ما يراه دون تدخل من السلطان فقطع بذلك خيطا قويا من خيوط السيادة التى تربطها بمصر بينما كان رجال الازهر وعلى راسهم الشيخ حسونة النواوى يعترضون ويصرون على أن السلطان العثمانى هو وحده الحاكم الشرعى المطلق فى الامور الشرعية وان القاضى الاكبر العثمانى هو نائبه يعين بأرادته ويفصل بمجرد ارادته ولا حق للحكومة المصرية باحداث أى تغيير فى هيئة المحكمة الشرعية لأن ذلك ليس من اختصاصها (١) ووافقهم على هذا الرأى اعضاء مجلس شورى القوانين . وان هذا الموقف ليزكرنا بموقف هؤلاء المشايخ انفسهم أيام نابليون حين اراد أن يعين مصرية فى منصب القاضى الاكبر ورفضوا جميعا هذا التعيين .

فبطرس غالى هو الذى استيقظ قبل معاصريه ووقف على حقيقة بلاده ففضل أن يتجرع حقيقتها المؤلمة فحاول أن يجعل هذا العلقم عسلا عن أن ينام فى نعيم الخيال .

وقبل أن تصل هذه الحقيقة الى نهايتها فى سنة ١٩١٨ ظن الانجليز أن مصر قد خلصت لهم الى الابد فقد أصبح التعليم المصرى خاضعا لهم تمام الخضوع واثبت رجالهم فى جميع مصالح الحكومة يسيرونها ، كما خيل اليهم وراح السير الدون جورست يطوف أنحاء البلاد (٢) متفقدا هذه البقرة التى أصبحت غنية سهلة للشركات البريطانية بعد أن توسعت فى زراعة القطن من أجل مصلحة لانكشاير بل أكثر من ذلك فقد قضاوا على القومية المصرية حيث بثوا التفرقة بين ابنائها وأقصوا الاقباط عن مناصبها وجعلوا فريقا من الأمة يعتقد فى حقه وحده فى أن يحتل كبرى وظائفها بدعوى نيابة صاحبها عن ولى الأمر بل حرموا بناتهم من الالتحاق ببعض المدارس (٣) حتى اذا سن

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٣٥ .

(٣) تصريح وزير المعارف بجلسة مجلس شورى القوانين فى ١٨/٦/١٩٠٩؛

القانون الذى يؤيد هذه التفرقة كان مشجعا لسن قانون آخر مشابه له خاص بالذكر (١) رغم المعارضة الشديدة لبعض أعضاء الهيئة التشريعية . وبذلك خلقوا غتنة التمييز المذهبى بين أبناء الوطن الواحد (٢) وتظلموا أمام المصريين بأنهم أول من ينصر الضعيف ويأخذ بحق من الغالب (٣) ودفعوا ببعض الأجانب كالشيخ عبد العزيز جاويش (٤) الى سب الاقباط سبا جارحا حين نددوا بسياسة التفرقة فتقدموا بالشكوى الى رئيس الوزراء مطالبين بمساواة المصريين جميعا فى الحقوق كما هم متساوون فى الواجبات (٥) وإباحة جميع الوظائف فى وجه الكفلاء من المصريين جميعا بلا قيد بالمذهب أو الدين (٦) .

فى الوقت الذى ظن فيه الانجليز هذا الظن الخاطيء وناموا على سرير من الورد نسجوه من أحلامهم الواهية وجه الاقباط الى الاحتلال ضربة قاصمة حين دعوا الى عقد المؤتمر القبطى فى أسبوط ليرموا بالقفاز فى وجه الانجليز وليعلنوا ان هؤلاء الدخلاء هم سبب هذا البلاء الذى تقاسيه الامة من حيث اشاعة التفرقة بين أبناء الوطن الواحد (٧) وانتخبت لذلك لجنة من بشرى بك حنا وجورجى بك ويضا وبسطوروس خياط وسينوت حنا وتوفيق دوسن قررت توجيه الدعوة بعقد جمعية عمومية فى أسبوط فى ٦ مارس سنة ١٩١١ .

(١) جلسة ٢١ مايو سنة ١٩١٠ .

(٢) تذكارات المؤتمر ص ٥ .

(٣) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١٠ .

(٤) الشيخ عبد العزيز جاويش رجل تونسى هرب من تونس سنة ١٨٨١ وترك أهله هناك ليطأهم الفرنسيون ويسقوهم المر والعلقم وقدم الى مصر متظاهرا بالحمية الدينية فخدع المصريون فيه فقابل احسانهم اليه بمحاولة التفرقة بين عناصر الامة فحاول بذلك أن يخلق لنفسه ميدانا للتضال . ولم يلبث ان هرب من مصر الى تركيا وعمل زمنا مع مصطفى كمال فى حركته المعروفة الا انه لم يلبث ان انقلب عليه وحاول التآمر عليه الا انه اسرع وعاد الى مصر حيث رحب به الملك فؤاد من أجل الدعاية للحركة التى ترمى الى تنصيبه خليفة للمسلمين فعينه فى وزارة (المعارف) وظل بها حتى مات .

(٥) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٨ .

(٦) جريدة مصر فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٨ .

(٧) تذكارات المؤتمر القبطى ص ٧٠ .

ولم يكن الاقباط وحدهم هم الذين اعتقدوا ان الانجليز هم أصل البلاء بل شاركهم هذا الرأي بعض أحرار الانجليز مثل الدكتور بتلر Butler الذى قال ان الاتحاد الذى كان قائما بين المسلمين والاقباط فى مصر قبل الاحتلال البريطانى قد تحطم نتيجة لسياسة الحكومة البريطانية الخاطئة

وقد قابل أحرار البلاد هذا المؤتمر أحسن مقابلة فنشرت اللواء (اننا معاشر المسلمين نود من صميم أفئدتنا أن تعطى وظائف الحكومة لمن يستحقها من الأكفاء القادرين من الوطنيين من غير تمييز بين طائفة وأخرى ولا دين دون دين) .

كما نشرت الجريدة (ان رأى الجريدة فى النبوية بين المسلمين والاقباط معروف مشهور وانها تقول ان كل مصرى له حق فى المساواة العامة من غير تمييز) بل زادت وقالت انه لا شك ان الاحتلال البريطانى هو المسئول الاول عن هذه الحالة السائدة بين المسلمين والمسيحيين .

ونشرت المؤيد تقول لا ندرى لماذا لا يأخذ (الاقباط) حصتهم كوطنيين لهم ما للوطنى فى الوظائف العمومية . .

كما طلب الشيخ عبد الرحيم الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية (منع معاكسة المؤتمر القبطى) كما أرسل محمد بك توفيق الأزهرى صاحب جريدة الرائد العثمانى برقية قال فيها « أسأل الله أن يكلل أعمال مؤتمرهم بالنجاح والفلاح لأنه مؤتمر خير وسلام واتفاق ووئام رغم أنف الذين يعملون للتفرقة وأنقسام » (١) .

وسألت جريدة « مصر الفتاة » فى عددها الصادر فى ٢٩ يناير سنة ١٩١١ عن المسئول عن هذه الحالة التى يشكوها الاقباط . ومن هو الذى ينكر كفاءة الاقباط هل هم المصريون أم الانجليز ؟ كما أرسل عثمان بك عبيد المدير السابق الى جريدة الوطن فى نوفمبر ١٩١٠ يقول « أن الاقباط مع مع ما عرف عنهم من تمسكهم الشديد بدينهم يشاركون المسلمين جميعاً

(١) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١٦٨ .

عواطفهم من كل قلوبهم « . ولكن الانجليز عرفوا قبل غيرهم أن الضربة موجهة اليهم فأوعزوا الى الحكومة بمنع الاجتماع كما تدخلوا لدى البطريرك كي يأمر بوقف المؤتمر . ولكن الاقباط بما عرف عنهم من وطنية ترقى فوق الصداقة والرعاية والدين صمموا على أن يبينوا وجهة نظرهم كاملة .

وعقد مؤتمر من الاقباط لبدء وجهة نظر خاصة في مسألة عامة ليس فيه ما يؤخذ عليه فقد أجمع الاقباط في مؤتمر عام في سنة ١٩٥٦ في القاهرة اشتركت فيه الحكومة وخطب فيه أحد أعضائها . أما عن المطالب الخاصة التي يتقدم بها الاقباط فليس هناك ما يؤخذ عليها أيضا . فليس الاقباط سوى فريق من الأمة له مطلق الحرية يحكم ما يتمتع به من مساواة في الحقوق والواجبات أن يدلى برأيه في مسألة من المسائل أو يطلب طلبا خاصا . أو ينبه الى خطر يراد بالوطن ولم يكن مؤتمر أسيوط فتنة كما وصفه البعض بل كان لطفة وجهها الاقباط الى الانجليز في حنكة ودراية فكان بذلك تنبيها للأمة لما كان يراد بها من بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد وتنبيه الأمة الى أعدائها الحقيقيين . ولذا نشرت جريدة الاخبار القبطية ان أعداء المؤتمر ثلاثة :

(أ) الحكومة لأن اعلان الحيف للقباضين على أزمة الحل بما لا يرضون أن يعرف عنهم .

(ب) السير الدون جورست . الذي يريد أن يرضى الاغلبية (على حساب الوطن) .

(ج) الحزب الوطنى لأنه يريد أن يصور الاقباط عبيدا يتهاكون على محبة الانجليز .

وقبل أن يجتمع المؤتمر نشرت جريدة مصر في فبراير سنة ١٩١١ مطالب المؤتمر التي تتلخص في :

١ — المساواة في الوظائف .

٢ — تمثيل الاقلية في الهيئة النيابية .

٣ — صرف ضريبة الخمسة في المائة التي تجمعها مجالس المديريات على فتح مدارس لابناء الامة جميعا .

٤ — محاكم الاحوال الشخصية القبطية تطبق شريعتهم .

٥ — التعليم الدينى والادبى للأقباط .

٦ — راحة الأحد .

على أن لجنة المؤتمر عادت في ٣ مارس وقصرت هذه المطالب على خمس نقاط هي :
١ — مساواة جميع المصريين في احترام يوم الراحة الدينى .

٢ — التعويل على الكفاءة دون سواها في الترشيح في الوظائف العامة للمصريين .

٣ — تمثيل جميع العناصر المصرية في جميع مجالسها النيابية تمثيلا يضمن الموافقة على حقوقهم والمحافظة عليها .

٤ — تمتع الاقباط بجميع حقوق التعليم الاعلى القائمة به لان مجالس المديريات تجبى لاجله ضريبة ٥ ٪ من جميع المصريين .

٥ — جعل خزانة الحكومة مصدرا للإنفاق على جميع المرافق العامة المصرية .

ولم يكن الاقباط في هذه المطالب يطلبون شيئا جديدا أو امتيازاً مستحدثاً إنما كانوا يطلبون العودة الى ما كانوا عليه من مساواة مع جميع المصريين قبل عهد الاحتلال البريطانى وإذا استثنينا المطلب السادس فليس هناك من مصرى قط الا ويرى ضرورة تحقيق هذه المطالب فقد نص دستور سنة ١٩٢٣، عليها جميعا كما أبقي عليها دستور سنة ١٩٣٠ والذي أصدره صدقي باشا والذي انتقض فيه كثيرا من حقوق الامة كما نص عليها أيضا دستور سنة ١٩٥٦ الجمهورى .

واجتمع المؤتمر فعلا في الميعاد المحدد وانفيض دون أن يحدث أى اختلال بالأمن وكان أول ما صرح به الخطباء اعلان أن وحدة الامة مقدسة بعيدة عن الاهواء والاغراض . فقد قال ميخائيل بك فانوس المحامى في خطبته :

« أما مصر فشعب أصله واحد من سلسلة واحدة من آلاف السنين ، ولا يمكن تمييزهم من بعض اذ وجوههم واحدة وملامحهم واحدة متشابهة وما حقيقتهم الا عنصر واحد يختلف بعضه في العقيدة عن البعض فمن ظلم الناس تسميتهم عنصريين » (١) .

وحين قرئت في الجلسة الثانية رسالة من محمد بك وحيد يناشد فيها المؤتمرين « أن يضعوا نصب أعينهم تقوية الوحدة الوطنية » . صفق لها الحاضرون جميعا (٢) .

ونفى توفيق دوس مطالبة الاقباط بنصيب من وظائف الدولة يوازى نسبتهم العددية « فان هذا يستلزم أن يتربع في المناصب العليا قوم غير أكفاء لإدارتها لا لعل إلا لكونهم أقباط وفي هذا ضرر بالإصلحة العامة » وساق للتدليل على كلامه نصا للشيخ على يوسف وهو أن (كفاءة القبطى الذاتية كفاءة المسلم الذاتية لا تقف عند حد . وكلاهما توصلان الى أعلى المناصب » كما رمى بالقفز في وجه بريطانيا فساق تاريخ التمييز في الوظائف انى سنة ١٨٢٢ فقط .

كما أعلن مرقس حنا بك أنه ينكر أن يعين في القانون عدد مخصوص من الاقباط لأنه يكره أن يذكر في القانون كلمة قبطى ومسلم بل طالب باتباع الطريقة البلجيكية وهى طريقة الانابة النسبية بمعنى أن كل فئة تمثل بعدد من النواب يناسب عدد المنتخبين من هذه الفئة (٣) وهو رأى ينادي به كثيرون في الوقت الحاضر .

وتكلم وهيب بك دوس مطالبا بوضع نظام لجاليس المديریات يكفل

(١) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١١٥ .

(٢) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١١٤ .

(٣) تذكارات المؤتمر القبطى ص ١٦٩ .

لجميع العناصر المتمتع بالتعليم الاهلى (١) وهو ، ما تسير عليه الحكومة فى الوقت الحاضر . فلم يكن المؤتمر اذن يستحق شيئا من الضجة اثيرت لأجله انما كانت ضجة مفتعلة اثارها الانجليز لانهم ادركوا ان هذه الصيحات لا تؤدى الا الى كشف موقفهم فأشاروا على الخـديوى بأن يسعى الى عقد المؤتمر المصرى فلم يجد الا محمود رياض باشا اليهودي الاصل العراقى المنبت البريطانى الهوى ليرأس هذا المؤتمر .

وتوالى الخطباء فى هذا المؤتمر الثانى من ٢٩ ابريل الى ٤ مايو سنة ١٩١١ واعترفوا جميعا بأن :

- ١ — الامة المصرية كلها من عنصر واحد (١) .
 - ٢ — نواب الاقباط فى المجالس التشريعية قبلون (٢) .
 - ٣ — نظام التوظيف فى الحكومة مختل فاسد (٤) .
 - ٤ — الحقوق والمرافق فى مصر يجب أن تكون على الشيوع بين جميع المصريين على السواء لا امتياز لواحد منهم على أحد بكونه مسلما او مسيحيا او يهوديا (٥) .
 - ٥ — الانجليز هم الذين بدأوا سياسة التفرقة (٦) .
- وبانتهاء المؤتمر الاخير انتهت الضجة كلها . وعادت الامة الى صفائها السابق رغم ما حاوله الانجليز من إشعال نار الفتنة فقد كتب مراسل جريدة التايمز فى مصر معقبا على المؤتمر الاول انه لا يمكن التسليم بمطالب المؤتمر . لعدم كفاءة الاقباط فى تولى وظائف الادارة (٧) .

-
- (١) تذكـار المؤتمر القبطى ص ١٨٣ .
 - (٢) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى .
 - (٣) مجموعات أعمال المؤتمر المصرى ص ٢٣ و ٣٢ و ٤٨ و ٨٠ .
 - (٤) مجموعات أعمال المؤتمر المصرى ص ٥١ .
 - (٥) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٣٧ .
 - (٦) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٦٣ .
 - (٧) مجموعة أعمال المؤتمر المصرى ص ٦٥ و ٦٦ .

ولكننا كأمة حية لم تفتنا هذه المناسبة لنتعظ بها فقد عرفنا عدونا الحقيقي كما أصررنا على وحدة الأمة وعلى وجوب إزالة سوء التفاهم وعودة الصفاء كما عرفنا اختلال أحوالنا الادارية والاجتماعية والاقتصادية ووضعنا لها بعض الحلول التي أخذنا بها فيما بعد .

ولقد كان نجاح المؤتمر القبطي فذا في النتائج التي وصل اليها فقد شعر السير الدون جورست ان سياسته هي المقصودة بهذا الهجوم القبطي فكتب تقريرا الى حكومته (١) في أكثر من عشرين صفحة كانت كلها عبارة عن محاولة لتبرئة نفسه وحكومته من تهمة سوء الادارة البريطانية في مصر لعل اغرب ما جاء به من محاولة التنصل هو أنه لم يسمع قبل ذلك عن هذه الشكوى ولكن ذلك لم يكن يعنى في الواقع غير الفشل الذريع للسياسة البريطانية في مصر والتي كان الاقباط سببا في اظهارها وكشفها فلم يكن بد من تغييرها وتغيير من يمثلها فعين اللورد كتشنر معتمدا بريطانيا جديدا وهو الذى قال عنه السير ادوارد جراى في مجلس العموم في ١٨ يوليوسنة ١٩١١ « ان خبرته في الشئون المصرية وكفائه وعدم تحيزه سوف تكسبه ثقة الجميع » (٢) وعد الاقباط هذا التعيين انتصارا لهم خصوصا وقد بدأ العهد الجديد عهده بالغاء قانون المطبوعات . فأطلقت حرية الصحافة ولكن ليس معنى ذلك ان حال مصر قد تحسنت في هذا العهد الجديد بل ظلت سيئة ما دامت السلطات البريطانية تعتمد على أناس راعت فيهم جانب الولاء اكثر مما راعت جانب الكفاءة مما أشاع نوعا من السخرة وعدم العدالة التي ارتكبتها موظفو الحكومة اعتمادا على سلطة الاحتلال التي تسندهم (٣) فكانت السلطة البريطانية تتدخل حينئذ لاقرار العدل بأخذ جانب الفلاحين وكانت هذه المطالب سببا في هذه الازمة التي اجتاحت البلاد قبيل الحرب العالمية الاولى مما أدى الى انهيار الاسعار انهيارا كبيرا مما أودى بمستوى البلاد الاقتصادى وكان غرض بريطانيا من ذلك الرد عن طريق غير مباشر على المطالبين بترك الادارة للمصريين .

Copts and Muslims p . 36 — 56 (١)

Copts and Muslims p . 137 (٢)

Copts and Muslims p . 140 , 141 (٣)

وأخيرا عرف المصريون ان خيرهم في اخراج اليد الاجنبية التى تسعى دائما الى النيل من وحدتهم وان الدين ليس الا مظهرا من مظاهر اختلاف الفكر وان شعور المصريين جميعا ونفوس المصريين جميعا تحمل من عواطف الحب أكثر مما تحمل عواطف البغض . بل تحمل من عواطف التعاطف والتآزر والتعاون أكثر مما تحمل من عواطف التنافر والتناؤذ . وان طبيعة بلادنا السمحة الحلوة وأرضها السهلة ونيلىنا المنتظم وشمسنا الساطعة ، بل احساسنا بارتباط مصالحنا وتداخلها، وكل هذه عوامل توصى بالوحدة بل ترغى منا على ان نشعر اننا شعب واحد بل جسم واحد وما يضر عضوا يضر بالعضو الآخر وأنه سرعان ما تتحد الاعضاء على طرد الجرثومة الغريبة وعرفنا أيضا ان طبيعة المصريين تحمل عاملا ديناميكيا يعمل تلقائيا من أجل الحياة لا من أجل الموت . انها نعمة من السماء ولا اظن شعبا آخر يحملها كما يحملها المصريون واننا يجب ان نحرس عليها ونحرسها ونحافظ عليها بل نميها وليس على ذلك من أمثالنا الشعبية التى نتداولها فتمثل الروح المصرية الحقيقية أصدق تمثيل (اليد الواحد ما تصفقتش) - (أنا وأخويا على ابن عمى . وانا وابن عمى ع الغريب) .

ولقد عرف اللورد كرومر وهو الاسستعمارى الاصيل والذى كانت سياسة التفرقة بين العنصرين أهم ما يميز عصره ما فى اتحاد أبناء الوطن الواحد من تأصل حين قال « ان الفرق الوحيد بين الاتقياط والمسلمين فى مصر انهم هو ان الاولين مصريون يتعبدون فى كنائس بينما الآخرون مصريون يتعبدون فى مساجد » (١) .

الباب السادس

الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

وأخيرا انتصر الإقباط وقامت الأمة كلها تنادى بما كان ينادى به الإقباط بعد أن آمنت أنها الدعوة الحق وكل ما عداها باطل . قامت الأمة كلها تنادى بالقومية المصرية بعيدة عن كل من الانجليز والأتراك . وانفك سحر هذا الطلسم الذي خلقه الحكام الأجانب . واستغلوه لمصلحتهم وحدهم . لا لمصلحة المصريين . ظلسم القومية الإسلامية الذي كان يعصف بالقومية المصرية .

كانت صرخة واحدة من سعد زغلول وعلى شعراوي وعبد العزيز فهمى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كافية لأن يهب المصريون جميعا بعد أن نسوا مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش ورشيد رضا . متأخين متعاونين .

كانت صرخة لم يحسب (الانجليز) حسابها بعد أن هزمت تركيا وأصبح تنازلها عن أملاكها العربية حقيقة واقعة . وظن الانجليز بعدها انه قد خلص لهم هذا الركن من العالم . فبهتوا ولم يملكوا إلا أن يصبوا الى صفوف الأمة بنادقهم ومدافعهم فقابلها المصريون جميعا وصدورهم مفتوحة فارتوت الأرض المقدسة بدمائهم ممتزجة فانبعث منها هذا المارد الذى ظل نائما قرونا طويلة . مارد القومية المصرية الصحيحة المنبعثة من نفسها . المخلوقة من ذاتها . لا المصنوعة بيد اجنبية . فلم يكن القرن الماضى كله . بل والعشرون سنة الاولى من القرن العشرين سوى معركة واحدة متواصلة خاضها الإقباط بصبر وشجاعة كى يجعلون الشعب يؤمن بما يؤمنون . وأخيرا لاح النصر وكانت فرحة الإقباط به لا توصف . فقد أثمر جهادهم الطويل وأذنت صرخات المعلم يعقوب أن تصل الى آذاننا عبر السنين والايام

فلم تكن وقفات المعلم رزق وراء على بك الكبير وصرخات المعلم يعقوب حنا ومدارس كيرلس الرابع ثم صرخات ثورة سنة ١٩١٩ الا أجزاء من معركة متصلة ذات هدف محدد دائم هو هدف الاستقلال التام . واذا كانوا الاقباط قد هزموا في مرحلة او اكثر من مراحل هذا الكفاح الا أنهم كانوا وما زالوا يحافظون على هذا الغرض الذى هو كالمشكلة المشتعلة التى تهددهم وتقودهم دائما نحو الهدف الاصيل . هدف الاستقلال التام فى ظل القومية الصحيحة .

وعرف سعد زغلول أن لا نجاح لهذه الحركة الا اذا اخذ الاقباط مكانهم فيها فدعاهم فلم يترددوا وكتب سعد زغلول الى وأصف بطرس غالى وكان يقيم فى باريس منذ قيام الحرب — تلغرافا يدعوهُ الى أن يأخذ مكانه الى جوارهم فأبصرهم فأسرع بمسكا سلاحه . وجاؤا المتشككون أن يعيقوه فذكروه ان المسلمين قد قتلوا آياه منذ تسع سنوات فصرخ فيهم كما صرخ المسيح من قبل على لسان الأب وهو يقول لولده « أدخل وافرح معنا . لان أخاك كان ميتا فعاش . وكان ضالا فوجد » (١) .

وظهرت وحدة الامة صافية نقية وبدأت مظاهر هذه الوحدة حين وقف شيوخ الأزهر على منابر البكائيس كما وقف القسيس ورجال الدين الاقباط على منابر المساجد مباركين هذه الوحدة . منددين بالمحتلين . محرضين على التضحية والفداء من أجل الوطن . كما ظهر الصليب يعانق الهلال على الأعلام المصرية . وبدأت مظاهر هذه الوحدة أكثر من ذلك حين أخذت تبرعات المسلمين تنهال على الجمعيات القبطية فى المناسبات المختلفة فقد أقامت جمعية التوفيق القبطية معرضا لمدارسها كانت لجنته العليا مكونة من فتح الله بركات وعبد الرحمن فهمي ومصطفى النحاس ، وعاطف بركات ومحمد محمود خليل الى جانب سينوت حنا وصادق حنين ومرقس حنا وغيرهم . كما أقامت الجمعية الخيرية القبطية سوقا آخر كانت لجنته مكونة من السيدات هدى شعراوي وشريفة رياض الى جانب أستر فهمي

(١) لوقا ١٥ : ٣٣ .

ويعصا وروجينا خياط (١) واذا ما احتفل الحزب الوطنى بجنائزة المرحوم محمد فريد اشترك جميع افراد الأمة بها احتفالا شعبيا هائلا (٢) كما طافت لجنة الوفد المصرى بالبلاد لجمع التبرعات لفنقة أعضاء الوفد وكانت مكونة من فتح الله بركات ومرقس حنا وسينوت حنا ومصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى والاب مرقس سرجيوس .

فجمعت من مدينة الاسكندرية فى يوم واحد اربعة عشر الفا من الجنيهات ومن مدينة فاقوس ثمانية آلاف جنيها .

وكان من اثر هذا التضامن أن نشر المستر بوند القضاى السابق بالحاكم المختلطة بياناً ينصح فيه حكومته بالتسليم بالمطالب المصرية . بعد أن اتحدت جميع عناصر الأمة هذا الاتحاد المتين (٣) .

ولم تكف إنجلترا عن سياستها التقليدية التى نجحت أياها نجاح فى القرن الماضى وهى سياسة التفرقة فاتجه معتمدها اللورد اللبى الى بطريق الاقباط يمينه بالحماية البريطانية له وللاقباط لو انتفضوا وتراجعوا . ورغم ما كان بين الاقباط ويطريركهم من جفوة نتيجة لما حدث بينهما منذ ابتداء وجود المجلس الملى حتى لقد نفى أكثر من مرة . فانه لم يتردد عن أن يأخذ مكانه الذى يحتمه عليه واجيبه الوطنى والدينى فرفض هذه الحماية كما رفضها غيره من أعيان الطائفة عندما عرضت عليهم . اذ لم يتورع الانجليز فى بعض الاوقات عن استغلال الصداقات الشخصية فى سبيل سياستهم . فقد قال المستشار الانجليزى لوزارة الداخلية لحبيب المصرى باشا مادام الاقباط يشكون من بعض تصرفات المسلمين فى الوظائف ام لا يكتب القبط لدار المندوب السامى يطلبون حمايتهم . فما كان من الرجل — رحمه الله — الا أن أجابه ردا حاسما فقال له « لنا من ضمائر مواطنينا . خير سياج يحمينا فنحن أبناء وطن واحد . نستطيع التفاهم مع بعضنا . أما أنتم فلا يعنكم الا مصلحتكم . فان استدعت هذه المصلحة عينها أن تلعبوا دور المدافع لتفاخرتم بذلك على

-
- (٢) جريدة الاهرام عدد ١٦/٢/١٩٢٠ .
 - (٣) جريدة الاهرام عدد ١٠/٦/١٩٢٠ .
 - (١) المقطم عدد ٧ يناير سنة ١٩٢٠ .

الملا . لقد عشنا معا . وليس لنا من يحمينا غير الله « (١) .

وفضل الاقباط أن يضطهدهم اخواتهم على أن يخونوا وطنهم . وما كان لـ اخوانهم في الوطنية أن يظلموهم فالمصريون جتبعوا خريصون على ما ورثوه من أخوة صادقة أمينة ووطنيتهم قديمة قدم النيل . فما دامت هذه الوطنية قد استيقظت فيهم فلن يعودوا لينقضوا هذه الوطنية أو يلطخوها بالوحل .

وتألف الوفد المصرى الاول ومعظم أعضائه ممن اشتركوا قبل ذلك في حزب الأمة . وسمح له بالسفر الى باريس في ابريل سنة ١٩١٩ لغرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح فكان وداعهم يوما مشهودا غصت فيه الميادين والطرقات بآلاف المودعين وانضم اليهم الثلاثة المعتقلون في مالطة . ومن الاقباط الذين اشتركوا في هذا الوفد واصف غالى . وسينوت حنا وجورج خياط . ولكن الوفد لم يكد يصل الى باريس حتى وجد الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية قد اعترف بالحمـاية البريطانية على مصر فكانت ضربة قاسية أصابت الوفد المصرى في الصميم .

واستمر الوفد في باريس يطرق كل باب دون كلل أو ملل سنة كاملة وصلت الى مصر في اثنائها لجنة بريطانية برئاسة اللورد ملنر للوقوف على اسباب الاضطرابات المصرية . ولكن لما كان الوفد المصرى الموجود في باريس هو الوحيد الذى أجمعت الأمة كلها — بما قدمته اليه من توكيلات أقبل جميع افراد الأمة على توقيعها في حماس بالغ — على ترك مهمة المحادثة اليه وحده ولذا نظمت لجنة الوفد المركزية حملة نجحت في مقاطعة الأمة لجميع افراد اللجنة .

وكانت هذه المقاطعة الاجماعية من الأمة للجنة ملنر هي التى دفعت انجلترا الى الاعتراف بالوفد المصرى ودعته لفتح باب المفاوضات في ضيف سنة ١٩٢٠ ودارت مفاوضات طويلة حتى أوائل أغسطس انتهت بأن قدم الوفد البريطانى مشروعه الذى عرف فيما بعد باسم مشروع ملنر ناقشه الوفد

(١) المذكرات الخاصة للسيد حبيب المصرى بأذن خاص من ورثته .

داخليا ورأى أن يعرضه على الأمة ليقول فيه رأيا .

وأعلن سعد زغلول على الأمة وجوب مقاطعة الحكم بأن لا يقبل أى مضرى تأليف وزارة فى ظل الاحتلال البريطانى ولكن حدث أن عرضت الوزارة على يوسف باشا وهبة (وكان مسيحيا) فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فقبلها، فكان ذلك مثار سخط المصريين جميعا لا سيما وان البطريق كان قد نصحه بعدم تأليفها . كما تقدم اليه وفد من الاقباط يطلب منه أن يرفض تأليفها فرفض مقابلته فكان من أثر ذلك ان اعتدى عليه فى ديسمبر من نفس السنة فكان أن تقدم قبضى هو عريان يوسف سعد أحد طلبة كلية الطب وألقى قبلة عليه وهو يمر بسيارته فى ميدان سليمان باشا وكان الجهاز السرى أثناء بحثه عن شخص يقوم بهذه المهمة أن تقدم هذا الطالب وطلب اختياره لهذه المهمة نى لا يقال أن المسلمين قد اعتدوا عليه ولكن حدث أن نجا من هذا الاعتداء ، واذا ما وصل الى مكتبه طلب رؤية هذا الشاب وسأله عن اسمه فأجابه (عريان يوسف سعد قبضى) فحكم عليه بالسجن عشر سنوات وقد حاول المحامى أن يخفف من الأمر أمام المحكمة بادعاء ان الشاب اراد نقط ارهاب الرئيس فكان يبادر بنفى الادعاء والتصريح بأنه ألقى القبلة وهو ينوى قتله لا ارهابه (١) .

هذا فى الوقت الذى كان الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول يطرق كل باب فأبدت الأمة رغبتها فى ادخال بعض التحفظات على المشروع وعرض الوفد المصرى هذه التحفظات على الوفد البريطانى فى نوفمبر من نفس العام فأبى ادخال أى تغيير على المشروع فتوقفت المفاوضات .

وحدثت بضع أمور داخلية فى الوفد المصرى لا تتصل بالقضية المصرية عن قريب أو بعيد أدت الى انفصال سبعة من أعضاء الوفد ووصولهم الى مصر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٢١، وهذه الحادثة ان دلّت على شىء فهى تدل على أن القضية المصرية لم تأخذ من نفوس الاعضاء مكانا جديرا . وان المحافظة

(١) الكتاب المتنوع : على أمين ص ١٣٤ — ١٣٧ .

على كرامتهم الشخصية كانت ائمن لديهم من المحافظة على القضية المصرية .

وكان توقف المفاوضات سببا في عودة الاضطرابات من جديد وقيام المظاهرات فقابلها البريطانيون كما قابلوا المظاهرات الاولى بالعنف والقسوة حتى اضطرت الحكومة الى اغلاق المدارس .

وكانت عودة بعض أعضاء الوفد منشقين على الوفد الاول داعيا لان تحاول انجلترا اشعال نار هذا الخلاف فأرسلت في ٥ مارس ١٩٢١ بلاغا الى السلطان تبلغه فيه رغبتها في الغاء الحماية البريطانية وطلبت تعيين وفد مصرى رسمى للمفاوضة مع الحكومة البريطانية على أساس هذا الالغاء . وكان المعنى الواضح لهذه الدعوة العودة الى تجاهل الوفد المصرى الذى ما زال فى باريس تحت رئاسة سعد زغلول .

فدعا السلطان عدلى باشا الى تأليف وزارة جديدة تقوم بالمفاوضة واسرع هذا الى تأليف الوزارة الجديدة وأبرق الى سعد زغلول بذلك فكان هذا دليلا على تسامحه عن الموقف السابق الذى أدى الى استقالة الاعضاء السبعة . فقابلهم فريق باريس بالدعاء لهم بالتوفيق واسرع سعد زغلول بالعودة الى مصر وقامت الامة كلها تستقبله استقبالا ما زالت تذكره وتحدث به حتى الآن .

واذا كان سعد زغلول وصحبه قد وصلوا الى مصر فى الخامس من ابريل سنة ١٩٢١ فانه لم يعن بمقابلة السلطان أو تقييد اسمه فى التشريفات كما تقضى التقاليد آنذاك بل أسرع الى مقابلة الطيريرك فى السابع من ابريل واستقبله هذا ومعه الاقباط جميعا بل والمسلمون أيضا وتبادلا خطبا كلها تحت على الاتحاد وبذلك ظهر لكل انسان ان هذه الدار المتواضعة التى تقع فى أحد الشوارع الضيقة من القاهرة أصبحت قبلة لجميع أهالى مصر سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وان لا مكان لدخيل بينهما كما كانت جميع نداءات الوفد تحض على التمسك بأهداب هذا الاتحاد .

ولكن لم يكن ينقضى شهر ابريل سنة ١٩٢١ حتى ظهر الخلاف بين

الوزارة والوفد فقد طلب الثانى :

- (أ) أن تكون له رئاسة الوفد الحكومى .
- (ب) أن تكون أغلبية أعضاء الوفد الحكومى من أعضاء الوفد المصرى .
- (ج) أن يصدر مرسوم سلطانى بتحديد مهمة الوفد .
- (د) إلغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف .

وأنكرت الوزارة هذه الأشياء وانقسمت الامة الى معسكرين الاول مع الوفد ينصر سعد زغلول والآخر مع الحكومة ورئيسها عدلى يكن . وسعى انساعون لأجل الصلح وحاولوا ان يوفقوا الى حل بصرون وحدة الامة ولكن دون جدوى .

ويلاحظ على هذا الخلاف شيئان أولهما ان جميع من انشقوا على الوفد عندما كان فى باريس — الا اذا استثنينا حمد الناسل — قد انضموا الى 'المعسكر الوزارى' . مما يدل على ان الخلاف الثانى كان متأثرا بالخلاف الاول . وانه يتعلق بما خيل اليهم جميعا أنه نىء من الكرامة أكثر ما يتعلق بمستقبل المناوضات القادمة ومستقبل البلاد السياسى وما كانت تبغيه من ضمان الوحدة .

أما الأمر الثانى فهو انقسام الاقباط أيضا مع المعسكرين فلم ينضموا جميعا الى معسكر الوفد أو الى معسكر الوزارة ولو فعلوا لكان موقفهم غير طبيعى ولأمكننا أن ننعتهم بالطائفية بل انضم فريق منهم الى جانب الحكومة كيوسف سليمان وتوفيق دوس وهيب دوس بينما انضم آخرون كسينوت حنا ومرقص حنا وجورجى خياط الى جانب سعد زغلول . وهم جميعا وقفوا صفا واحدا فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١١ مما يدل على ان اختلاف الرأى هو الذى يسيرهم كما هو رأيهم وليست الطائفية . وهذا الموقف وان كان غير جديد عليهم بل هو ما أثر عنهم فى كل حياتهم الماضية الا أنه جدير بالتسجيل هنا أكثر من أى وقت آخر .

وسرعان ما تألف الوفد الرسمى فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ مكونا من عدلى يكن باشا رئيسا وحسين رشدى باشا نائبا للرئيس وعضوية اسماعيل

صدقى ومحمد شفيق وأحمد طلعت ثم يوسف سليمان .

ومما يؤخذ على هذا الوفد أنه تألف على النحو الذى جرى عليه تأليف
الوزارات قبل ذلك من وجود قبضى واحد يمثل الأقباط وهو موقف ما كان
يجب أن يقفه عدلى يكن مطلقا . فقد اشترك الأقباط فى كل الخطوات
السابقة دون النظر الى نسبة عددهم الى عدد المصريين أو الى نسبة ثروتهم
كما ان رصاص الانجليز عندما أطلق على المتظاهرين لم يكن ليصيب الأقباط
بنسبة عددهم الى عدد المصريين . بل وقفوا جميعا جنبا الى جنب لبتلتوا
مصريا واحدا امام الخطر الاجنبى فكان من الواجب أن تكون نظرة الحكومة
الى مثل هذه الامور أوسع من نظرتها السابقة . فالحكومة مازالت تمثل
حكومة اسلامية وهى التى تملك حق التصرف فى مثل هذه المواقف فكان يجب
أن تبدى هذه النظرة المتسعة كى تظهر للعالم أجمع وللأقباط خاصة أن موقفها
بعد الحركة الوطنية يختلف تماما عن موقفها قبلها .

وكان مظهر الخلاف بين الفريقين هذه الخطب النارية التى أطلقوها
كل فريق على الآخر ينعتة بأقبح النعوت وبذلك نجح الانجليز فيما فشلوا فيه
أولا من محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد عن طريق الدين .

ولعل اظهر ما حدث آنذاك هو تقديم الحكومة لتسعة من الموظفين
أعلنوا رأيهم فى هذا الخلاف معارضين رأى الحكومة الى المحاكمة التأديبية
وهم صادق حنين وسلامة ميخائيل ووليم مكرم وأحمد خنبة ونجيب اسكندر
ومحمود نهى النقراشى وزكى جبره وفؤاد شيرين وحسن أبو الفتوح فقضت
بفسطهم جميعا .

وطالت المفاوضات بين الوفد الحكومى واللورد كيرزون حتى نوفمبر
سنة ١٩٢١ وانتهت بالفشل بعد أن تبين للمفاوضون المصريون أن الحكومة
البريطانية لا ترغب فى شيء — كما كانت دائما — أكثر من استخلاص اعتراف
مصرى بشرعية الاحتلال . فقد كان مشروعها الجديد — الذى دارت
لمفاوضة على أساسه — خلوا من كثير من المزايا التى كان اللورد ملنز قد
اعترف بها فى مفاوضاته الاولى . وكان موقفا طبيعيا من الحكومة البريطانية

بعد أن رأت أن الخلاف قد مزق وحدة الأمة وكان موقفنا يستحق أن يبادر رؤساء الفريقين لأجله إلى نسيان الماضي والعودة إلى الاتحاد يجـابـهـون بريطانيا . فكان موقفنا مخزيا حقا .

وكان هذا الموقف هو الذى حدا ببريطانيا إلى ابلاغ السلطان رابعها فى أنها لا توافق مطلقا على فكرة الجلاء عن مصر بل تصر على الاحتفاظ بجيش بريطانى كى يحافظ على المصالح البريطانية وأهمها المواصلات بينها وبين ممتلكاتها فى الشرق الأقصى . خصوصا بعد أن غدت قناة السويس أهم حلقة من حلقاتها . وهى لا ترى سبيلا إلى معالجة الحال فى مصر إلا بعقد محالفة دائمة تظل فيها بريطانيا وصية على مصر فى كل أمورها والخارجية منها على وجه خاص (١) .

وقبل أن يمر شهر على هذا التبليغ اتهمت بريطانيا سعد زغلول وسبعة من أعضاء الوفد بأنهم يعملون على الإخلال بالنظام وطلبت منهم أن يسافروا إلى الريف والامتناع عن كل عمل سياسى وهم — عاطف، بركات وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنا ووليم مكرم وصادق حنين ومحمد عز العرب فبادر الآخيران إلى تنفيذ هذا الطلب إلا أن مقاومة الباقين دعت السلطة البريطانية إلى القبض عليهم ونفيهم إلى عدن ثم إلى جزيرة سيلش .

وكان هذا فى الوقت الذى استقالت فيه الوزارة ولم تتألف بعد وزارة أخرى . فكان اجراء قاسيا قصد به تحدى الأمة وارهابها أولا ثم اعطاء الفرصة للفريق الآخر كى يتقدم بما يراه من مقترحات عملية بعيدة عن تأثير الزعيم . هذا التأثير الذى يصل إليه فى سهولة ويسر عن طريق خطبه التى كانت تجتذب الجماهير ولتستثيرهم . وكان الرجل حقا . خطيبا بارعا . وتمكن ببراعته هذه من امتلاك ناصية الجماهير وحركتها كيف يشاء وكانت الجماهير من ناحية أخرى متعطشة إلى هذه القوة غير المنظورة التى تفيض عليها وتقودها .

(١) من اللورد اللبى إلى مظمة السلطان فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

فقامت المظاهرات صاحبة عنيفة قابلها البريطانيون بالشدة وسقط كثيرون
صرعى رصاصهم. وهرعت طوائف الأمة الى السلطان تحنّج على هذا الاعتقال
وهذا العنف وبادر الاقباط من ناحيتهم فاحتجوا على طريقته الخاصة. فأعلنت
الجمعية القبطية الخيرية الكبرى عدم الاحتفال بعيد الميلاد فسرعان
ما وجد هذا الاحتجاج الصامت صداه في نفوس الاقباط فبادرت جمعية
الاقباط في مصر الجديدة الى الموافقة على هذه الخطوة وتلتها جمعيات
دمياط والمنيا والسنبلاوين وطوخ النصارى وشبين الكوم وطنطا وغيرها .
وفي أول يناير سنة ١٩٢٢ أصدر القس بطرس عبد الملاك رئيس الكنيسة
المرقسية الكبرى بيانا بعدم المعايدة فكان ذلك بمثابة احتجاج طائفي صامت
أعلنه البطريك الذي شارك الأمة احتجاجها فكان اعلانا لهذا التضامن
المقدس الذي أصبح حقيقة لا سبيل الى الشك فيها .

وأصدر بقية أعضاء الوفد بيانا موقعا من حمد الباسل . ومحمد
محمود وويصا واصف وعلى ماهر وواصف غالى وأحمد لطفى السيد وجورج
خياط وعنوى الجزار وحافظ عفيفى ومراد الشريعى يستنكرون هذا الاعتقال
ويدعون الى عقد مؤتمر وطنى لتقرير الخطة الجديدة (١) .

وجاءت هذه الضربة المباغطة على رأس الشعب فأفقدته وعيه بعض
الشيء الا أنه سرعان ما أفاق وتآلف وفد جديد من حمد الباسل وواصف غالى
ومرقص حنا . وويصا واصف ومراد الشريعى . وجورجى خياط (٢) . اجتمع
ليعلن حلوله مكان الوفد المعتقل وأصدر بيانا الى الأمة دعاها الى عدم
المعاونة مع المحتلين . وبين لهم في هذا البيان أوجه تنفيذ هذه السياسة
الجديدة وهى الاضراب عن تشكيل الوزارة وعدم التعامل مع البريطانيين
سواء كانوا أفرادا أو هيئات بمقاطعة البنوك البريطانية والسفن البريطانية
والتجارة البريطانية .

(١) المقطم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ .
(٢) أهرام ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ . — وآخر ساعة عدد ٢١٧١ فى
١٩٧٦/٦/٢ .

وكانما هذا الصراع المصرى البريطانى تد ايتظ روح العناد فى الشعب واستعد لحركته القادمة . ولم ترهبه هذه القوات البريطانية التى انبثت فى الشوارع (للمحافظة على الامن) خصوصا بعد ان قبضت السلطة البريطانية على موقعى هذا البيان فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩٢٢ وارسلتهم الى ثكنات قصر النيل ولكنها خافت تبعة هذا العمل فأسرعت باطلاق سراحهم فى اليوم الثانى . وكان هذا التحدى من جانب انجلترا ومقابلة التحدى بمثله من جانب الشعب سببا فى تأخير تأليف الوزارة الجديدة . ثم اصدر تصريح ٢٨ فبراير .

وقابلت الامة هذا التصريح بما هو جدير به من الاستنكار وقامت المظاهرات من جديد تستنكر قيام الوزارة واستنادها الى هذا التصريح الاعرج وكذلك اقرارها بحق انجلترا فى ابعاد المصريين . ولم نكد البلاد تهدأ بعض الشئ حتى بدت وطنية الاقباط مرة أخرى حين قاموا يستنكرون حق انجلترا فى حمايتهم اذ عرفوا تماما ماذا تعنيه انجلترا بكلمة (الأقليات) . وأصدر الاستاذ عزيز ميرهم بصفته سكرتيرا للحزب الحر الديمقراطى بيانا يرفض فيه حماية انجلترا للأقليات . اذ (لا تخالف بين سكان مصر الا من جهة العقيدة أما واجباتهم المدنية فهى واحدة) (وتمسك انجلترا بحماية الأقليات لا مسوغ نه على ما فيه من العدوان على الاستقلال . فلا محل للاحتفاظ به) .

وشئ آخر جدير بالبحث أيضا . وهو اعتراف انجلترا باستقلال مصر . فقد دخل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ يوم ان كانت البلاد تحت السيادة العثمانية . واعترف الانجليز أنفسهم أكثر من مره ان هذا الاحتلال مؤقت وانه سوف ينتهى اذا ما استقرت الاحوال فى مصر . فهذا الاحتلال بموجب هذا الاعتراف غير شرعى . ولا يعرف القانون الدولى سوى السيادة العثمانية التى كسبتها تركيا بحق الفتح فى سنة ١٥١٧ واعترفت بها مصر فى فرمانى سنة ١٨٤١. فاذا ما انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة تركيا . ووقعت معاهدة سيفر التى تنازلت بها عن سيادتها على كل البلاد العربية

فكان ذلك معناه ان مصر قد استقلت فعلا بمجرد توقيع معاهدة سيفر . ولم يكن ينقصها غير اعتراف الدول بهذا الاستقلال وهذا الاعتراف موجود ايضا ما دامت انجلترا وفرنسا ومن معها من الحلفاء قد وقعوا على هذه المعاهدة . فكان هؤلاء المصريون ماسعوا الا ليأخذوا من انجلترا اعترافا بشيء سبق أن اعترفت به من قبل . فكان واجبه أن يكون السعى لتنظيم انهاء الاحتلال غير الشرعى . فرضاؤهم بتصريح ٢٨ فبراير واشتراكهم في وزارة ثروت باشا التى تألفت على أساس تنفيذ هذا التصريح اعتراف بشرعية الاحتلال البريطانى وشرعية وجود البريطانيين في مصر .

وفي ١٥ مارس صدر مرسوم باعلان استقلال البلاد واتخاذ السلطان لقب مصر . كل ذلك وما زالت الأحكام العرفية البريطانية مفروضة على البلاد والمحاكم العسكرية تزاوّل عملها في محاكمة المصريين فكان استقلالا فريدا في بابه .

وفي الخامس من ابريل الفت الوزارة (لجنة الدستور) مكونة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى باشا واشترك فيها خمسة من الاقباط هم يوسف سابا والأنبا يؤنس مطران قنا وقلينى فهمى والياس عوض وتوفيق دوس .

ركان تأليف اللجنة عنوانا جديدا على أن الاقباط لم يعودوا عنصرا منفصلا كما ان عددهم في اللجنة كان دليلا ايضا على انقضاء خرافة نسبة عددهم في الهيئات التى يشتركون فيها . وتوخى الحكومة سياسة البحث عن الكفاءات مهما كانت ديانة اصحابها وهى السياسة الجديرة بالاتباع في امة . نبغى الحياة الحقيقية والسعى الحقيقى نحو المستقبل المجد .

وقوبل تأليف هذه اللجنة بموجة من الاستنكار فقد احتجت عليها نقابة المحامين ورفض النقيب الاشتراك فيها عندما عرضت عليه (١) اذ كانت الامة تأبى الا أن يشرع الدستور جمعية وطنية منتخبة من الامة . وهى

(١) المقطعم في ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ .

خطوة طبيعية ولا شك ، ولكن الوزارة رفضت هذه الفكرة بدعوى أن البلاد التى شرعت دساتيرها بواسطة جمعيات وطنية كانت فى ظروف استثنائية زالت فيها السلطة الشرعية وحلت محلها سلطة مؤقتة على نحو ما حدث فى الثورة الفرنسية .

وان الظروف التى كانت تجتازها مصر لم تكن استثنائية وانه قد جرى العرف فى مصر على أن تصدر القوانين من ولى الامر وحده (١) .

وفى اثناء مناقشتهم الدستور ثبتت فكرة تمثيل الاقليات بعدد من النواب يناسب عددهم فى مصر ودافع عن هذه الفكرة جميع أعضاء اللجنة من الاقباط ونشرت الجرائد الخبر فأسرع الاقباط الى استنكاره فكان موقفا يضاهى الى مواقفهم الوطنية السابقة . ورغم ان هذا المطلب كان مطلبا اساسيا فى مؤتمر اسيوط سنة ١٩١١ الا ان الاقباط كعادتهم دائما لم يذكروا الا وطنهم وما يجب عليهم نحوه . وقامت جمعياتهم تستنكر هذه الفكرة وأصدر القمص باسيلوس الوكيل العام للدار البطريركية بيانا (بأنه لا يوجد فى مصر الآن قبطى ومسلم بل الجميع مصريون على السواء وان القول بأقلية واكثرية ليس من شأنه الا العمل على التفريق والانقسام) (٢) كما اجتمع عدد كبير من الاقباط بالكنيسة البطريركية الكبرى وقرروا ان طلب تمثيل الاقليات الدينية فى المجالس النيابية بدعة ضارة سواء بتلك الاقليات او المجموع المصرى . وموجبة لدمزيق الوحدة . التى يجب ان تظل قائمة (٣) وايد هذه القرارات اقباط نادى رمسيس واقباط مديرية البحيرة والمحلة الكبرى والمنيا وأسيوط وجرجا وبور سعيد وسمالوط والبلينا وطنطا والزقازيق وبنها والفيوم وغيرهم . ورغم قيام بعض المسلمين داعين الى وجوب تمثيل الاقليات نطمينا لهم على مستقبلهم فى مصر (٤) الا ان الاقباط لم يكن يعنيه هذا الاطمئنان بقدر ما يعنيههم المحافظة على وحدة الأمة امام الاعداء . اذ ان الأمة كلها فى

(١) مذكراتى ص ٢٧ .

(٢) المقطم فى ١٧ مايو سنة ١٩٢٢ .

(٣) المقطم فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ .

(٤) المقطم فى ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢ .

معركة أمام عدو لا يتورع عن استعمال أى سلاح ما دام يؤدي الى تحطيم هذه القوة التي وقفت في وجهه .

ولكن هذا لا يمنع من أن أقول أن تمثيل الاغليات بالنسبة لعدددهم فكرة لست بخاطئة، كل الخطأ خصوصا اذا استقرت الاحوال ولم يعد هناك عدو يخشى تدخله فقد أخذ بهذه الفكرة الدستور البلجيكي ضمانا لسماع صوت الاقلية خصوصا اذا كانت هذه الاقلية لا تسكن اقليما معينا أو تكون الاغلبية في اقليم آخر الأمر الذي يمكنها من انتخاب من يعرض بعض شئونهم الخاصة .

أما اذا كانت هذه الاقلية العددية تختلط بالأغلبية وتتشترك معها في جميع المصالح فلا بأس مطلقا من تمثيلها بعدد كاف من النواب يتناسب مع نسبتهم الى مجموع السكان . وليس في هذا مطلقا ضرر على الوحدة فنواب هذه الاقلية أقدر ولا شك على شرح مشاكلهم الخاصة التي لا تستطيع الاغلبية فهمها مهما خلصت نية أفرادها وتجردت من الأغراض .

ولم يكن هذا به مانع من استمرار لجنة الدستور في عملها لأجل اقرار احكامه من أن تسنم الحكومة في سياستها التي ترمى الى الحد من الحرية الشخصية وحرية ابداء الرأي . فعطلت جريدة الاهالى انى كانت لسانا من السنة الوفد المصرى . كما استمرت المحاكم العسكرية في اجراءات محاكمة المقبوض عليهم في المظاهرات فكان من الواضح ان هناك حكومتين تعمل كل منهما في ناحية وتنفذ كل منهما قانونا غير الذى تنفذه الاخرى . وهذا لا يمنع من تعاونهما في بعض الاحيان اذا ما اتحدت الغاية في ارهاق الوطنيين ولذا أصدر الوفد المصرى الجديد بيانا الى الامة يصف فيه الوزارة بأنها ما زالت تعمل على مصادرة الحريات العامة ويتهمها بأنها تتعاون مع الحكومة البريطانية على حكم البلاد بالحديد والنار ولم كن البيان شديدا للهجة أكثر من البيانات السابقة التي أصدرها الوفد كما أنه كان اتهاما للوزارة أكثر مما هو اتهام للبريطانيين ، ولكن بادرت السلطة العسكرية البريطانية عقب اذاعة البيان في ٥ يوليو الى القبض على أعضاء الوفد وهم حمد الباسل ، ومرقس حنا وواصف غالى ومراد الشريعى وويصا واصف وجورج خياط وعلوى الجزار وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية وكان مجرد سكوت الوزارة على اجراءات الحاكم العسكرى البريطانى يلقي الريب

على سلوكها بل على وطنيتها . وقدم الأعضاء نعلا الى المحاكمة فى التاسع من اغسطس بتهمةى انحض على كراهية الحكومة واحتقار حكومة جلالة ملك مصر . فكان من الأجدر ولا شك أن يصدر أمر التبنس من الوزارة المصرية ليحاكم المتهمون أمام محكمة مصرية .

وبعد محاكمة لم تستمر أكثر من جلسة واحدة صدر الحكم عليهم جميعا بالاعدام . فهتف مرقس حنا بصوت جهورى رددنه قاعة المحكمة « تحبسا مصر » . بينما تقدمت والددة واصف غالى لتهمس فى أذن ولدها (اذكر اسم أببك) .

ما أروعه من موقف لهذه السيدة التى رات زوجها يسقط مدرجا بدمائه على درجات وزارة العدل منذ تسع سنوات ليس غير — من أجل مصر ، وها هى تسمع بأذنهىأ حكم الاعدام على ولدها من أجل مصر . ان كل مصرى يا سيدتى ليتمنى أن يكون ولدك .

ولم يلبث حكم الاعدام أن استبدل فى نفس المحكمة بالحبس سبعة أعوام مع غرامة قدرها خمسمائة جنيه لكل منهم . وزج بهم فى السجن ليعاملوا معاملة المجرمين العاديين بعد أن رفضوا جميعا دفع الغرامة . ومن مهازل القدر أن يصدر هذا الحكم فى اليوم الثانى من معاودة لجنة الدستور الاجتماع بعد الاجازة .

ولم يكن هذا الحكم ليمنع غيرهم من التقدم لقيادة الصفوف فتألف الوفد المصرى الثالث من المصرى السعدى . والسعيد حسين القصبى والشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ونجيب اسكندر وراغب اسكندر ونجيب الغرابلى (١) .

ولم يكد يصدر هذا الحكم حتى أسرعت السلطات البريطانية أيضا وقرنت هذا الاجراء القاسى باجراء يضاهيه فى القسوة وهو القبض على اثنين من أعضاء الوفد الثالث همـا الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى

(١) المقطم ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٢.

عبد النور . ولم يكاد يستقران في قصر النيل حتى تألف الوفد الرابع من عبد الستار الباسل . ومحمود فهمى النقراشى وحسن يس . فاعتقلوا بدورهم كما عطلت جريدة الاهرام وبذلك ظهر المصريون جميعا اقباطا ومسلمين في هذه الفترة القاسية مثلا للتضحية والفداء من أجل مجدد الوطن وتألف الوفد الخامس من المصرى السعدى وحسين القصبى ومحمود حلمى اسماعيل وسلامة ميخائيل وعبد الحليم الببلى فاعتقلوا كذلك .

وكان الوفد يحرص في كل مرة على أن يظهر تضامن الامة فكان الاقباط دائما يكونون نسبة كبيرة من أعضائه لا يرهبهم عن أخذ مكانهم سجن أو اعتقال ولا يكاد الوفد يؤلف حتى يبادر فيزور الطربرك (١) حيث يجد أعضاؤه كل ترحاب . وحيث يتلقون بركات البطريرك ودعواته لهم بالتوفيق والنجاح .

وفي هذا الوقت الذى كان فيه الاحرار يساقون الى السجون فريقا اثر فريق كان غيرهم يجتمع في حرية مطلقة وظهرت نتيجة هذه الاجتماعات وهذه الحرية في ظهور حزب الاحرار الدستوريين وفي انشاء جريدة السياسة لتكون لسان حال هذا الحزب . وعرضت رئاسة هذا الحزب على عدلى يكن باشا فقبلها .

وفي خلال هذه المدة والت لجنة الدستور اجتماعاتها وتوالت على مصر وزارتان الاولى وزارة توفيق نسيم ثم الوزارة الثروتية في نهاية نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم وزارة يحيى ابراهيم التى تألفت في ١١ مارس سنة ١٩٢٣ وكانت قد عرضت على عدلى يكن قبل ذلك فرفض تأليفها قبل الغناء الاحكام العرفية .

وكان من الواضح أن انقسام الامة هذا الانقسام المريع وعدم شعور جماعة الوزارة ومن معها بما تقاسيه البلاد من مصادرة الحريات وسلسلة الاعتقالات والمحاكمات البالغة منتهى العنف هو الذى أوحى التشدد الى الانجليز في مراقبة أعمال لجنة الدستور فأصروا على أن لا ينضم الدستور الجديد أى

(١) المقنن ٨ يناير سنة ١٩٢٢ .

إشارة إلى السودان . ولو كانت هذه الأقلية الوزارية تملك في ذلك الوقت ذرة من الروح الوطنية لشاركت الأمة محنتها وامتنعت عن العمل في اتمام الدستور ووقفت من الانجليز موقفا سلبيا ولتغير وجه التاريخ .

وأخيرا صدر الدستور بعد أن نص على أن تكون مصر ملكية دستورية يتولى الملك رئاسة سلطتها التنفيذية على أن يزاول سلطته بواسطة وزرائه الذين يكونون مسئولين أمام البرلمان المكون من مجلسين . أحدهما مجلس النواب المنتخب والآخر مجلس الشيوخ ذو الخمسين المعينين .

والغريب أن هذا الدستور الذي تباهى واضعوه آنذاك بأنه جاء وقتا لأحدث النظم الدستورية لم يلق منهم غير النقد المر العنيف حين فشلوا في الحصول على أية أغلبية برلمانية في ظله . فقد وصفه عبد العزيز فهمي بأنه ثوب فضفاض . كما وصفه اسماعيل صدقي بأنه لا يلائم الأحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة في مصر خصوصا من حيث التعليم ونوع الثروة العامة وتوزيعها فاتهموه بأنه هو الذي ساعد على خلق الاوتوقراطية البرلمانية التي نعم بها الوفد المصري (٣١٥ نائبا) والتي أصبحت فيما بعد سببا من أسباب فساد الحال . والامر في الحقيقة لا يعود إلى هذا الدستور بتدر ما يعود إلى الذين وضعوا الدستور والظروف التي وضع فيها ، فقد أبى واضعوه إلا أن يعملوا بينما كانت الأمة مضرجة بدمائها تن من ألم الظروف الاستثنائية التي تعانيها وظنوا أن هذا الدستور سوف يوصلهم إلى مراكز الحكم والزعامة ، فلما جاءت الانتخابات أبت هذه الأمة الواعية إلا أن تكيل لهؤلاء الناس الصاع صاعين فأثبتت لهم حيويتها كما أثبتت بطولتها ومنحت ثقتها لمن كان في السجون والمعتلات . ومن وقفوا معها في وجه المحتل لا يرهبهم أعدام ولا سجن ولا اعتقال فكان موقف الأمة من هذا الفريق موقفا جديرا بالاعجاب حقا . أن دل على شيء فهو يدل على .! في طاقنها من حيوية كامنة ما زالت مختبئة بها منذ عهد أحمد وسواخذت تنتهز كل فرصة لتظهر كما فعلت أيام دقلديانوس . وأيام تيودوسيوس وأيام المأمون . وأيام سيف الدين قلاوون .

وعلى أثر صدور الدستور أطلق سراح المبعدين في سيشن . وسمح لهم بالعودة إلى الوطن . وألغيت الأحكام العرفية في يوليو . ووصل سعد زغلول

في منتصف سبتمبر ليقود المعركة الانتخابية .

وكان صدور الدستور وقانون الانتخاب عملا تشريعيا ناقصا خصوصا وقد وضعا موضع التنفيذ فورا دون أن يصدر قانون بنحسديد الجنسية المصرية . وكان هذا خطأ دستوريا فاحشا مما سمح لبعض الاجانب أن يتقدموا لقيد أسمائهم في الكشوف الانتخابية بل الى ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان كما فعل الشيخ عبد العزيز جاويش التونسي (١) بل بلغت به الجراة أن يحاول رفع قضية على الوزارة من أجل اثبات حقه في قيد اسمه بجدول الانتخاب استنادا الى الدستور (٢) ولم تتدارك الهيئة التنفيذية هذا الامر الا في سنة ١٩٢٦ حين صدور قانون الجنسية الاول .

وهنا يحق لبعض الناس أن يسألوه كيف أجاز الوفد لنفسه أن يخوض المعركة الانتخابية وهو لم يعترف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وبالتالي لا يعترف بكل ما ترتب عليه من صدور الدستور وقيام الحكم النيابي .

ولكن الوفديين يقولون ان الدستور لم يصدر نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير ، اذ لم يشر الى هذا التصريح في مقدمته . بل مصر استقلت منذ توقيع تركيا لمعاهدة الصلح . وتنازلت فيها عن كل املاكها العربية ومنها مصر . وبذلك أصبحت مستقلة قانونا وليس هناك ما يمنع صاحب الامر في مصر أن يعلن هذا الاستقلال وهذا ما تم فعلا عندما أعلن سلطان مصر دولة مستقلة ذات سيادة (٣) وقد تم هذا في الخامس عشر من مارس سنة ١٩٢٢. فاتخذ لنفسه لقب ملك ثم شاء أن يصدر بعد ذلك دستورا يشترك به الشعب في تحمل المسؤولية . فليس هناك اذن ما يمنع من اشتراك الوفديين في الانتخابات بل في الحكم ما دام هذا النوع من الحكم لم يأت نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير .

وكسب الوفد المعركة ونجح ٨٨ ٪ من مرشحيه ولم ينجح من زعماء

(١) المقطم في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ .

(٢) أهرام ١١/١٠/١٩٢٣ .

(٣) خطبة سعد زغلول باشا في نادي سيروس في ٢٣ ديسمبر سنة

١٩٢٤ (٤)

الخصوم سوى محمد محمود باشا وبعض أفراد من الحزب الوطنى، والمستقلين . وهو نجاح لم يكن الوفديون أنفسهم يتوقعونه . ومما لا شك فيه أن أغلبية الاقباط كانوا كغيرهم من أفراد الأمة قد أعطت أصواتها للوفديين وبلغ نصيب الاقباط من مراكز النيابة سبعة عشر نائبا وتسعة شيوخ ومن الطبيعى أن أغلبية ناخبهم كانوا من المسلمين ولكنهم لم يراعوا فى انتخابهم مسألة الدين مطلقا . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن نجاحهم كان فى المدن حيث الطبقة المتعلمة . التى تستطيع هضم المساواة بسهولة بل انتخب منهم اثنان فى القليوبية وهى من المديرىات التى كانت نسبة الاقباط فيها نسبة ضئيلة جدا ومما يجب أن نلاحظه أنه لم يكن قد مضى غير أربع سنين على بدء الحركة الوطنية مما يدل على استعداد المصريين دائما لطرح العواطف الدينية فى سبيل المصلحة القومية . مما يؤيد ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من موضع من عدم تأثر المصريين بالنعرة الدينية واعتقادهم أن اختلاف الدين بين المصريين لا يعدو أن يكون نوعا من اختلاف الراى بين الأفراد . والف سعد زغلول الوزارة فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ فأدخل فيها للمرة الاولى وزيرين قبطيين هما مرقس حنا وواصف غالى وكلاهما ممن حكم عليهم بالاعدام واستبدل به الحبس سبع سنوات .

وكان سعد زغلول فى هذا العمل جريئا حقبا . إذ أنه ضرب المثل أن المناصب لا تحتاج الى نسب معينة من كل طائفة ما دامت الأمة قد أثبتت فى كل المناسبات الماضية أنها كل واحد يبذل نفسه على مذبح التضحية والفداء . كما أنها أيضا فى احتياج الى الكفاءات أينما كانت ومهما تكون ديانة أصحابها وعبر سعد زغلول عن هذه الروح الجديدة فى خطبة القاها فى ١٣ مارس سنة ١٩٢٣ حين قال « أما اتحاد العناصر فهو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين إذ أصبحوا جميعا مرتبطين أشد ارتباط برباط الوطنية وأصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شىء وفوق كل اعتبار » (١) .

ولم يكد يمضى بضعة أيام على تأليف الوزارة حتى أثبت أحد الوزراء

(١) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

القبطيين تأصل المصرية فيه وقوتها حين أصدر أمرا بجعل اللغة العربية هي لغة التخاطب الوحيدة بين مختلف إدارات وزارة الأشغال وكانت حتى ذلك الوقت تدور بالانجليزية، كما أمر بإزالة جميع اللافتات الانجليزية واستبدالها لافتات مكتوبة باللغة العربية فقط . كما أصدر أمرا بوقف العمل في مقبرة توت عنخ آمون التي كانت قد اكتشفت قبل ذلك ببضعة أشهر وكان صاحب امتياز الحفر هو اللورد كارنافون البريطاني ووكيله في العمل المستر كارتر لما حدث بين الطرفين من خلاف ولم يحاول المندوب السامي التدخل في هذا الخلاف وهو أمر لم يكن يحدث قبل ذلك مطلقا .

وقد كان يجدر بسعد أن يسير في طريق المساواة حتى نهايته فهو يعلم أولا أن الأقباط يتطلعون الى المساواة الكاملة منذ سنة ١٩١١ وأنهم كانوا يتمتعون بهذه المساواة لولا التفرقة التي أوجدها البريطانيون خلال حكمهم الأسود وبدأ سعد بالسير في الطريق العملى بنعيين وزيرين قبطيين في وزارته . فكان يستطيع أن يسير في الطريق . بأن يبدأ يشغل بعض المناصب مثل المديرين ووكلاء المديریات ونظار المدارس العالية والثانوية وأمثالها ببعض الأقباط وبذلك يضع الحجر الأخير فيما بدأ به من أشعار الجميع بأن الكفاءة وحدها هي التي تدفع بالشخص الى المنصب . وكان سعد زغلول هو الوحيد الذى يملك القوة الشعبية التى تؤهله لأن يضع هذا الحجر ولم يكن هناك آخر يستطيع أن يخطو هذه الخطوة . وهى هنة لابد أن نأخذها على الرجل .

كأنما أبت الأقدار الا أن تترك فخر تحقيق بعض هذه المساواة الى بطل آخر هو عبد الرازق السنهورى عندما كان وزيرا للمعارف وحمل اليه نبأ حرمان الأقباط من الترقى الى مناصب نظار المدارس الثانوية (لأن العادة لم تجر على ترقيةهم الى مثل هذه المناصب) مما أن سمع بذلك حتى انتفض انتفاضة مصرية وأمر بإلغاء هذه التفرقة غير القانونية وصرخ في مستشاره ان لا أقباط ولا مسلمين في مصر ولست بالمجرم الذى يحرم مصرية مما يستحقه بسبب دينه . فكان موقفا تسجله القومية المصرية لهذا البطل .

وما زال كرسى البطولة شاغرا ينتظر البطل الذى يجعل نصوص الدستور حقيقة واقعة يبادر فيكمل المساواة التامة في جميع مناصب الدولة أمام جميع

المصريين فيكمل بذلك صرح القومية الصحيحة فيستحق. بذلك تقدير الوطن اما عن منصب الوزير فيجب الغاء هذا التقليد وان تختار الوزارة الاقباط لكفائتهم في الوزارة النى يعينون فيها دون مراعاة الى عدده، سواء كان واحد او اكثر .

اما عن الشئون القبطية وغيرها من شئون الاقليات الدينية فمن الانضل انشاء (وزارة الاقليات الدينية) وجعل المجالس المالية (بعد تعديل تكوينها لتمثل جميع أبناء الملة في جميع أنحاء البلاد لتكون بمنسابة مجالس استشارية للوزير الذى يخضع لاشراف مجلس الامة كغيره من الوزراء وتتكون ميرانية هذه الوزارة من ايراد أملاك هذه الاقليات .

او أن يستبدل بوزارة الاوقاف وزارة الشئون الدينية ويعين لها وكيل من بين أبناء الاقليات ليتعاون مع أعضاء المجلس الملى — بعد أن يعدل تكوينه وتشرف الهيئة التنفيذية على انتخاباته فيصبح المجلس الاعلى للشئون غير الاسلامية .

ونعود بعد ذلك الى موضوعنا فنقول ان انجلترا انتهزت فرصة اعتداء بعض المصريين على سردار الجيش المصرى (البريطانى الجنسية) لتقدم الى الحكومة المصرية انذارا تطلب فيه غرامة قدرها نصف مليون جنيه والموافقة على توسيع رقعة أرض الجزيرة فى السودان من ٣٠٠ ألف فدان الى ما لا نهاية من الافدنة ثم الوعد بقمع كل مظاهرة شعبية بكل شدة علاوة على اعادة كل وحدات الجيش المصرى من السودان على أن يتم ذلك بأمر يصدر خلال أربع وعشرين ساعة (١) وقبلت الوزارة الوفدية من هذه المطالب ما يتعلق بالحادث ورفضت بقيتها مما أدى الى استقالة الوزارة . وكان الاعتداء الاول على الدستور حين حل مجلس النواب وتولت الامر وزارة من الاقلية التى لم يكن أعضاؤها ممثلين فى المجلس . فكان طبيعيا ان يكون المتآمرون بالدستور ممن نالهم الضرر من هذا العهد ومعهم الانجليز الذين وقفت الوزارة الوفدية دون تدخلهم فى الشئون المصرية . والملك الذى أحس

(١) الكتاب الاخضر بشأن السودان ص ٢٧ و ٢٨ .

بشدة وطأة العهد الجديد بالحسد من سلطانه ثم هؤلاء الذين لم يتجسروا في الانتخابات . وتمكن هذا العهد من أن يجعل الوزارة من نصيب هؤلاء الذين لم يكونوا يحلمون بها في ظل الدستور وأن يجعل الانجليز يعيدون تدخلهم في الشؤون المصرية كما كان الحال من قبل . ويعيد الى الملك بعض سلطانه التي سلبه الدستور اياها . ولذا تكرر الاعتداء على الدستور أكثر من مرة . ومن الغريب ان كل اعتداء على الدستور كان يقرن باساءة معاملة الاقباط بالحد من تعيينات الاقباط وترقياتهم . وما كان الاقباط ايبهون بهذه الصفائر التي تنم عن عقول مصدريها أكثر مما تنم عن سياسة مرسومة . كما ان وطنيتهم كانت أعلى من أن تحفل بهذه الصفائر . فصدر في فبراير سنة ١٩٣٤ أيام وزارة عبد الفتاح يحي باشا منشور وقعه وكيل وزارة الداخلية . يحتم على راغبى بناء الكنائس الحصول على ترخيص خاضع لشروط خاصة (١) وهو ولا شك منشور باطل لانه صادر من موظف عمومي لا يملك سلطة التشريع . هذا الى كونه لا يتفق مع الدستور الذي كفل حرية المعتقد . كما ساوى بين جميع المصريين في الحقوق والواجبات .

ومن الغريب ان تلجأ الوزارة حديثا في اجابة رسمية على سؤال لأحد أعضاء مجلس الشعب في هذا الشأن الى المغالطة فتذكر ان الاذن الذي يجب ان تحصل عليه البطريركية لبناء كنيسة ما يعود الى أيام السيادة التركية اذ نص عليه (خطى همايون) الصادر في سنة ١٨٥٦ من أجل حقوق المسيحيين من رعايا اندولة . فمصر تملك شخصيتها المستقلة منذ اتفقت لندن اللذين عقدهما محمد على باشا ولم تكن القوانين التركية تسرى على مصر في قليل او كثير . كما ان خطى همايون لم ينص على شيء من هذا مطلقا ، ولكي لا اتهم أنا أيضا بالمغالطة الجأ الى نشر نص هذا الخطى في آخر الكتاب ؟؟ .

ولكن أين هذا الاعتداء اليسير على الدستور من العمل الذي قامت به هذه الوزارة والتي قبلها من الغاء الدستور نفسه ووضع دستور جديد منتقض سلطة الأمة بحجة القضاء على الاوتوقراطية البرلمانية (١) وفي ابريل

(٢) مجلة الايمان عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ص ١٦٤ .

(١) مذكراتي ص ٤٦ — ٤٩ .

سنة ١٩٤٠، صدر قرار وزاري يمنع المدرسين الاقباط من تدريس اللغة العربية حتى وان كانوا متخرجين في قسم اللغة العربية لكلية الادب فدفعوا بعدد كبير منهم الى التعطل دون ما ذنب سوى قبطيتهم وأبلغ هذا القرار الى المناطق في ابريل سنة ١٩٤٠ يحمل توقيع وكيل المعارف المساعد وما كان الاقباط ليحفلوا بأمثال هذه الصغائر التي لا تصدر الا عن نفوس صغيرة .

وفي سنة ١٩٣٦ تعقدت الظروف العالمية وبدأت الحرب قريبة الوقوع فأرادت انجلترا أن تطمئن الى مركزها في مصر اذا وقعت الواقعة وأبدت استعدادها للمفاوضة من أجل المسألة المصرية فتألفت الجبهة الوطنية التي رأسها رئيس الوفد المصري وأغلبية أعضائها من أعضائه وانتهت الى عقد معاهدة الزعفران التي اعتبرها الوفد نهاية سعيه وجهاده ولذا أصبح مستقبل الوفد بعد ذلك يختلف عن ماضيه اختلافا كبيرا فأصبح همه الاحتفاظ بالحكم بأي ثمن وكان ذلك عن طريق ارضاء الانتصار فأصبحت الحكومة ومناصبها ومناقصاتها وأراضيها وأملكها نهبا لهم . وأصبح الدخول في عضوية الوفد أو الترشيح باسم الوفد لا يتم الا للتقادرين بعد دفع (الثمن) الذي لا بد ان يكون باهظا بقدر الامكان . على أن يسترد بعد ذلك أبهظ مما دفع اضعافا . ومنذ هذا الوقت شعر الاقباط ان الجهاد السياسي قد أصبح ملوثا فأنصرفوا يهتمون بمصالحهم الخاصة وشؤونهم الطائفية .

ولكن فساد الادارة السياسية وانتشار الرشوة وكذلك فساد الأحزاب وضايع المصلحة الوطنية في زحمة المنافع الشخصية هو الذي أدى الى قيام ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ونجح الجيش في ثورته بفضل تعاضيد الأمة وحسن تقبلها للدعوة .

وليس أدل على هذا الفساد من ظهور الاخوان المسلمين الذين حاولوا اعتمادا على تنظيماتهم السرية — القبض على السلطة عن طريق القتل وسفك الدماء ولكن يد الثورة أمهلتهم حتى يعودوا الى رشدهم حتى اذا تبين لها استمرارهم في خطتهم امتدت اليهم يد الثورة كما امتدت الى غيرهم من نواحي الفساد الشامل وقد أظهرت محاكمة رئيسهم وأعضاء الحزب ما كانوا ينوونه من القضاء على الاقباط في مصر .

وكان تعضيد الاقباط لثورة الجيش قويا حين أعلنت حكومة الثورة ان اول اهدافها المحافظة على الوحدة المقدسة والضرب على ايدي العابثين بها . وكان الاقباط اول من كشفوا عن هذا الفساد النى انتاب الحياة السياسية فعزفوا عن الاشتراك فيه وأضرب معظمهم عن الاشتراك فى الانتخابات . كما عزفوا عن التقدم لعضوية الهيئة التشريعية .

ولم يكن جهاد الاقباط فى النواحى غير السياسية ليقل شرفا عن جهادهم السياسى الناصع فى ميدان الاجتماع . اندفع الاقباط يجاهدون فى سبيل رفع المجتمع المصرى فأقبلوا على تأسيس الجمعيات القبطية التى تعنى بشئون اليتامى والفقراء والارامل والمعدمين فأصبح لهم حتى سنة ١٩٥٠ أى فى مدى ثلاثين سنة أكثر من ثلاثمائة وخمسين جمعية (١) بين صغيرة وكبيرة وجميع أموالها من التبرعات ولم يقتصر عملها على هذا بل امتد الى تدريس الدين لمن يرغب فى ذلك وتدريس اللغة القبطية وطبع الكتب بها ونشرها . وكذلك الطواف على الكنائس والاشتراك فى الصلاة والقضاء العظمت وتقديم المساعدات للكنائس . وتملك بعضها المستشفيات والصيدليات والمشاغل والملاجىء ما بين بنين وبنات . ويشرف على كل منها مجلس ادارة يتجدد أعضاؤه بالانتخاب سنويا وظيفته الاشراف على جاسع المال . وصرفه فى مصارفه الصحيحة . وفى سنة ١٩٤٧ أنشئت رابطة لهذه الجمعيات باسم رابطة الجمعيات الخيرية القبطية هدفها تنسيق العمل بينها .

على ان اكبر الهيئات المشرفة على الأعمال الاجتماعية القبطية هى هيئة مدارس الاحد (التربية الكنسية) . وقد تألفت بمرسوم بطريركى فى سنة ١٩١٨ (٢) ● وهى كما تظهر من اسمها هدفها جمع الصبيان والشبان الاقباط

(١) الدليل العام للأقباط الفصل الثالث .

(٢) المدرسة الاكليريكية ص ١٣٤ .

● يشير المؤلف هنسا الى النشاط الارثوذكسى فقط لكنه لم يشر الى النشاط الكاثوليكي أو الانجيلي خصوصا فى ميدان التعليم ككلية أسبوط أو المستشفيات كمستشفى أسبوط وطنطا أو كلية اللاهوت الانجيلية ونشاط مدارس الأحد ... الخ (الناشر) .

فى الكنائس بعد مواعيد الخدمة الدينية وتلقينهم اصول ديانتهم ما داموا لا يجدون من يلقنهم اياها فى مدارسهم . وبمعنى اوضح تثقيف الشباب ثقافة دينية تقوم على شرح دروس الدين لتلاميذ المدارس الاميرية والاهلية . مستعينة فى ذلك بالنشرات والفانوس السحرى . يضاف الى ذلك العناية بنظافة طلبتها وصحة ابدانهم بواسطة معلمين اكنساء وحث الاولاد والبنات على المواظبة على التردد على الكنائس وتناولهم الاسرار المقدسة . وتعويدهم العبادة وتنظيم رحلات رياضية روحية وجسدية . وتدريبهم على الاشتراك فى العطاء وتخصيص ما يتبرعون به لأعمال خيرية وتمرينهم على مواساة المرضى والفقراء .

وتعنى ايضا مدارس الأحد بأوقات الفراغ عند الطلبة خصوصا اثناء العطلة الصيفية فتجمعهم فى نواديها لتجنبهم صحبة الاشرار وتعويضهم بدلا منها الروح المسيحية فى جميع نواحيها الروحية والاجتماعية والثقافية حسب برامج موضوعة . وذلك نظير اشتراك نسهرى زهيد لا يتجاوز الخمسة قروش ولأجل أن يقوم على أساس تربوى صحيح انشأت معهدا للمعلمين . طلبته من الحائزين لشهادة الاعدادبة لاعدادهم ليكونوا مدرسين لهؤلاء الطلبة . وجمعت لهم راتبا شهريا مقررا . منذ قبولهم بالمدرسة . ويبلغ عدد تلاميذ مدارس الأحد حسب احصاء سنة ١٩٥٠ ثلاثة وأربعون ألف طالب . أما عدد المدرسين فيبلغ ألفين وخمسمائة . ولم تلبث هذه الجمعية ان وسعت نشاطها فامتدت الى دراسة حالات المرتدين عن المسيحية وغير المعمدين وكذلك حالات التفكك العائلى والانهيـار الداخلى لدراستها دراسة علمية ومحاولة علاجها قبل أن تستفحل . وهى الآن تصدر مجلة شهرية باسم مجلة (مدارس الأحد) تعنى بشـر الابحاث الدينية علاوة على اهتمامها باصلاح احوال الطائفة اجتماعيا وثقافيا . يشترك فى تحريرها نخبة من الشباب الجامعى الذين تثقفوا ثقافة دينية عالية .

وقد بارك غبطة البطريرك هذه المدارس وأعلن سروره منها وتشجيعه لطلبتهـا فى أوقات كثيرة بحضور الصلاة معهم . والتاء النصائح اليهم .

والى هذه الهيئة يعزى فضل تنبيه المجلس الملى الغام الى سوء حال

تعليم الدين المسيحي في المدارس الاميرية . بعد أن عمد نظار المدارس الى تغيير اللوائح والقوانين على غير الصورة المقصودة . فقد عمد بعضهم الى الهبوط بعدد الحصص . وأرغم جميع الطلبة على حضورها غير مباليين باختلاف فرقهم (١) بل عمد بعضهم الى عدم الاهتمام بتدريس الدين كلية او جعلها صورية باضافة حصص الدين الى جدول كامل لمدرس مسيحي مما لا يؤدي الى اهمال تدريسه ما دام لا يجد رقابة فعالة عليه من هذه الناحيا .

فكان من أثر هذا التنبيه المتواصل ان كتب المجلس الملى الى وزارة المعارف (في سنة ١٩٣٢) بلغت نظرها الى ان الوزارة لم تعد تعد طلبة معهد التربية المسيحية اعدادا يمكنهم من تدريس منهج الدين المسيحي مما جعل مستوى المدرس والتلميذ واحدا كما ان المناهج تعدل من آونة الى اخرى ويفضل تعديل منهج الدين المسيحي . ولم ينس المجلس أن يبدى في نهاية مذكرته أسفه لأنه يلح في عرض مطالبه فلا يجد في الوزارة من يهتم بشأنها (٢) فطلب العناية بدرس الدين المسيحي والتفتيش على هذا الدرس باسعة مفتش قدير . وتدریس هذه المادة للطلبة المسيحيين بمعهد التربية ثم تعديل منهج الدرس الديني بواسطة معنمين اعضاءها على علم الدين المسيحي (٣) .

وقد عاون هيئة مدارس الأحد في ذلك جامعة الشباب القبطى التى أسست وفق أحدث أساليب الخدمة الروحية والاجتماعية والثقافية والرياضية وجعل مركزها مدرسة الاقباط بالروضة .

وليست (مجلة مدارس الأحد) هى الوحيدة التى تعنى بالشئون الروحية والاجتماعية للأقباط بل قام الى جانبها أربع عشرة مجلة بين أسبوعية ونصف شهرية تعنى كلها بمعالجة الشئون القبطية بمختلف مظاهرها ونواحيها . وليس أدل على الوعى القبطى من ان هذه المجلات لم تتركز

(١) المدرسة الاكليريكية ص ١٢٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٣) خطاب غبطة البطريرك الى وزير المعارف في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ .

كلها فى انفاهرة والاسكندرية بل تنشر فى جميع مدن الجمهورية المصرية وتجد كلها من تيقظ الشعب صدى لدعوتها فهى لا تعتمد على التوزيع فى الشوارع أو اكشاك الجــــرائد ولا على الاعلانات بل تعتمد كلها على الاشتراكات والتبرعات .

واذا ما تنبعت الامة عقب الثورة الكبرى الى ضرورة نشر التعليم بين الشعب واقبلت الحكومة على فتح مدارسها فى كل مركز وبندر ومحافظة واقبل الشعب معها على فتح المدارس الاهلية معاونة الحكومة على اداء رسالتها لم يتردد الاقباط عن الاشتراك فى هذا كله فأتبلوا على المدارس الاميرية مع اخوانهم يرشفون من مناهلها . كما اشترك الاغنياء فى انشاء المدارس الاهلية فانتشرت مدارسهم الى جانب بقية المدارس فانتشرت من أسوان حتى الاسكندرية وهى دائما موضع الثقة من الجميع على السواء .

ورغم صدور الدستور وتعهد الحكومة بجعل التعليم الالزامى اجباريا لجميع الذكور والاناث تبين منذ اللحظة الاولى عجز الحكومة عن الوفاء بوعددها وأصبح ما تفتحه من المدارس الالزامية رغم كثرة عددها لا يسد الا نسبة ضئيلة من احتياج البلاد . حتى أصبح وجود هذا النص فى الدستور حبرا على ورق .

فلم يتردد الاقباط عن أن يشاركوا الحكومة فى نشر هذا النوع من التعليم مجانيا فتألفت الجمعيات الخيرية فى جميع القرى . وأخذت على عاتقها فتح المدارس وتشجيع الطلاب على ورودها . وكانت أكبر الجمعيات العاملة فى هذا الحقل (جمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة) والتي بلغ عدد مدارسها تسعا وعشرين مدرسة تضم أكثر من أربعة آلاف طالب وطالبة (١) وتسير هذه المدارس وفق المنهج الوزارى مضافا اليه بعض المواد الاخرى كاللغة القبطية والالحن والطقوس وتاريخ الكنيسة ولدى الجمعية مفتشون يزورون هذه المدارس زيارات دورية يقفون على احوالها ومدى تقدم التعليم فيها . والى جانب التعليم تعمل الجمعية من جانبها على اثاره الروح الفنية

(١) مجلة الانوار عدد ٥ فى ١٨/٨/١٩٤٦ .

بين أبنائها وبناتها فامتدت بعض هذه المدارس بأنواع النسيج اليدوية الذى له شهرة فى البلاد . كما أعدت الوسائل اللازمة لإنشاء خلايا النحل . هذا الى افساح المجال للتعبير بالرسم والتمثيل عن القصص الدينية . وقد وجهت الجمعية عنايتها أيضا الى الخدمة الاجتماعية فهى تقدم الغذاء للأطفال مرة كل اسبوع كما تقدم لهم الملابس فى كل مناسبة كما تعنى بالنواحي الصحية والرياضية والرحلات المدرسية والى لجنة مدارس الأحد يعزى فضل تنبيه وزارة (المعارف) الى ضرورة تعليم الدين المسيحى الى جانب الدين الاسلامى فى المدارس الالزامية الحكومية فقدمت مذكرات كثيرة مستفيضة فى هذا الموضوع (١) .

ولم تقف نهضة الاقباط الثقافية عند هذا الحد بل استركوا فى نهضة بلادهم الثقافية عن طريق الكتب التى ألفوها فى مختلف ميادين النشاط الثقافى ومنها النشاط الدينى وقصد كثير منهم الى أوربا يرتشفون من مناهل جامعاتها فى مختلف الشئون ووصل كثير منهم الى مناصب الاستاذية فى الجامعات عن جدارة واستحقاق .

وفى سنة ١٩٥٤ اشترك فريق منهم فى انشاء معهد الدراسات القبطية وهو معهد عال للدراسات والابحاث المتصلة بالثقافة القبطية فى جميع عصورها . وفى مختلف مظاهرها . الغرض منه تشجيع الباحثين والدارسين على دراسة العلوم القبطية وخاصة فى العصر القبطى الذى لقى من مناهج وزارة التربية كل اهمال .

ويحتوى هذا المعهد على اثنى عشر قسما هى قسم اللغات المصرية القديمة الآثار واقسام الدراسات التاريخية فالدراسات العربية المسيحية فالدراسات الاثيوبية فالافريقية فالسامية وكذلك الدراسات الاجتماعية علاوة على اقسام أخرى تهتم بدراسة اللاهوت والقانون الكنسى والالهيان والموسيقى الكنسية ثم قسما الفنون والتصوير .

(١) خطاب اللجنة العامة لمدارس الأحد الى أعضاء المجلس الاكليركى فى ١٠ بشنس سنة ١٩٤٢ ش .

ومدة الدراسة في هذا المعهد ثلاث سنوات يحصل الطالب في نهايتها على دبلوم المعهد في فرع التخصص وإذا ما قدم الحاصل على الدبلوم بحثا للتخصص في موضوع معين يضيف جديدا الى الدراسات القبطية حصل على زمالة المعهد . ولا شك ان مثل هذا المعهد لو نظرت اليه الحكومة نظرة قومية خالصة وأسدت اليه يد المعونة المالية والعلمية لأسدى بدوره الى البحوث العلمية الخالصة خدمة لا تقدر .

ولم يقف نشاط الاقباط الثقافى والفكرى عند حد الحدود المصرية بل تعداها الى خارجها ففي السودان حيث وصل عدد الاقباط الى أكثر من خمسة عشر الفا (١) كلهم راق له ميول دينية توبة نحو كنيسة الارثوذكسية متمسك بعقيدته وتقاليده ونجحوا الى حد كبير فى الاشتراك فى توجيه التيار الثقافى الى ما فيه خير المجتمع السودانى . فليس هناك أكثر من خمس عشرة مدرسة تضم أكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة . من المصريين والسودانيين وهى منتشرة فى تسع مدن من كبرى مدن السودان . ومن هذه المدارس اربع فى الخرطوم وثلاث فى العظبرة منها مدرستان ثانويتان للبنات وكذلك اثنتان ثانويتان للبنين والباقي بين ابتدائية واعدادية . وتشرف على هذه المدارس جمعيات قبطية أنشأها الاقباط وأمدوها بأموالهم كى تساعدهم فى نهضة البلاد الثقافية والاجتماعية . ومنها الجمعية الخيرية القبطية وجمعية الشابات المسيحيات . وجمعية الاصدقاء وكلها لا تعتمد على مساعدة مالية من اية جهة من الجهات . وقد أنشأت بعض هذه الجمعيات مكاتب يتردد عليها المصريون والسودانيون لأجل زيادة الاطلاع وتنمية مداركهم .

وفى انيوبيا أخذت البطيريركية توالى امداد المدارس الحكومية بالمدرسين المصريين الذين يساهمون فى نشر الثقافة المصرية فى البلاد الشقيقة وان كانت باللغات الانجليزية او الفرنسية . ولم يكن هؤلاء المدرسون ينافون أبه علاوات من البطيريركية او الحكومة المصرية . أو أبة جهة أخرى . بل كانت مواردهم قاصرة على ما كانت تدفعه لهم الحكومة الايوبية الفقيرة وحدها من مرتبات غير مغرية .

(١) مجلة مار قرس عدد يناير وفبراير ١٩٥٤ .

وفي سنة ١٩٢٧ اشتركت وزارة (المعارف) مع البطريكية في الاشراف على من ترسله اليها من المدرسين المصريين وان كان هذا الاشراف مقتصرأ على الناحية الادبية دون أن يتعدى الى الناحية المالية — أو غير ذلك . بل ظلت بعض المناصب الثقافية الكبيرة في هذا البلد انشئ في وقتنا على المصريين يشغلونها اثر بعضهم وظل الحال كذلك حتى سنة ١٩٣٦ حين ابتليت البلاد الاتيوية بالاحتلال الايطالى .

ولكن لم يكد هذا الاحتلال ينزاح عن كاهل هذه البلاد وتعود اليها حكومتها التى أخذت في اعادة تنظيم البلاد والعودة بها الى حياتها الطبيعية فى سنة ١٩٤١ حتى بادرت فولت وجهها شطر مصر من جديد لتمدها بعدد من المدرسين يستطيع ان يساهم فى بناء اتيوبيا الحديثة فسافرت اليها بعثة جديدة من المدرسين المصريين (١) كى يكونوا مدرسة ثانوية تكون ادارتها ومنهجها وروحها مصرية بحتة . ولكنهم ما ان وصلوا فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى رأت الحكومة هناك ان تستعين بأفرادها فى مختلف مدارسها بدل ان يتركزوا فى مدرسة واحدة خصوصا وقد كانت هذه المدارس كلها فى يد موظفين بريطانيين لم ينالوا اى نصيب من الثقافة التعليمية او التربوية . فكان ان وزعوا على اكثر من أربع مدارس . بن لجأت الحكومة الاتيوية زوجات هؤلاء المدرسين وطلبت منهم ان يقوموا بالتدريس فى مدارس البنات الحكومية كى يساهموا مع أزواجهن فى المعركة ضد الجهل فلم يترددن فى الأخذ بنصيب من هذه المهمة دون أن يتطلعن الى ضالة ما يدفع اليهن اذا قورن بما يدفع الى غيرهن من المدرسات الاجنبيات . وقد عمل رئيس هذه البعثة زمنا مديرا لمدرسة تفرى ماكونن ولكن لم تلبث الوزارة أن عينته مستشارا لها يشرف على مشروعاتها ويوجهها بل جعلته أيضا مشرفا على تعليم اللغة العربية فى المدارس الاسلامية وكلفته وضع كتب عربية متدرجة على أساس قومى . تكون مواضيعها مشتقة من البيئة الاتيوية وحدها . وكان نجاحه فى هذه الناحية دافعا للجمعيات الاهلية الاسلامية لان تستعين

(١) كان المؤلف ضمن افراد هذه البعثة التى سافرت فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى مايو سنة ١٩٤٥ .

به في توجيه مناهجها . بل اعرف انه استشير في بعض الأوقات في تدريس الدين الاسلامى ومواده وتدرجها في مختلف السنين الدراسية .

وقد أعرب جلالة الامبراطور له في أكثر من مناسبة عن تقدير لعمله حتى تمنى أن يكون هناك أكثر من قبطى يستطيع أن يؤدي لاتيوبيا مثل هذه الخدمات الجليلة التى يقدمها هذا المستشار .

لكن اذا كان للأقباط أن يفخروا بكل هذه النواحي التى اتجهوا فيها الى الانتاج لما فيه من مصلحتهم ومصلحة امتهم . الا ان هناك ناحية اخرى لا يملك القبطى اذا اتجه الى دراستها سوى الشعور بالخزى . هى ناحية الدين . فقد كان دور الرعاية الدينية لهذا الشعب يكاد يكون سلبيا محضا . وكأنما عنى الاساقفة والمطارنة باختيار القسس من بين الجهلاء كى لا يرتقوا عن مدارك رؤسائهم حتى اضطر المجلس الملى أن يلفت نظر البطريرك الى الحالة السيئة التى تردى فيها الكليروس بسبب تجاهل المطارنة لخريجى الكلية الكليريكية . فكان يقوم بتنبيههم الى ما يجب عليهم من اختيار القسس من بين المتعلمين (١) ولكن رغم كل ذلك حرص المطارنة على هذا التجاهل لأن الاخيرين لم يكونوا يدفعون ما يتوقى المطارنة الى الحصول عليه . وقد أبدى كثير من المطارنة عطفهم على المدرسة الكليريكية وخريجيتها في كثير من المناسبات لكن هذا العطف لم يتعد حد الكلام المنمق حين يقال أو يكتب .

وانا نجد هذه الحال مصورة تماما في تقرير رفعه ابراهيم ت كلا عضو المجلس الملى الى أعضاء ونواب المجلس الملى العام ولجنة الكنائس في ٢١ مايو سنة ١٩٢٩ حين قال « انه لحال ينفر لها قلب كل مخلص لطائفته عندما يجتمع برجال الكليروسه وهم رعاته وقادته فيجدهم يجهلون أبسط النظريات العلمية . فكيف بهم وهم يجهلون أصول دينهم . ولا أقول فلسفته . مع ان معرفة الدين يستدعى دراسة عميقة في العلم والفلسفة كما هو الحال في الطوائف الأخرى . التى أصبح الفرق بيننا وبينها فرقا شاسعا بين رفعة عظيمة عندهم وانحطاط مخز لنا — وكلما فكرنا في هذا الانحطاط واسبابه اتجه

(١) المدرسة الكليريكية ص ١٠٤ الى ص ١٠٨ .

نظرنا الى المدرسة الاكليريكية التى يتخرج منها رجال الكهنوت والوعاظ بوجه عام (١) ونيت الامر قاصر على خريجى المدرسة الاكليريكية اذ لو كان رجال الاكليروس من خريجى هذه المدرسة لهان الامر . لانهم افضل بكثير ممن يرسمون من عامة الشعب الجهلاء . وبعضهم لا يكاد يعرف القراءة والكتابة العربية .

« فكان من اثر ذلك ان انحطت المدرسة الاكليريكية ولم يعد يقبل عليها الا من لفظتهم المدارس المدنية . ومن ثم هبط مستوى التدريس فيها حتى كان أعلى مستوى وصلت اليه بعض المواد لا يتجاوز مقررات السنة الثالثة الثانوية . أما مواد الدراسة الدينية فمتوسطة ومعظمها سطحي » .

ولذا قرر المجلس الملى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٨ تأليف لجنة تقوم بدراسة مشروع لتنظيم المدرسة الاكليريكية واصلاحها . وفوضت هذه اللجنة ان تتخذ فى هذا الشأن من القرارات ما تراه سواء من جهة تعديل نظام التعليم أو تجديد عدد الطلبة أو انقاص عدد المدرسين . أو استبدال الموجودين بسواهم . أو غير ذلك (٢) وقد اعترف رجال الدين أنفسهم بهذه الحالة السيئة فى تقرير لهم مؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٨ حين قال « ان معظم رجال الاكليروس القبطى فى جهل مطبق فى العلم والدين » كما اعترف « ان الفرق بين رجال الدين عندنا وعند غيرنا فى الطوائف المسيحية فرق شاسع جدا بين رفعة عظيمة عندهم وانحاط مخز لنا » (٣) .

ومع ذلك رفض المجمع الاكليريكى الموافقة على قرار للمجلس الملى العام بارسال بعثة لاهوتية الى انجلترا بدعوى (ان المجلس باقراره هذا الاقتراح قد تجاوز الاختصاص الممنوح له بموجب اللائحة مـ ألفا لنفس المادتين ١٠ و ١٧ من لائحة ترتيب واختصاصات المجلس الملى العام . واعتدى

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٦٨ .

(٢) المدرسة الاكليريكية ص ٧٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٨٣ .

● هذا الوصف لا ينسحب على كلية اللاهوت الانجيلية التى كانت تخرج القادة والمفكرين ولا تقبل الا خريجى المدارس الثانوية (الناشر) .

بذلك على سلطة الاكليروس ويكون قراره من هذه الوجهة باطلا قانونا) .

وكان هذا الانحطاط الذى وقع فيه الاكليروس منذ زمن بعيد والذى بدأ واضحا للغاية فى سنة ١٩٢٨ هو الذى سبب الكارثة التى حاقت بالاقباط فى هذه السنة وما تلاها من الايام . فقد مات الانبا كيرلس الخامس فى أغسطس سنة ١٩٢٧ وكان المنتظر أن يكون البطريرك الجديد منتخبا بالشعب من طائفة الرهبان كما كان التقليد منذ دخول المسيحية الى مصر ويشترك فى انتخابه بعد تدقيق وفحص طويلين رجال الدين والشعب فأبى الفساد الذى امتد الى مناصب الاكليروس كلها فى ذلك الوقت الا ان يمتد أيضا الى اكبر منصب فيه فتطلع الى هذه الرئاسة بعض الاساقفة والمطارنة وعلى رأسهم الانبا يؤنس مطران البحيرة . فكان ان سعى الى هذا المنصب بكل الطرق . وكانت أولى هذه الخطوات اصدار لائحة جديدة لانتخاب البطريرك فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ تبيح ترشيح المطارنة للكرسى البطريركى دون أن تستند فى ذلك الى سند من التقاليد سوى قرار للمجمع المقدس فى يوليو سنة ١٩٢٨ يبيح ترقية المطارنة الاساقفة الى رتبة البطريركية وحصر انتخاب البطريرك من بينهم خلو الكرسى (١) وقد استند هذا القرار على كثير من المغالطات المقصودة والتخريجات البعيدة عن المنطق وكون هذه اللائحة مخالفة للتقاليد والقوانين الكنسية تدعو الاقباط ولا شك الى عدم الاعتراف بكل بطريرك يجلس على كرسى البطريركية طبقا لهذه اللائحة وما يشابهها . وانتهزت الحكومة القائمة فى ذلك الوقت هذه الفرصة السانحة لتمد يدها الى التقاليد القبطية فتهدمها كما يكون هذا التدخل سابقة لتدخل الحكومة فى كل اختيار لاحق . فكان ان تم الاتفاق بينه وبين الحكومة على حصر حق الانتخاب فى عدد ضئيل من الوزراء السابقين والحاليين وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب انحاليين والسابقين وبعض أعضاء المجلس المليى السابقين واللاحقين أيضا فكان عدد هذه المجموعة ستة وتسعين أوصاهم توفيق دوس (الوزير القبطى آنذاك) واحدا واحدا ان يعطوا: أصواتهم للأنبا يؤنس (٢)

(١) الرحلة البطريركية ص ١٣ .
(٢) من المذكرات الخاصة بالسيد حبيب باشا المصرى باذن خاص من ورثته .

وفي يوم الانتخاب نال الانبا يؤنس سبعين صوتا من ٨٥ وهو عدد من أدلوا بأصواتهم . وبذلك ارتقى الانبا يؤنس الى منام مار مرقس بعد أن بذل في ذلك كرامته وكرامة الأقباط . ومنذ هذا اليوم eman الاقباط في نظر الحكومة بل في نظر أنفسهم .

وحاول الانجليز أن يصطادوا في الماء العكر :تقربوا بممثليهم الاسقف جوين الى فريق من الغاضبين وأوهموهم أنهم لو خرجوا عن طاعة رئيسهم وأنزلوه عن السدة المرقسية لوجدوا من الانجليز عوناً . ولكن الاقباط — رغم عظم الطعنة التي أصابت تقاليدهم وكرامتهم على يد كل من الحكومة والاكليروس ابوا أن يكونوا مخلص القط (١) وأن يسعوا الى حثهم بظلمهم فرضخوا ولكنهم قرنوا هذا الرضوخ باحتقار كل من سعى في هذا الامتحان أو اشترك فيه لأنهم وجدوا ان ما سعت اليه الحكومة أيام سعيد واسماعيل ونجحوا في الدفاع عنه آنذاك قد ضاع منهم بعد هذا العهد بخمسين سنة أو تزيد .

واذا كان الاقباط قد أجزموا في حق أنفسهم بتهاونهم هذا التهاون الجسيم فخطأ الحكومة في حق الوطن كان أشد وانكى . فهي بتدخلها قد اعتمدت على ما كان يتمتع به الاقباط طول تاريخهم — حتى في احك أوقاته — من حق انتخاب بطاركتهم في حرية . وهو ما لم تحاول اشد الحكومات تعسفا واضطهادا أن تتدخل فيه . وكان من اثر ذلك أن حمل بقية الاقباط هذا العمل في أنفسهم وأيقنوا أن الحكومة في سبيل أن تحيد عن سياسة المساواة التي كفلها الدستور . ومنذ هذا الوقت انعدمت الثقة بين الحكومة والاقباط واصبحت العلاقة بينهما كالعلاقة بين الصياد والطائر . وزاد من يقين الاقباط بهذه الفكرة ما كانت تأتيه الوزارة الصدقية وأمثالها من وزارات الاقلية من أعمال أبعدتها عن حسن ظن الناس بهم .

وعاش الانبا يؤنس التاسع عشر الى سنة ١٩٤٢ حين توفي وانتخب الانبا مكاريوس مطران اسيوط قائمقام بطركيا . ولم يتعظ المطارنة بما فات من حوادث الاربع عشرة سنة الماضية من امتهان مقصود لحقوق الاقباط من

(٣) نفس المصدر السابق .

ناحية الحكومة شجعها عليه ما شعرت من جميل على البطريك . بل تطلعت.
ثنوسهم التي أضلها الطمع مرة أخرى الى المنصب البطريكي ولو كان ذلك
على حساب الاقباط وكرامتهم . ولذا عملوا على تحدى ارادة الامة مرة
أخرى . ورشحوا بعضهم لمنصب البطريك . ولكي يضمن الانبا مكاريوس
تعزيد الناخبين له . وعدهم أنه في حالة انتخابه سوف يقف في صف اشراف
المجلس الملى على الاوقاف الخيرية القبطية . حتى اذا نجحوا واخذوا في تنفيذ
وعده وقف اساقفة الاديرة في وجهه وابوا ان يسلموا للمجلس الملى بأى
اشراف . فوقع البطريك بين المطرقة والسندان (١) واخذ يظهر الضيق من
آن الى آخر بالهرب الى الدير والامتناع عن نصريف الشئون العامة ، ولذا لم
يكن ما أصاب الاقباط في عهد هذا الاخير بأقل مما أصابهم في عهد سلفه
من استمرار النزاع بين المجلس الملى (وهو الذى أصبح يمثل الاقباط تمام
التمثيل) وبين رجال الدين ممثلين في المجمع المقدس . علاوة على :

١ — نقل الكهنة من كنيسة الى أخرى رغم مخالفة ذلك للتقـاليد
الكنسية .

ب — رسم الكهنة مقابل هدايا نقدية .

ج — خلو الابرشيات من الاساقفة زمنا طويلا حتى يوجد المرشح الذى
يدفع .

د — عدم اكتراث المطارنة في كثير من المواقف وتعتديهم على ابرشية
مصر الاسكندرية يقيمون فيها الشعائر دون رقابة او تصريح .

هـ — تناقص ايراد البطريكية حتى وصل الى درجة العدم

ولقد كان هذا الحال دافعا للبطريك الى الندم والتفكير في تعديل لائحة
الانتخاب وقصره على الرهبان الذين لم يتعدوا درجة القمص الا ان غيره من
الاساقفة الذين كانوا ينتظرون موت البطريك العجوز بفارغ الصبر لينالوا
حظهم من هذا الكنز وقف في سبيل هذه الامنية واذا كان الله قد شاء ان يرحم

هذه الامة من هذا الخلاف ليتعظوا بما فات منهم ويعودوا الى سابق قناعتهم وزهدهم وتقاليدهم حين مات الانبا مكاريوس بعد عام واحد الا ان هذا الجشع وروح العناد والتحدى للامة ظهرت بشكل واضح مرة اخرى في جماعة المطارنة والاساقفة فتقدم للترشيح للمنصب الانبا يوساب مطران جرجا وكان سابق تعليمه في اثينا واتقانه الفرنسية واليونانية دافعا لكثيرين ان يحسنوا الظن فيه فقبلوا ترشيحه رغم مخالفة ذلك للتقاليد .

وكان عهده أسوأ ما شهدت الامة من عهود . اذ تسلط عليه جماعة من الجهلة غير المسؤولين . وتصرفوا في شئون الابقساط المالية والروحية تصرفات شاذة . وانتشرت السيمونية وأصبحت صفقات هذه المناصب تعقد على قارعة الطريق في صراحة مخزية . بل حررت لاجلها عقود وصكوك . مما حدا بالاقباط وبعض المطارنة أن يطلبوا وقف هذا الهوان .

وكان تخلى بريطانيا عن انتدابها على فلسطين وتركها هذه البلاد دون أن تقيم بها حكومة تتسلم منا السلطات سببا في اعلان يهود فلسطين قيام دولة اسرائيل مما أدى الى زيادة شعور السخط من المصريين وكان ان قررت الحكومة المصرية ومعها الحكومات العربية دخول الجيوش العربية الى فلسطين من أجل الاطاحة بحكومة اسرائيل الجديدة ووضع الامر في يد العرب ولكن عدم استعداد الحكومات العربية للحرب وتفتش الخلاف بينهم ومعها أسباب أخرى كثيرة أدت الى هزيمة الجيوش العربية وكان طبيعيا ان يساهم المسيحيون بكونهم جزءا من الجيش المصرى في هذه الحرب وان يسقط منهم ضحايا كما سقط غيرهم .

وزاد السخط بين المصريين حين تأزم الموقف أكثر من ذلك بين الحكومتين المصرية والبريطانية بسبب ميل الأخيرة الى عدم الجلاء عن مصر استجابة لطلب الأولى في عدم موافقة الثانية أيضا على اعتبار المسألتين المصرية والسودانية مسألة واحدة وإصرارها على عدم حل المسألة السودانية الا بعد الرجوع الى الشعب السودانى منفردا عن الحكومة المصرية مما أدى بالحكومة المصرية الى إلغاء معاهدة الزعفران وتلقب ملك مصر بلقب جديد هو « ملك مصر

والسودان « وتعويلها على سن دستور خاص بالسودان يقرر نوع الحكومة التى ستقام هناك وقد أدى هذا الأمر الى الهاب شعور الشعب المصرى كله بالسخط على بريطانيا وظهور حركة المقاومة المسلحة واعتدائها على قواعد الجيش البريطانى بمنطقة القتال وكان طبيعيا أن يكون شعور المسيحيين كجزء من الأمة المصرية لا يختلف مطلقا عن شعور بيعة أفراد الأمة واشترك منهم كثيرين فى هذه الحرب التى أدت الى سقوط ضحايا آخرين من المصريين سواء من المسلمين والمسيحيين .

وكان الملك يخاف هذا التوتر الشديد بين الحكوميين وهو الحريص على صفاء العلاقة مع بريطانيا لانه يراها الضمان الوحيد لعرشه اذ كان فى نفس الوقت يعرف تماما ما يكنه له المصريون من كره وسخط بسبب مسلكه الفاسد وفضائحه التى كانت على كل لسان . فكان أن دبر وبعض أنصاره المجهولين حتى الآن أمر حريق القاهرة يناير سنة ١٩٥٢ .

وفى رأى انه كان المدبر الوحيد لهذا الحريق والدليل على ذلك ما فعله عمه توفيق من حريق الاسكندرية غداة اشتعال الشعور الوطنى فى سنة ١٨٨٢ ومنصرته للحكومة العربية وقد أدى هذا الحريق كما نعلم الى ضرب الحركة العربية من الخلف ثم الاحتلال البريطانى للبلاد .

وقد أدى حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ الى نفس النتيجة وهى ضرب حركة المقاومة المسلحة فى منطقة القنال ثم اقالة حكومة الوفد التى شجعت على هذه الحركة ثم اطلاق يد الملك فى اقامة ضروب من الحكومات المتوالية يرضى بالتفاهم مع الانجليز وفقا لما يريدون .

هذا فى الوقت الذى كان بعض الضباط الذين اشتعلت فى نفوسهم روح السخط على الملك من جراء موقفه فى حرب فلسطين ثم من جراء فضائحه التى شاعت على كل لسان كما ذكرنا ثم زيادة نفوذ غير المسؤولين الى حد تدخلهم فى جميع الشئون لغير المصلحة المصرية قد تجمعوا فى منظم سرى هدفه الاطاحة بهذا الملك الفاسد . والعمل على تقويم المصالح المصرية التى فسدت وأهمها الجيش ثم العمل على انهاء الاحتلال البريطانى وحل المسألة السودانية .

وكانت الحالة بعد يناير سنة ١٩٥٢ تزداد سوءاً من جراء انطلاق يد
الملك في اقالة واقامة الوزارات المصرية على نحو واضح سوى الرغبة
في اظهار سلطته المطلقة ومنح المكافآت لكل من وقف في صفه واقصاء
كل من عمل على معاكسته واستمر التنظيم السرى ينمو تحت الارض ويبلور
اهدافه ووسائله حتى قام بحركته المباركة في ٢٣ يوليو من نفس السنة التي
انتهت بزوال الملكية واقامة الجمهورية على قواعد جديدة اهم ما يعنينا منها
المساواة التامة بين جميع افراد الشعب دون اعتبار لجنس او دين او
مذهب .

خط همانون نقلا عن « العالم العربي الحديث »

للدكتور جلال يحيى ص ٢٠٢ وما بعدها

لا يخفى أنه منذ ابتداء دولتنا كانت الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيعة في غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعية ورفاهيتهم وعمار البلاد في غيبة ما يكون من الكمال ولكن منذ ١٥٠ سنة لم يعد انقياد ولا امتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيعة لسبب ما طرا عليها من الحوادث الكثيرة ، ولهذا تحولت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدمار واية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول الى الاضمحلال ومنذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة اتجهت افكارنا الخيرية الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظرا الى مواقع ممالك دولتنا العلمية وارضيتها الخصبة وقلبية اهلها واستعدادهم اذا اخذ في عمل الوسائط اللازمة ، يشاهد سرعة حصول المقصود بنزويق الله تعالى في برهة خمس او عشر سنين .

فاعتمادا على عون الله تعالى واستعدادا بروح نبينا قد شوهد من الأمور المهمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالكنا المحروسة ونتيجة خلاصة هذه القوانين هن عبارة عن منية الحياة وصيانة الوطن وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقة اخذ العساكر وحدة استخدامهم فلا يوجد شيء في الدنيا افضل من الحياة والوطن والشرف . فالانسان اذا نظر الى هذه الامور وكانت على خلاف رضاه يئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياته وشرفه بأعمال يؤدي بها الدولة والبلاد . وبخلاف هذا اذا كان مطمئنا على حياته وعرضه وشرفه لا يحسد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهدا في حسن خدمة الدولة والله . واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام في كل مايؤول لنجاح الدولة وعمار

البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئنا عليه فيكون مهتما بأعماله ومجتهدا في توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والله يحب الرطاس . ويبذل نفسه دونها فهذا الامر يجب ان يكون مستعدا لكل فعل حميد . وأما ترتيب مال الويركو (اى مطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقتضى لها نفقات كثيرة لتجهيز العساكر والدول ان تأخذ النفقات من الأهالى لصيانة المملكة .

ولقد امرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحولات بيد شخص واحد الامر الذى كان الاقدمون يعتقدون انه أصل كل سعادة وتفرض الاموال الاميرية على انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وأن لا يطلب منه شئ خلافه ومن الامور المهمة أيضا وضع قوانين لتحسين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية .

ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالى أن يبذلوا انفارا للعسكرية فقد أمرنا بوضع قوانين في كيفية أخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية أربع سنين أو خمس لانه اذا اخذنا انفارا اكثر من طاقة الاماكن أو مكثوا مدة حياتهم العسكرية يكون ذلك ظلما وضررا على العباد والبلاد ويصير الانفار يأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة ومن الآن فصاعدا لا يقاس أحد لاسرا ولا جيرا بأى نوع كان من التقاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقا لشريعتنا الالهية ولا يسمح لأحد ان يهين شرف الآخر كائنا من كان .

ولكل واحد الحرية الكاملة أن يتمتع بأملكه وأمواله دون معارضة . كما أن اقارب المذنب لا يقاضون بذنبه ولا يحرمون من ميراثه اذا كانوا أبرياء .

فلتعلم هذه الترتيبات الى جميع رعايانا من أى ملة كانت وليتمتع بها الجميع دون استثناء وليكن اطمئنانا كاملا ممنوحا منا الى جميع أهالى المملكة

على حياتهم وشرعهم وأموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة ولقد أمرنا
بوضع مجازر للأحكام العادلة يكون فيه وزراؤنا وكلاء رجال دولنا يتكلمون
فيه بالحرية الكاملة لأجل ترتيب ما يلزم لأطمئنان الرعايا على حياتهم
وأموالهم وسعيين الأموال الأميرية وأما الشرائع المخصصة بترتيب العساكر
فنصير المناوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السر عسكر وكل
ما يرتبوه من الأشياء المستحسنة يعرض لسدتنا السلطانية فنشرفها في
أعلاها خطا بيدنا المملوكية لأجل المصادقة ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها
عناية سوى تقوم الديانة والدولة والشعب وخبر المملكة نعظمنا
الشاهانية ننعيد أن لا تفعل شيئا مخالفا لها . ونؤكد على الإقامة بعهدنا
هذا نقسم بالله العظيم أمام كل العالم ووكلاء رجال الدولة في بيت الحرمة
الشريفة ونحلفهم أيضا وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير على نور
ذنبه مع تطح النظر عن رتبته وأعباره . وبما أن للموظفين ماعيات ثابتة
فيجوز التقصص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي تحرمها الشريعة
الالهية ويكون سببا لسقوط المملكة وبما أن هذه القوانين المتقدم ذكرها قد
جعلناها جزءا من القوانين القديمة فنعلم أرادنا المملوكية في الاسنانة
العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة وتعطى مسورها أيضا إلى سفراء الدول
المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولتهم شهودا على دولنا إلى
ما شاء الله وعد ذلك ليحفظنا الله بحفظه الإلهي وكل من خالف هذه
الترتيبات فيكون موضوعا للعنة الالهية إلى الأبد آمين .

مراجع البحث

- | | | |
|---------------------|---|--|
| ابراهيم امين غالى | : | الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية
فى شبه جزيرة سيناء .. مقال فى مجلة
السياسة الدولية . |
| ابراهيم عبده | : | تطور الصحافة فى مصر . |
| ابن تغرى بردى | : | النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . |
| أحمد شفيق | : | مذكراتى فى نصف قرن . |
| أحمد عزت عبد الكريم | : | تاريخ التعليم فى مصر . |
| أمين سامى باشا | : | التعليم فى مصر . |
| توفيق اسكاروس | : | نوابغ الاقباط ومشاهيرهم . |
| الجبرتي | : | تاريخ الجبرتي . |
| جولدشتين | : | الحضارة المصرية (ترجمة أحمد فخرى) . |
| حبيب المصرى | : | مذكرات خاصة غير منشورة . |
| حسين هيكى | : | بطرس الى (مقال فى المجلة الجديدة) . |
| دافيدسون | : | صحوة افريقيا (ترجمة محمد عبد القادر
حمزة) . |
| رفعت رمضان | : | مصر والسيادة على السودان . |
| رؤوف حبيب | : | المعلم يعقوب (مقال فى صور من تاريخ
القبط) . |
| زاهر رياض | : | ١ — كنيسة الاسكندرية فى افريقيا .
٢ — مصر و افريقيا . |
| الزير | : | ٣ — المعلم يعقوب (مقال فى مجلة
المقتطف) . |
| ساويرس بن المقفع | : | الزير باشا رجل السودان .
تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية . |

- السـخاوى : البدر الطالع بمحاسن من فى القرن السابع
 سليم حسن واحمد السكندرى : تاريخ مصر من الفتح العثمانى .
 عبد الرحيم الترافعى : ١ - تاريخ مصر فى عهد الخديوى
 اسماعيل (مجموعة تاريخ الحركة
 الوطنية) مصطفى كامل باعث الحركة
 الوطنية .
- على أمين : الكتاب الممبوع .
 حسين كمال : تاريخ السودان القديم .
 على أبراهيم : تاريخ الممالك البحرية .
 فتحى رضوان : مصطفى كامل .
 الشهيد محمد فريد .
- السكندى : القضاة والولاة .
 محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
 الحملة الفرنسية على مصر وظهور
 محمد على .
- المقـررى : السلوك فى معرفة دول الملوك .
 ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر .
 ورن : صفحة من تاريخ القبط ترجمة جمعية
 مارمينا .
- يوسف جرجس : : الرحلة البطريركية .
 يوسف خليل : : انجلترا والجلاء عن مصر .
 يونان لبيب : : الحياة النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال .
 رمزى تادرس : : الاقباط فى القرن العشرين
 تاريخ تكلأ هيمنوت مخطوط بمكتبة الدار
 البطريركية .

الكتاب الأخضر المصرى بشأن السودان
تدكار المؤتمر القبطى .
المؤتمر المصرى .
المدرسة الأكليريكية .
السنكسار .
الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
علاوة على جرائد الأهرام . الوطن .
اللواء . المقطم .
ومجلات : آخر ساعة — الايمان —
انوار . السياسة الدولية .

المراجع الأجنبية :

Anis : England and Suez Route in 18th Century

Abbas Mikky : British Policy in Sudan.

Budge. S. W. : History of Ethiopia and Nubia.

Baedeker : Egypt.

Gorbal and Others : The Unity of the Nile Valley

George Sobhy : Education in Egypt.

Kiriakos M. : Copts and Muslims under British Rule.

Levingstone : In the Darkest Continent.

Milner : Egypt and the Egyptian Question.

Ohr Walder : Ten Years in Mahdy's Captivity.

Omar Al-Tounsy : Voyage à Darfour (Traduction).

Cambridge Medieval History : Vol IV .

Pankhurst R. : Ethiopia.

المؤلف

دكتور زاهر رباح

دكتوراه في التاريخ الإسلامى
(جامعة القاهرة)

عضو بالجمعية التاريخية المصرية

عضو بالجمعية الجغرافية المصرية

عضو بجمعية الآثار القبطية

عمل مدرساً بجامعة القاهرة
وأستاذاً مساعداً بمعهد الدراسات
الأفريقية .

عمل أستاذاً زائراً بالفسا
وألمانيا الغربية والجزائر .

له سبعة عشر مؤلفاً